A73

السفر الى المؤتمر

(وهى الرسائل التى كتبها)

أحمد زكى

(مترجم مجلس النظار)

أثناء سياحته بأوروبا حينما توجه الى لوندرة للنيابة عن الحكومة المصرية

فى مؤتمر المستشرقين الدولى التاسع

سافروا تصحوا وتغنموا
حديث كريم

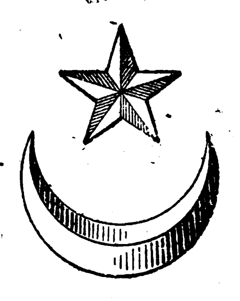
(حقوق الطبع والترجمة محفوظة)

الطبعة الاولى بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق

سنة ١٣١١ هـ / ١٨٩٣ م

Digitized by Google

893.785
Z13



بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد
الاقصى وصلاة وسلاما على نبي الهجرة الذى اختصه مولاه بمحامد
لاتستقصى وعلى آله وصحبه الذين انتشروا فى الامصار وطافوا
الاقطار فرفعوا للعلم أعلى منار وضربوا للناس الامثال فاصبح
التمدن كما تراه جليل المقدار سامى الاعتبار

(وبعد) فان لكل عامل غاية يتوخاها ولكل مرتاد ضالة
ينشدها وضالتى التى نشدتها فى هذه المجموعة العناية بتخييل
ماشاهده العيان من المناظر الشائقة والمرائى الرائقة تخييلا
تنجلى به للقارئ مواثل يتقراها بيده ويسبرها بساعده فانى
حاولت ان أمثل له تأثير الحس وانفعال النفس اذ الباصرة
تنقل والخيال ينقل والمفكرة تخبر والضمير على مايسبر فتنفعل

Digitized by Google

الحواس فتنبئ بحسب مايقع عليها من التأثير وحكمها فى ذلك راجع الى مزاج الانسان وطبيعته ومشربه وتربيته فقد كنت أعرف قبل تطوافى ببعض البلدان أمورا كثيرة ولكننى لما طوحت بى الايام الى تلك النواحى تناسيت الصور التى كانت مرتسمة فى مخيلتى فمثلها الى الانفعال النفسانى بصورة توافق أو تخالف ما كنت أعرفه فهذا هو التأثير النفسانى الذى ابتغيت المبادرة بتخطيطه بوقته فى رسائلى هذه قبل ان يضيع شئ منه أو يعرض مؤثر آخر عليه حتى انى كنت اكتب رسائلى هذه وأنا بين حل وترحال تطوح بى الاسفار ولا يستقر لى قرار وليس لى من الوقت مايكفى للمراجعة والتنقيح واعادة النظر والترجيح فقد كنت أخذت على نفسى قبل السفر ان أمضى نهاري فى التنقل من مكان الى مكان أصعد الى أعالى كل مدينة نزلت بها وأدخل فى جميع آثارها وأطوف كل شوارعها وأزور كافة متاحفها وبالجملة أشاهد كل مايمكن مشاهدته فى اليوم وأقضى شطرا من الليل ليس بقليل فى إتمام ما يتسنى رؤيته بالليل وتعليق المفكرات وكتابة البريد وكنت فى كل لحظة متخوفا من فوات القطار حتى لقد صدق على قول بديع الزمان الهمدانى

اسكندرية دارى * لو قر فيها قرارى

لكن بالشام ليلى * وبالعراق نهارى

أوما قاله السعد التفتازانى

يوما بحزوى ويوما بالعقيق وبالـ * عذيب يوما ويوما بالخليصاء

بل قد كان وقتى من أقصر مايكون مع مالا ينفك عن المسافر من قلق البال وتشتت الافكار ولقد كنت أسعى فى توفير الزمن وتكثيره باتعاب نفسى وحرمانها من الراحة حتى اننى كنت أفضل السفر ليلا فى أغلب الاحيان الااذا لم يكن ذلك فى الامكان ولقد صدق رسول الله الكريم فى قوله (عليكم بالدلجة فان الارض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار)

وقد أفرغت وسعى فى التحقيق والتدقيق كما يشهد به المنصف الذى ينظر فى هذه الرسائل التى يعلى من رايتها ويرفع من ذكرها اننى حررتها وأنا أنظر الاشياء بعينى مصرى بحت ينفعل بانفعال المصريين ويكتب للمصريين فلم أعبأ بقول مصنف غربى ولم ألتفت الى نبأ مؤلف عربى الاحينما تدعو الضرورة الى تحقيقات جغرافية أوعلمية وذكر بعض الاحصائيات وفيما عدا ذلك أشهد الله انى لم يكن لى من معتمد فى استكناه الحقائق واستجلاء الماهيات سوى شعورى المصرى الخالص من أثر الشوائب والاستفسار ممن يوثق بعلمه وخبرته من أهل هاتيك الديار هذا وقد باشرت طبعها بغاية العناية مع اصلاح الكثير من غلطات المطبعة وايراد بعض الجمل التى كانت حذفت فى غيبتى لاسباب اقتضاها الزمان فرددتها

Digitized by Google

كما كانت يوم كتبتها باوروبا بالتمام غيرانى أضفت كثيرا من الحواشى والتعليقات لزيادة التحقيق والتدقيق فى بعض المواضع

وهنا انبه القارئ الى ان الرسالة الكبيرة على باريس لم يسبق طبعها قبل الآن هى وكمالة الرسالة الاندلسية فى بيان امتزاج العرب بالعجم فى اسبانيا والاستشهاد على ذلك بالاعلام وكذلك الخاتمة وانى استلفت النظر بنوع مخصوص الى رسالة باريس الثانية فانها تصور هذه المدينة للقارئ تصويرا وافيا جامعا بحيث ان من تمعنها وصبر على قراءتها يمكنه ان يقول انه يعرف باريس ومافيها مما قد لايعرفه كثير من المقيمين فيها سواء كانوا من أهلها أو النازلين بها وأكثر مما يقف عليه السائح الذى قد يقيم فيها شهرا أو أكثر من شهر وأما كمالة الرسالة الاندلسية فهى تستحق من العناية مالا يقل عن ذلك وحسبى انى طرقت بها بابا جديدا توصلت منه الى منهاج من التحقيق يشهد الله بمقدار ماعانيته فيه من التعب والتنقيب والمراجعة وكل ذلك لايخفى على فطانة أهل الانصاف ومحبى الحقائق العلمية

وأقول ان مادونته فى هذه الرسائل هو شئ قليل فى جانب ماعندى من البيانات والمعلومات التى عنيت بتعليقها وجمعها لتدوينها فى الرحلة الكبرى وغاية سؤالى للملك المتعالى ان يقدرنى

Digitized by Google

على اتمام تدوينها وييسر الطريق الى طبعها وتعميمها فانى عزمت على ادارة سياجها وانتهاج منهاجها وجعل موضوعها فلسفيا محضا أتحرى البحث فيها بصفة كونى مسلما شرقيا يعنينى من عملى التنقيب عن آداب الشرقيين والغربيين والمقارنة بين اخلاقهم وعلومهم ومذاهبهم ونحلهم ومبلغ ارتقائهم ومقدار تأثير الأولين على الآخرين أو الآخرين على الاولين فى القديم أو الحديث ومرجع ذلك فى الاغلب الى دواوين الفلاسفة ومصنفات الجهابذة من الفريقين والله الهادى الى سواء السبيل ٠

احمد زكى

Digitized by Google

(الرسالة الاولى)

من نابولى فى يوم السبت ٢٧ محرم سنة ١٣١٠ - ٢١ أغسطس سنة ١٨٩٢ *

فراق الوطن

حقا لقد صدق من قال انه اذا كان للعلم مجال فللعمل ألف مجال وان حقائق الاشياء وهى فى عالم القوة أقل منها بكثير حينما تبرز الى حيز الوجود وتتجلى فى مظاهر الشهود فطالما قرأت ماأتى به الكتاب من الآيات البينات وماترنم به الشعراء من الابيات الابيات فى الحنين الى الاوطان والتشوق الى الاهل والخلان والتوجع من مفارقة المألوف والتفجع من مبارحة الديار والربوع ولم تكن نفسى تتأثر من ذلك الا بمقدار اعجابها ببراعة الكاتب واقتدار الناظم على صوغ المعانى فى أجمل القوالب وسبك الالفاظ على أبدع طراز وتمثيل التخييل بما ترتاح له النفس وينشرح منه الفؤاد وكنت اظن ان ذلك انما مصدره تنميق الكتاب وتزويق الشعراء حتى قضى على طلب المعالى بمفارقة مصر السعيدة المحروسة وديارها المحبوبة المأنوسة فانجلت لى هذه العواطف الجليلة فى أجلى جلبابها وحلت هذه الشعائر الحميدة فى فؤادى باحلى معانيها فتمنيت حينئذ لو كنت من المنشئين المجيدين لاصور لك أيها القارئ العزيز والمواطن الفطين حب الوطن مجسما فى أجمل حال وعلى أكمل منوال ليكون ذلك

Digitized by Google

باعثا يدفعك الى تعزيز شأنه والسعى بما فى قدرتك على رفع مناره والاجتهاد بما قسمه الله لك من العرفان فى تهذيب ابنائه وبث نور العلم فى انحائه فانى وعينيك حينما اقترب الوقت المضروب لمبارحة القاهرة (يوم السبت ١٣ أغسطس سنة ١٨٩٢) كنت أ... الطرف وأزود الناظر بما فى القاهرة من باهر المناظر وأجتلى محاسنها الكرة بعد الكرة وأتملى من رؤية معاهدها المرة بعد المرة ليكون لى ذخر منها الى أن أعود اليها بسلامة الله وحسن توفيقه وما زلت على هذه الحال مشغول البال مشتت البلبال وأنا كالباهت الحيران حتى حان وقت السفر

احتفال الاخوان

فاحتشد الاخوان الافاضل والخلان الاماثل لتوديعى على محطة العاصمة وكان الكثير منهم يقول «انما جئنا لنودعك حتى تتقوى بنا عزيمتك وينشرح برؤيتنا صدرك فتبذل قصارى ماعندك فى حسن القيام بالمأمورية الجليلة التى عهدت اليك وتأتى باصدق برهان على ان فى مصر من الشبان من اذا شملهم بنظره الكريم أمير مصر مولانا العباس أصبحوا من أفاضل الناس وجعلوا للوطن العزيز بين الامم المتمدنة مقاما محمودا وفضلا مشهودا»

فكنت أنظر الى نفسى ومن أنا ثم أردد الفكر فى هذا

الاحتفال وفى أمثال هذا المقال فأرى أن هذا التظاهر العظيم وان هذا الاحتفال والتكريم انما يقصد به اعلاء كلمة الوطنية واتحاد القلوب على تنشيط كل من يقوم بعمل يرجى منه نفع البلاد بقطع النظر عن مقام القائم بهذا العمل فى هيئتنا الاجتماعية صغيرا كان أو كبيرا فانى لم أبلغ الى الآن من مناصب الرآسة ومراتب العظمة والوجاهة مايجعل القوم يتقاطرون على التقرب منى والتزلف الى من باب الرهبة أو من باب الرغبة فلا ريب فى ان الباعث لذلك الاحتفال والاجلال هو الاخلاص فى التكاتف على تأييد كل مسعى على وتعضيد كل عمل وطنى وان اخواننا أيدهم الله بروح منه قد احسوا بوجوب الدعوة الى رفع شأن الوطن وتعزيزه فلهم من وطنهم أخلص الشكر واجزل الثناء اذ ليس فى وسعى ان أوفيهم حقهم من الاعتراف بجميل فضلهم

ولقد لاقيت فى الاسكندرية (عروس المشرق وعنوان المغرب) عند مقدمى اليها وقيامى منها مثل مالقيت فى القاهرة وفى ذلك برهان قاطع على ان الشعور بحب الوطن والدأب على استمرار حركة النهضة الوطنية قد سرى فى عامة الفضلاء سريان الارواح فى الاجساد وكيف لايكون الامر كذلك وأميرنا الهمام وولى نعمتنا المقدام مولانا العباس وطد الله دعائم ملكه ونشر فى الخافقين ألوية

مجدة لنا به أحسن اسوة وأتم قدوة فانه أول من يسعى فى النهوض بالوطن المحبوب الى ذروة العز ومنصة الشرف

شرف المثول بين يدى ولى النعم

وقد قال لى حينما تشرفت بلثم أيديه الكريمة وشكر اياديه العميمة ان بعضهم اعترض على تعيينى فى هذه المأمورية العلمية العلية بانى مازلت فى دور الشبيبة والفتوة فأجاب بلفظه الفاخر المنيف

«ان هذا هو ذات الواجب وعين الصواب فان زكى من نوابغ الشبان وبه يمكننا أن نبرهن لعلماء أوربا على ان عندنا من الشبان من يجارونهم فى ميادين الفضل والعرفان»

فكيف لاأتيه فخارا واختال ابتهاجا بهذا القول الذى هو أفضل من جميع علامات التشريف ودرجات التكريم وكيف لاأدأب على البحث والاجتهاد حتى يبقى اعتقاد ولى النعم فى عبده المخلص هكذا على الدوام وكيف لايكون فى ذلك المقال أعظم تنشيط لامثالى من الشبان يدعوهم الى اطراح الكسل وترك الخمول والاقبال على كل عمل يرفع شأن وطنهم و يستوجب رضا ولى نعمتهم ولمثل هذا فليعمل العاملون وبمثل هذا فليتنافس المتنافسون

ركوب البحر وزيادة الاشجان

قمت من الاسكندرية فى صباح يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ٩٢ فى باخرة من بواخر شركة اللويد النمساوية اسمها فورورد قد

Digitized by Google

جمعت الى النظافة أسباب الراحة بحيث لم يكن ينقصنا فيها شيء مما
نراه فى المدائن سوى قرب تناوله وسهولة الحصول عليه بمجرد الضغط
على الجرس الكهربائى ولم يكن فيها كثير من السواح ولكنها
أقلعت (أو أبحرت من البخار) بعد الوقت المضروب بربع ساعة على
التقريب وسارت الى ان خرجت من بوغاز الاسكندرية وابتعدت
عن الشطوط المصرية فكنت أحدق النظر المجرد ومستعينا
بالنظارة المقربة إلى رؤية اطراف الاراضى المصرية حتى سترها
حجاب الافق واذذاك أخذتنى كآبة وتولانى حزن وتملكنى انقباض
مما لم يكن لى به عهد من ذى قبل فاغرورقت الدموع فى قلب
فؤادى وتلهفت نفسى الى معاهد بلادى ولم تذهب عنى هذه
اللوعة الا بعد ان أطلت الفكرة فى انى أسعى الى مجد مؤثل قد
يدركه أمثالى وأعود الى وطنى سالما غانما رابحا ناجحا باذن الله تعالى
فشاغلت نفسى عن تيار هذه الافكار بالنظر الى تمايل السفينة
ذات اليمين وذات اليسار وتلاعب الامواج وصفاء الماء الذى
اكتسب فيما امام الاسكندرية لونا ازرق باهيا جعل اللجة كأنها
قطعة واحدة من الفيروزج الجميل

تعب البحر

ومازالت السفينة توالى سيرها حتى أتى ميعاد الطعام فاكات
قليلا منه لانى عجزت عن الاتمام ولم الـ وحقك من القادرين بسبب

Digitized by Google

ماعتراني من دوار البحر وان كانت الدوخة خفيفة جدا فقد أخبرنا أهل الخبرة ان هذه الحالة من اخف السياحات شدة على من ليس لهم عادة بالاسفار في البحار ولكن هذا القول لم يمكنني من الامتناع عن الاضطجاع على فراشي فلما حان العصر خرجت الى ظهر السفينة لاجرب الحالة فعاودتني الدوخة ودوران الرأس فقفلت معجلا الى مضجعي ولم تتيسر لى الاستراحة الا بعد ان صارت معدتي صفرا من الصفراء مدة الليلة الاولى واليوم الثاني والليلة الثانية ولم اتمكن من تناول شئ سوى قليل من اللبن بالقهوة وبعض الفاكهة وقد كان صاحبي حضرة الشيخ محمد راشد قد أصابه ما اصابني فلبثنا في حجرتنا مضطجعين على الاسرة متقابلين فكنا في هذه الحالة أشبه بالمرضى في المستشفى المتساوى ووجه الشبه الجامعة في الجنسية بين المستشفى والباخرة ونظافة الخدمة واتقانها وقيام عمال من صنف واحد بها وقد شعرنا بشدة اضطراب السفينة وتزايد ارتجاجها (أونودانها أوميدانها) حينما اقتربنا من جزيرة كريد (اقريطش عند القدماء أوقنديا عند الافرنج الآن باسم مدينة فيها ينسب اليها العسل الجيد وربما نحت منه العرب اسم السكر فقالوا القند وان كانت هذه الكلمة واردة في الشعر الفصيح وقيل انها فارسية)

Digitized by Google

وفى اليوم الثالث مررنا امام سواحل اليونان و بين بعض جزائرها وكان من معنا من بنى الاغريق (الجريج) فرحين مبتهجين برؤية سواحل بلادهم يرنون اليها بلحظ متوال والانشراح ملء فؤادهم ثم مررنا قبال جزيرة كورفو (قرفس فى كتب العرب) ذات المناظر الجميلة والحدائق الغناء التى اشتهرت فى السنة الماضية بقيام أهلها على بنى اسرائيل وفتكهم بهم الفتك الذريع

وصول برندزى

وما زال البحر صاحيا والهواء موافقا والشهية حاضرة حتى عوضنا مافاتنا من الطعام وخسر متعهده ما أكسبه اياه اشتداد البحر فى اليومين الاولين حتى وصلنا الى برندزى واسمها فى كتب العرب ابرندس وعند الفرنساوية برند (Brindes) وعند الرومانيين برنتسيون اوبرندزيوم (Brintision و Brindisium) وكنا نعتقد اننا نجد من وكلاء كوك فيها أعظم مساعدة فلم يتحقق فيهم أمانا وأقول انه اذا كان جميع وكلائه فى الجهات الاخرى من الكسل والخمول مثل ماهم عليه فى هذه الفرضة فالاحسن للغريب ان يسترشد بكتب الدليل ويباشر شؤنه بنفسه ولعلهم لايكونون كذلك فى بقية المدائن التى سنمر عليها وقد سمعنا عنهم خيرا كثيرا ونحن بمصر وسنكتب عما نشاهده منهم بعد ذلك ان شاء الله

Digitized by Google

كان وصولنا الى ابرندس أو ابرنطس كما يسميها العرب بعد قيام قطار الصباح (الساعة السادسة) المتوجه الى نابولى عن الطريق القريب فخرنا بين المقام فى هذه المدينة الحقيرة (بالنسبة لاروبا) وبين اتباع الطريق المنحنى مع القطار الذى يقوم الساعة تسعة وخمسة وعشرين ففضلنا الرأى الثانى لكى نتخلص من اخلاق أهل برنديس واخلاطها الذين هم أحط فى المدنية من جعيدية مصر وارذل من سفهائها واشد الحافا والحاحا من شحاذى السيدة زينب

الطريق من برندزى الى نابولى

فتوجهنا الى المحطة وكان مع رفيقى شنطتان ومعى أيضا اثنتان فابى رجال المحطة الا أن يكون ارسال شنطتين منها بعد دفع الاجرة عنهما فامتثلنا ودفعنا نحوا من ستة وثلاثين قرشا وهذا ليس من الغرابة فى شئ بل الاغرب ان أحد مستخدمى المحطة (وهو الذى الزمنا بحمل متاعنا الى المخزن) جاء الينا بعد ان تبوأنا مقعدنا فى القطار وطلب منا ان نتحفه بشئ من النقود فقلت له عجبا منك ومن فعالك تغرمنا ما ليس بواجب علينا للسكة الحديدية ثم تجيء وتطلب منا الاحسان ولكنه أظهر المذلة والمسكنة وبات فرحا مبتهجا حينما اتحفته بنصف فرنك ثم قام القطار فاذا الارض حوالى ابرندس مكتسية بحلة خضراء مزينة باشجار

Digitized by Google

مورقة كل ذلك والارض حجرية صخرية قد اذابت الامطار قشرتها واودعت فيها الخصوبة والبركة باذن الله بحيث اننا كنا نرى كثيرا من الاشجار نابتة بين شقوق الاحجار ونرى الاراضى بارتفاع وانخفاض واستواء وانحدار وكلها مجللة بثياب سندسية فى غاية البهاء وقد رأينا الكرم فيها وفى بعض جزائر اغريقية (Grèce) أى بلاد اليونان) لايرتفع عن شبرين فكان منظره كنبات الخس فى مصر ولكنه يأتى بالمحصول الكثير والعنب الجيد اللذيذ على مابلغنا من اهل هاتيك الديار

وهذا دليل على ان اتخاذ العروش والتكاعيب لاشجار الكرم مما لايجديها نفعا بل قد يترتب عليه قلة المحصول لان العصارة تتصرف فى ساق النبات واغصانه بدلا من ان تتكون ثمرا جنيا ومع ذلك فالحكم لعلماء النبات وبعد ان ابتعدنا عن ابرندس (برندزى) رأينا الارض قاحلة فيها نبات شاهدنا رأينا القوم يحرقونه فى بعض الجهات لتسميد الارض كما يفعل بعض أهل مصر

ولما تجاوزنا هذه الضواحى رأينا السهول قاحلة ماحلة ثم مررنا على بلاد عامرة وكان مرورنا على ساحل البحر الادريا تيكى (المعروف عند العرب بجون البنادقيين) وكانت معنا فى الوابور فرقة من الجنود فلما مررنا على محطة اوستونى (Ostuni) رأينا فيها كثيرا من

النساء العجائز ينتظرن من لهن من الاقارب فكن يودعنهم ويقبلنهم ببكاء وانتحاب مثل مايراه الانسان ببعض محاط مصر سوى انهن لايولولن بالعويل والصياح وما زال الوابور يسير بنا بين جبال وتلال وقيعان ووديان حتى قدمنا مدينة نابولى الزاهرة الباهرة بعد ان اخترقنا ثلاث مقاطعات فى الجنوب والشرق الشمالى لجنوب ايطاليا وكلها تستقى من مياه الامطار تخزنها فى صهاريج ورأينا فيها سواقى ونواعير وآبارا يشبه ماؤها مياه الآبار فى مصر وقد علمت ان المهندس (زنبارى) قدم مشروعا مقتضاه شق ترعة تأتى بالمياه من نهر سيلى (Sele) الذى يصب فى خليج سالرنو (Salerno) لتروى منه مقاطعات فودجا وبارى واتشى (Foggia و Bari و Lecce وفى كتب العرب فوج وبارى ولج) وان نفقاته تبلغ مائة مليون ليرة طليانية (نحو اربعة الاف جنيه انكليزى) قدم هذا المشروع من نحو ١٥ أو ٢٠ سنة ولكنه لم يبرز الى حيز الوجود لقلة المال وعدم تيسر الحصول عليه

هذه عجالة يسيرة من أمور كثيرة علقت بها مذكرات ومفكرات سأفصلها فى الرحلة ان شاء الله

الرسالة الثانية

عن رومه فى يوم الاثنين ٢٩ محرم سنة ١٣١٠ (٢٢ اغسطس سنة ١٨٩٢)

فوائد السفر وتسهيلاته

لعلى اكون احرزت برسالتى الاولى رضا حضرات القراء الالباء والافاضل العذر واضح لكون كتابتها كانت بعد تعب شديد عانيته من سفر ثلاثة أيام فى البحر تتلوها عشر ساعات بلا انقطاع فى باخرة البر وليس فى ذلك من غرابة لعدم العادة ولقد كان سمعى ينبو من مقال القائل (بل العذاب قطعة من السفر) فلما حقق الخبر الخبر زال عنى الاستنكاف مما كنت أحسبه ضربا من المجازفة فى المبالغة خصوصا وان أسلافنا لم يكن لهم ما أفاضه عرفان هذا القرن (التاسع عشر) على أبنائه من تسهيل الانتقال وتأمين الارتحال وتقليل المسافات وتناهى البخس فى النفقات بالنسبة لما كان ينبغى صرفه فى هاتيك الاوقات وتيسير أسباب السير والنظر والتأمل فى آثار من غبر ومصنوعات من حضر وتوسيع دائرة العقل بالاطلاع على نتائج أفكار الغير الى ماهنالك من الفوائد والمكاسب فى المتاجر والمصانع مما لاينكره الا المكابر ولذلك فانى بعد المقارنة أحسب هذا التعب راحة وهذا الشقاء نعيما فلم اتربص حتى تجيئنى الانباء من الاصدقاء بما كان لباكورة رسائلى من الشأن عند الادباء

فانى (على كل حال) أشعر فى نفسى بما يدفعنى بالرغم عنى الى الكتابة حتى اكون كأنى بين الخلان والاخدان فقد وجدت مجال القول ذاسعة وألفيت مقام الكتابة صالحا فأقول

نابولى ورؤية أول مدينة من أوروبا

ان نابولى والحق يقال لتستحق ان يكتب عليها مجلد ضخم لا صفحات قليلة تملى (أولا تملى) ثم تتطاير فى الهواء وذلك لانها جمعت الى بهاء المنظر جمال الطبيعة وقرنت بين حسن الصناعة ونشاط السكان مما يجعلها جديرة بان تشد اليها الرحال وينزل بها اولو البصائر والابصار الايام الطوال بل الشهور بل الاعوام

عود لوصف الطريق الى نابولى

والذى يضاعف حسنها فى نظر القادم اليها من الطريق التى اتخذناها (طريق فودجا) انه يوافيها بعد ان يقطع كثيرا من الفيافى والقفار ويسير خلال الجبال الموحشة والارض اليباب وتحت السراديب المنقورة فى الصخور وفوق القناطر المقامة على الوديان والاغوار وبين الهاويات الخاويات وكل ذلك يجعله غير مستأنس ولا بنفسه متوجسا خيفة من كل مايحيط به حتى ان الخيال (أوالحقيقة) ليصور له ان باخرة البر ذاتها قد انتعشت بقوة الحياة فتولاها الرعب وتملكها الجزع فأخذت تتلمس فى مشيتها وتسير الهوينا (لاعن تبختر) بعد ان كانت تسعى على عجل فينقلب الصفير الخارج من صدرها زحيرا يمازجه صوت أبح خافت يعاون

على إكمال الوحشة وابعاد الائتناس وهى فى غضون ذلك تنساب فوق الوهاد وتحت النجاد كأنها الافعوان (يخرج ليكون قاتلا أو مقتولا) ولايزال هذا حال الراحل وحال مطيته حتى يصل بالسلامة الى نابلس الغرب الاوروبي ولكن (شتان بين مشرق ومغرب) فيحمد غب السرى اذ يرى نفسه فى مدينة هى فى الحقيقة كالحديقة الانيقة ناعم البال منشرح الفؤاد ويصدق قول من انشا (وبضدها تتميز الاشياء) ولكنى أترك الاسترسال مع هذا التيار فقد ألقيت عصا التسيار وقرت العين باجتلاء محاسن هذه المدينة اليانعة الرائعة الناصعة ومعاهدها الباهرة الزاهرة الفاخرة وخذمنى حديثا وجيزا على عجلة وانتظر اذا أردت التفصيل فى الرحلة

عجالة على نابولى

هذه المدينة أسسها أقدم قدماء الاغريق فى الزمان العتيق العتيق وسموها بلسانهم نيابوليس (Neapolis) أى المدينة الحديثة وكان لها اسم آخر غير شائع وهو پارثنوب (Parthenope) وقد حرف الطليانيون اسمها المشهور الى نيابولى ثم نابولى (Napoli, Neapoli) والفرنساوية الى نابل (Naples) وعرب هذا الزمان الى نابولى وقد ورد اسمها فى كتب الجغرافية العربية القديمة (نابل ونابل الساحلية ونابل الكتان لكثرة هذا الصنف ومنسوجاته بها فى قديم الزمان) واما نابلس

Digitized by Google

(او نابلوس) المعروفة فى الشام فقد أطلق الرومان عليها هذا الاسم غصبا والغوا اسمها القديم وهو شكيم (Sichem) الوارد فى التوراة وقصص الانبياء ولقد اخطأ ياقوت حيث جهل الاصل اليونانى لهذه التسمية فانتحل لها اشتقاقا من عندياته أو نقلا من غير تثبت فقال فى معجمه انها مركبة من « ناب » أى سن ومن « لوس » أى التنين بلسان السامرة فيكون الحاصل من معنى اسمها «ناب التنين» .

وليست أهمية هذه المدينة وبهجتها بسبب أقدميتها وما بقى بها من آثار أهلها السالفين فانها خلو من المخلفات والاطلال التى يقصدها عادة الزوار فى المدائن القديمة العهد مثل نابولى وانما هو موقعها الذى لايزيد عليه فى العالم كله سوى موقع القسطنطينية وحسبى هذا التمثيل للدلالة على انها جمعت المحاسن الطبيعية الشائقة والمناظر البهجة الرائقة فهى على هيئة مدرج ينحدر على سفح تلال تنتهى الى البحر وفى شرقيها بركان ڤيزوڤيو (Vesuvio المعروف عند العرب بجبل النار) وحواليها تلال ترى المنازل نازلة من أعلى قللها تترى الى منتهى سفحها فاذا ارتقى الانسان احدها نظر الى المدينة بجملتها فرأى من شوارعها الصاعد والنازل والمنحدر والمستوى والمنحط والعالى ومع ذلك فالهواء فيها كلها جيد والحركة

مستديمة لانها من أهم موانى هذه الديار وأكثر مدائنها فى العمار و يعتبرها أهل السياحة والاسفار من أجمل الامصار وأبهج مواقع الدنيا على الاطلاق وقد كان خليجها العجيب يجذب الى نواديها الاغراب من جميع الاصقاع ومازالت الآلاف منهم تتردد أيضا فى هذا الزمان على ربوعها الغناء وحدائقها الفيحاء للرياضة والنزاهة ومن الغريب أن حسن موقعها جعل الأجانب يطمعون اليها كما ان رخاء العيش فيها أوجب رخاوة أهاليها فلم يذودوا عن حياضهم ولم يصدوا الفاتحين وغاراتهم فتوالى عليهم حكم اليونان فالاوسكيين (Osques) فالرومانيين فالقوط فالبوزنطيين فالنورمانديين (الذين يذكرهم العرب باسم المجوس) فالالمانيين فالاسبانيين

ومدينة نابولى المذكورة هى مدينة كبيرة ذات شوارع واسعة ومبان شاهقة تفرجنا فيها على مربى الاسماك (Aquarium) ورأينا معيشتها وهى فى نفس ماء البحر على أحجار الصخر وفى خلال الاعشاب المائية بشكل غريب ومنظر معجب وتفرجنا على القصر الملوكى وقد كان تشييده فى سنة ١٦٠٠ وفيه من الصور والرسوم والتماثيل والموائد مايدهش الانظار ويحير أفكار أولى الالباب ويقضى بالعجب العجاب وهو متسع الارجاء فيه منازه

Digitized by Google

فسيحة جدا ترى الاشجار فيه منضودة على شكل الاسوار وهيئات المثلثات والمربعات والمنحنيات وأغصانها مشتبكة محتبكة منضودة ممدودة مقصوصة مرصوصة بحيث تتكون منها أشكال وتراكيب على طراز غريب وترتيب عجيب ورأينا فيها مربى للطيور ولكنه ليس بالشئ العظيم ورأينا الاشجار الباسقة والمياه الدافقة والخضرة النضرة التى تتشحذ بمراها الاذهان وتكتحل بطلعة نورها الاجفان فلا عجب اذا كان بنو الطليان من أجود أهل الارض فى اتقان الشعر واجادة التصوير واحكام الرسم والبلوغ فى الصنائع المستظرفة والفنون الجميلة غاية لاتكاد تدركهم فيها أمة أخرى فقد رأينا فى هذا القصر الطائل من الرسوم والنقوش وأساليب العمارة والتفنن فى النحت والاغراب فى التمثيل والتخييل مالاتفى هذه العجالة بعشر معشار مايستحقه من البيان ثم جلنا فى شوارع المدينة صاعدين هابطين متأملين اقتدار الاهالى وشغفهم بتجميل أماكنهم وتزويقها بمايستوقف الانظار ويقضى على الناقد المنصف بان يقضى لهم بسلامة الذوق وحسن الاختراع .

لحظة فى المحاسن

وهنا استمحك أيها القارئ ان تقف معى برهة امام الجمال وتؤدى له واجب الاتاوة مقرونة بالتسبيح والتهليل والتكبير (سبحان الله - الله الله - ماشاء الله - الله أكبر - ان الله جميل يحب الجمال)

فاننا من عهد ما بارحنا الاسكندرية وفارقنا سان ستفانو (ملتقى الغادات الحسان ومجمع الغانيات المحجبات) لم يستقر طير نظرنا على شئ من اغصان الملاحة سوى اننا كنا نرى فى طريقنا من برندزى الى فودجا الى نابولى بعض أشباح ينتسبن الى حواء ولانسبة وهن من قبح الصورة وسماجة الوجه بحيث لو رآهن شيخ الابالسة لعدل عن الوسوسة واستبدل الاغواء بالفرار والاغرب من ذلك ان وجوههن تكون جافية واقدامهن حافية وشعورهن منتوفة ورؤسهن مكشوفة ومع ذلك فلا بد لهن من العظامة أو ما يقوم مقامها كان تتئزر الواحدة بالفستان وتتشح بالصدار لاظهار قد هو أشبه بالقدر وما زلنا على هذه الحال حتى ظننا ان أوروبا انما ترسل الى بلادنا أفضل ما فيها من العيون الناحرات الساحرات واللحاظ الفاتنات الفاتكات فلما قدمنا هذه المدينة رأينا الخير فيها والحسن فى أهليها فحمدنا الله وقلنا هذه بشائر الخيرات وباكورة الحسنات ولقد كان منظرنا وخصوصا الرفيق الموافق والصديق الصادق الشيخ محمد راشد يسترعى منهن الانظار فكان لى بذلك فرصة أغتنمها لتعويض ما فات والتأمل فى صنع ربك ذى الجلال والاكرام فكانت الواحدة تحملق الينا فترسل سهاما من فاتر

الالحاظ والاخرى تستغرب من شكلنا فيفترقها عن درّ يأخذ بحبات القلوب ومنهن من كانت تترك عملها الذى خرجت لاجله من كناسها وتسعى خلفنا تستغرب شكلنا بينما نحن معجبون بشكلها ومنهن من كنّ يطللن من الشبابيك فيشبكن الفؤاد ولا حرج عليهن ومنهن من كانت الخواتم بخصورهن اليق من الحياصى وغير ذلك مما يطول شرحه ويقصر يراعى عن بيانه حتى اننا لم نر حيلة للتخلص من شراك هذه الشباك سوى التعجيل بالرحيل فقصدنا المحطة

المتاع وعذابه فى السفر

فوقعنا فى شبكة لم تكن لنا فى حسبان ولم تخطر لنا على بال وذلك ان عمال السكة الحديدية أبوا الا أن يدفعونا الرسم على ثلاث شنطات من متاعنا وابقاء شنطة واحدة تحت يدنا فاظهرنا لهم شدة الغرابة من تنوع المعاملة فى برندزى أولا وفى نابولى ثانيا وقلنا لهم أليس القانون واحدا فى ايطاليا كلها أم هل يختلف تطبيقه بحسب الازمنة والامكنة والاشخاص فكان جوابهم لنا (برندزى هى برندزى وأما نابولى فهى نابولى) فلم نر بدّا من نقدهم ماطلبوا ولكنى حررت هذه الجملة فى مذكراتى واذلم يكن لى من الوقت مايكفى للتعمق فى البحث عما حوته هذه الكلمة الجامعة من دقائق المعانى وعويص الافكار آثرت ان أطرحها الآن على

Digitized by Google

حضرات علمائنا الاعلام ليجعلوها موضوعا للمتون والشروح والحواشي والتتميمات والتكميلات والتذييلات والتعليقات والاخذ والرد والتوجيه والاعتراض والقيل والقال حتى اذا رجعت بالسلامة ووقفت على خلاصة الابحاث أخذتها عن الثقات غنيمة باردة وزينت بها صفحات الرحلة

الطريق لرومة

ثم سارت بنا باخرة البر الى رومة فى طريق تحف به من الجانبين أشجار مدت أغصانها فاشتبكت فكانت أشبه بعذارى الجان خرجن من الجبال المحيطة وتهيأن للرقص على أجمل منوال فمدت كل واحدة منهن ذراعيها الى اختها ذات اليمين والى تربها ذات الشمال ووقفن فى انتظار القطار حتى اذا اقترب منهن تحركن حركات منتظمة معجبة بقدود مياسة واصوات مطربة واستمر الحال على هذا المنوال بين الجبال الصماء تتخللها الخضرة الزهراء والاشجار الشماء حتى بلغنا رومة بسلام وتوجهنا الى الفندق واسترحنا .

Digitized by Google

الرسالة الثالثة

رومه

الاندهاش من رؤية رومة

﴿ رومية ورومية الكبرى ورومية المدائن فى كتب العرب ﴾

من فلورانسه فى الثلاثاء غرة صفر الخير سنة ١٣١٠ ﻫ

(٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٦)

يا للعجب يا للعجب كأنى نسيت الكتابة بلسان العرب أو كأن مقامى بهذا البلد أضاع اللب واذهب الرَّشَد فكيف العمل فكيف العمل وانا كلما حاولت التحرير أو أخذت فى التحبير استعصى القلم وحرن جواد التفكير وانهالت على المطالب انهيالا لا يجعلنى أعرف بم يجب الاستهلال ومتى يكون الختام وكيف أتخلص الى تلخيص شئ من المذكرات الجمة والمفكرات العديدة التى اقتطفتها أو جمعتها على هذه المدينة المختالة فى حلل البهاء والجمال المجللة بما أودع فيها من آثار العظمة ومشاهد الجلال ففيها العمائر الفاخرة الفائقة والقصور الواسعة الشاهقة والمزارات المتعددة المتنوعة والبقايا الكثيرة مما خلفه فيها القياصرة والامبراطرة والقناصل والامراء والاشراف والكبراء والسادات والبابوات فانها من يوم نشأتها الى الآن مازالت عاصمة السياسة والحل والعقد وكعبة الديانة الوثنية

فخامة رومة

ثم النصرانية وكل من تولى الامر فيها يسعى بما فى وسعه لتوسيع نطاقها ويبذل جهده فى زخرفتها بما يوجب له الفخار ويستبقى ذكره على ممر الايام فلذلك ترى شوارعها فسيحة وميادينها أنيقة وفى كل ساحة فسقية يتدفق الماء منها وفيها باشكال معجبة واصوات مطربة وقد نصبوا فيها كثيرا من المسلات التى استجلبوها من بلادنا مع ان عاصمتنا القاهرة خلو منها بالمرة (والذى بقى عندنا من المسلات مازال فى موضعه يندب التمدن الذى كان حوله ويتحسر على عدم العناية به مثل أمثاله فى أوروبا وأمريكا)

غرام أهلها بالتجمل والتجميل

وللمبانى فى رومة منظر رائق بهيج بألوان زاهية براقة تعجب النظار وعلى جميع جدرانها وأبوابها ونوافذها ومطلاتها وشرفاتها وافاريزها ترى التماثيل من النقوش البارزة والتصاوير المختلفة والرسوم المتعددة كأن كل واحد من أهاليها أراد ان يستوقف السائحين والجائلين والرائحين والجائين بل هذا غرام قام بهم وشغف لازمهم فلا مندوحة لهم عنه لانك ترى حتى الجزار يزوق حانوته باغصان الاشجار ويعرض اللحم على الانظار مقطعا قطعا ملتفا أعلاها بقراطيس من الورق الابيض تنضم ثنياته الى بعضها فتجمعها زهرة من الزهر المختلف الألوان ومثله بائع الخضار فى حسن الترتيب وجمال العرض ولا ينقص عنهما غيرهما فكل واحد يتفنن فيما يلزم الخلائق بالاقبال عليه (واللى مايشترى يتفرج)

Digitized by Google

كنائس رومة

وقد اغتنمنا فرصة مقامنا بهذا البلد لزيارة ما به من الكنائس التى يضرب بها المثل فى الضخامة والفخامة والمتانة والجلالة والتناهى فى الابداع واللاتناهى فى الاغراب والتشييد الهائل والزخرفة التى تلهى ولاشك المتعبدين والمتعبدات وتشغل المتنسكين والمتنسكات بالنظر اليها (والى بعضهما خصوصا) وان العقل ليحار فى كيفية تشييدها ويذعن باقتدار ذلك الذى صورها بالقلم على القرطاس ثم ابرزها مجسمة على سطح البسيطة حاوية كمال التناسق وتمام التناسب واحكام الصنع واتقان الوضع فى كل نوع من جدرانها وعمدانها وسواريها الى عقودها الى سقوفها الى قبابها حتى انه لم يترك مقالا لقائل ولم يدع مجالا لاستعمال ليت ولو وفوق ذلك فان للقوم بحفظها عناية لابعدها ولاقبلها ففى كل كنيسة منها سلالم للتعمير والترميم والتجبير والتتميم ومع كثرة الكنائس والبيع بها (فانها تكاد تناهز نصف الالف) رأينا القوم مشتغلين بتشييد غيرها وأنت تعلم ماحاق فى هذا الزمان بالحكومة البابوية والسلطة الدينية من الضعف والاضمحلال فى بلاد أوروبا على العموم وايطاليا على الخصوص .

بعض مشاهد رومة

هذا وقد زرنا معرض الصور والرسوم ومصنع الفصوص والفسيفساء فى قصر الفاتيكان ورأينا بهما من الغرائب والعجائب التى يقصر عن تفصيلها هذا الاجمال ثم شاهدنا مابالمدينة من آثار القدماء

Digitized by Google

والمتاحف والمعارض والقصر الملوكى والاطلال القديمة والسراديب المنقورة فى قلب الجبل حيث كان النصارى فى مبدإ أمرهم يلجؤن اليها أيام الاضطهاد ويتقون بالاختفاء فيها شر عباد الاوثان

تخليد ذكر الاعيان والاماجد

وقد رأينا فى كل ساحاتها وباحاتها وميادينها وبساتينها وفى كافة الارجاء من منازهها وشوارعها تماثيل كبارهم وعظمائهم الذين قاموا بخدمة الوطن وترقية شأن البلاد وتعزيز مقام الامة بحيث ان ذكرهم لايمكن ان يمحوه الزمان وبذلك عرف الاهلون عالمهم وجاهلهم كبيرهم وحقيرهم مقدار الاجر العظيم الذى يصيبه من ينفع الوطن من أى وجه كان وباى عمل كان ووقف السكان عموما على تواريخ أولئك الذين استفادت منهم البلاد فائدة حسية أو معنوية قليلة أو جليلة واتخذوهم نموذجا لتهذيب الابناء الناشئين وتربيتهم على السير فى جادتهم ومحاكاتهم فى خدمة الاوطان

تأسف على عظماء مصر واهمال ذكراهم

وهنا ينبغى لى ان أقف قليلا كاسف البال متحسرا على اهمال أهل بلادنا هذا الامر الذى هو أفضل الاعمال وأجل ماتشد لاجله الرحال فان الذى يعلم انه اذا خدم وطنه عرف قومه قدره وأجلوا ذكره وشادوا له الآثار والمبانى التى تضمن له عمرا غير العمر الفانى وتستديم حياته الى كل جيل لاشك انه يضحى

Digitized by Google

النفس والنفيس ويواظب على السعى والعمل لنيل هذا الشرف الذى ليس بعده شرف . ألاترى ان الكثير من علمائنا وفضلائنا قد انقرض ذكرهم بمجرد دخولهم فى رمسهم اللهم الا أن يكون لهم كتاب متداول مشهور (وهم الاقلون) وهل يصح لى أن أعترف بنى وطنى الكرام بان السعى فى تخليد ذكر الاماجد الاماثل الذين يخدمون الوطن هو أكبر باعث ينهض بالنفوس ويحرك العزائم ويحد القرائح ويوجب الاقدام على العظائم فتغتنم الامة والوطن أجل المغانم ويربحان باجتهاد أفرادهما وسعى أبنائهما من غير أن يكونا على الدوام فى حاجة الى الاجنبى والدخيل لانسير الا بمشكاة نورهما ولا نهتدى الا بهدايتهما وارشادهما أما آن لنا ان نفطن الى هذه الحقائق وندرك ماوراءها من المنافع فنطرح الحسد منا لبعضنا ونسعى جميعا فى وجهة واحدة لصالح الوطن العزيز كل بقدر ماعنده ونعضد بعضنا لنكون كالبنيان المرصوص فلعل أهل بلادنا تهزهم الاريحية المصرية وتثور فيهم النخوة الوطنية والحمية الاهلية فيتشبهون بامم أوروبا لنوال الفلاح والنجاح

أوّاه . تحدثنى نفسى عند كتابة هذه السطور بان الكثير من القراء لابد أن يستخف بهذا المقال ولكنى أنادى من له حياة

Digitized by Google

أو كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فتلك لعمرك عواطف وطنية واحساسات قومية وددت لو يشعر بها أهلى كما تملكتنى حينما رأيت الخاصة والعامة فى هذه المدينة واقفين تمام الوقوف على جميع ماجريات أولئك العظماء الذين أقيمت لهم التماثيل والانصاب وتزينت بصورهم قصور الملوك وقاعات الدواوين حتى كان ذلك باعثا للامة الطليانية على مباراة الامم العظيمة ففتحت المعامل الكبيرة وألفت الشركات الجليلة وأقدمت على مهام الاعمال فحفظت ثروة البلاد فى البلاد وروجت الصنائع الوطنية فاكتسبت أيما اكتساب نعم لا ننكر ان الدولة الطليانية واقعة الآن فى أزمة مالية وقد برك فيها جمل الفقر ولكن لها عذر واضح من حيث انها فى وقت قصير انشأت موانى حربية بحرية وأنجزت كثيرا من الاعمال العظيمة ذات المنفعة العمومية لكى تضاهى الدول الكبيرة والامم المثرية فكانت كالزراع ينفق كل ماعنده ثم ينتظر الغلة والريع وقد بدأت تجنى ثمار ماغرست وأخذ الخير يدر عليها واظن أنه لا يمضى عليها نحو النصف مائة حتى تنفض ماعليها من غبار الفاقة وتفيق مما حاق بها من الارتباك والاعسار

نهوض ايطاليا فى طريق التقدم

وكأنى بك أيها القارئ قد مللت من هذا الاستطراد وتود منى بدل ذلك انا كاشفك بما رأيته فى هذه البلاد من الامور العرضية

أمور ثانوية والقيظ باوروبا

Digitized by Google

الثانوية التي قد يكون وراءها فائدة معجلة جزئية يمكن ادخالها في بلادنا مثل العربات والسكة الحديدية والبوستة والتلغراف والبواخر والبوليس وما أشبه ذلك من التنظيمات من انهم يضعون اسماء الشوارع على رقع مربعة من الرخام لكي لا يتطرق اليها البلاء بسرعة كما حصل عندنا في الاخشاب التي وضعتها نظارة الاشغال في القاهرة بمصاريف باهظة ولكني أقول لك ان الحر شديد جدا واني أقاسي منه أكثر منك من عهد مبارحتي للاسكندرية الى هذا اليوم حتى كأني ذهبت الى اسوان أو االسودان فعافني من ذلك الآن عافاك الله واعتقد ان الحر في هذا العام بأوروبا اشد منه في كل عام بل لم يعهد القوم له مثيلا قبل الآن ولقد كنت أستغرب ذلك في أرض أوروبا حتى قرأت في جريدة التريبونا الصادرة في يوم الاثنين ٢٢ أغسطس تلغرافا من باريس ينبئها بان اشتداد الحر فوق العادة قد أتلف صحة الجنود الذين في المناورات في جملة جهات وآخر من ويانة يقول ان القيظ مستمر فيها وانه وردت عليها الاخبار من جملة مدائن ان الحر سبب وفيات كثيرة وان سبعة من العساكر زهقت أرواحهم من اشتداد الحر بينما كانوا في المناورات وان الفلاحين قد اضطروا لترك أعمالهم وان الفاكهة قد أصابتها اضرار

Digitized by Google

بلنغة فكيف لاتشفق على مع ذلك كله وقد كنت أيضا بالامس (يوم الاحد) أتريض فى رومة ورأيت فى منازهها من رأيت ومارأيت وحسبك منى هذه الاشارة

الرسالة الرابعة

مدينة فلورانسه

تأسف لفراق رومة

لولاوجوب الوجود بلندره فى يوم موعود وميقات محدود لحضور احتفال مشهود والاشتراك فى مؤتمر معدود لأطلت المقام برياض رومة الغناء وأكثرت من التجول فى ساحاتها الفيحاء ولكنى تزودت من شميم عرارها وتشبعت من محاسن آثارها فودعتها بالعين والنفس متطلعة اليها والقلب شغف بها ورددت الدعاء لدولتها بالثروة واليسار ومار كبت القطار حتى بادرت فأعقبت ذلك بالدعوات الصالحات المستجابات لوطنى وخلانى وأهلى ونفسى وذلك لانه خيل لى ان الدعوة مقبولة فى هذه الإقطار لانى ماخرجت منها الا بعد ان التزمت بالمساعدة على إنماء ماليتها (وأول مايجنى على المرء اجتهاده)

عذاب المتاع

فان عمال المحطة قالوا لابد من دفع أجرة النقل على الشنطات الاربع التى مع رفيقى ومعى فأفهمت ناظر المحطة ما وقع ببرندزى ثم بنابولى من أخذ الاجر فى الاولى على ثنتين ثم فى الثانية على

Digitized by Google

ثلاث فقال ان هذه الشنطات تزيد طولا وعرضا فى القياس عما يبيحه القانون لافراد الناس فأخذ العجب منى كل مأخذ اذ لم يكن لى ذلك فى حساب وقلت لعل القوم لا يعرفون الهندسة وقد أتقنوا المتوالية العددية من علم الحساب فتوليت الدفع فى المدينة الثالثة من ايطاليا على الشنطات الاربع ووطنت نفسى على اتباع هذه الخطة فى كل محطة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا

وصول فلورانسة

ثم سار بنا القطار يجوب البلاد جوبا وينهب الارض نهبا الى ان بلغ بنا مدينة فلورانسة المصطلح على تسميتها عند أهلها بمدينة فيرنتزا التى تكلم عليها الشريف الادريسى فى نزهة المشتاق وسماها فلرنسة من غير اشباع كما نفعل نحن اليوم تقربا من اللفظ الافرنجى فنزلنا فندقا لبثنا فيه ريثما استرحنا ونفضنا غبار السفر (هذه العبارة من باب المجاز لوجهين الاول ان سفرنا كان بالليل والثانى ان السكة الحديدية فى ايطاليا لا تثير قط عثيرا مهما كانت سرعة القطار لان المصلحة معتنية كل الاعتناء بوضع الزلط والحصباء على طول الطريق فهى نعمة للمسافر تمتعه بما يبدو أمامه من المناظر من غير ان يخشى ضررا ما على النواظر) وبعد ذلك خرجنا لنروّح الروح بارواح ريحان هذه المدينة ونتزه الطرف فى طرقها القديمة وتحفها الثمينة

عليك بالشباب

فأخذنا عربة قلنا لسائقها ان يدلنا على دليل خبير فخيرنا بين شاب وشيخ كبير وقال لنا ان الثانى أفضل لمعرفته بالمدينة

Digitized by Google

وطول ممارسته لهذه الصناعة فاخترناه على بركة الله راجين منه الافادة بالدلالة اللفظية والمعنوية ولكن وقار الشيب كان مستوليا عليه أكثر من دلالة اللزوم حتى ألزمه السكوت والسكون فكان جالسا امامنا كانه ثالثنا بل رابعنا (بحساب العربجى) يجيل ناظره ذات الشمال وذات اليمين يتأمل ويتفكر تشبها بالمتصوفين أو المتفلسفين ولا يجيب عن أسئلتنا المتعددة الا بما فيه قليل الفائدة فأسفنا على لختيار الاختيار ورجعنا على أنفسنا بالملامة ولات حين ندامة ولكننا تسلينا أملا بان غيرنا يكون له خير موعظة بما جرى لنا والعاقل من اتعظ بغيره

هيئة فلورانسة ومحاسنها

أما المدينة فلها من الداخل منظر بعيد من الرشاقة مجرد من الملاحة لانك ترى القصور القديمة فيها شاهقة متواصلة والعمائر الجسيمة شامخة هائلة وعليها من الرزانة جلباب ومن الجودة والجفوة أثواب ليست قائمة من الخارج على أعمدة ولابوا كى معقدة ولا امامها أشجار نضرة أوخضرة مزدهرة حتى تروق خاطر الخطار وتقر ناظر النظار فهى بالمعاقل والمحاصن أشبه منها باماكن المساكن شادها سادات المدينة وأشرافها فى القرون الوسطى للتحرز بها والالتجاء اليها ولكنك اذا سرت بعيدا عن سرة المدينة سررت برؤية الرياض الاريضة والجنات الطويلة العريضة والساحات التى

هى أكثر من أن تحصى والميادين الشائقة بما حولها من الاشجار والازهار التى أوجبت تسميتها بمدينة الازهار فترى حينئذ عليها من الجمال حلة باهية ومن المحاسن ماتختال فيه كالغادة الهيفاء خصوصا اذا ارتقيت ربواتها أوقصدت منتزهاتها ولاسيما المنتزه الكبير فانه من أنزه المنازه التى رأيناها وأبهج المباهج التى عرفناها اذ هو من الاتساع والامتداد وجمال المنظر ورونقة الترتيب بحيث يجيد الفكر ويحسن الذوق ويجلو صدأ العقل ويغذى الروح ويصفى القرائح فلا عجب اذا تفرد أهلها فى تعشق الطبيعة وبرعوا فى الفنون الظريفة ولا بدع اذا قلت فى هذا المقام ان كل طليانى لابدان يخلق نابغا بالطبع فى الرسم والتصوير والنقش والنحت والتعمير أو التحبير والتحرير أو الموسيقى والاغانى ونظم القريض والمعانى فقد زرت معرض الصور المعروف بالرواق ورأيت فيه آثارا صناعية جليلة وبقايا فنية جميلة أوفوق جميلة مما لاتكاد تضاهيه مجموعة فى الدنيا القديمة والجديدة حتى لقد مللت من كثرة التأمل والمشاهدة وتعبت من الاستمرار فى التسيار مع تيار هذا المعرض العريض الطويل فعدلت (للعجز لاللنقص) عن اتمام مناظرة مابه من التحف الثمينة العجيبة وعولت على الخروج منه معجبا بما فيه قادرا اياه حق قدره ثم طفنا بالمدينة وتفرجنا على مافيها من بدائع

استعداد الطليانية للفنون المستظرفة

Digitized by Google

عناية الافرنج بالصغائر

الصناعة وعجائب الطبيعة مما أذكر شرحه للرحلة فرأيت فى منتزهها هرما صغيرا مبنيا بالاحجار الكبيرة خلته من مصنوعات أجدادنا المصريين وقد نقل الى هذه الديار كما نقل غيره من أحاسن الآثار ووضع بجانب المنتزه عناية به وحفاوة ولكنى علمت من التسآل ان بعض العمال ابتناه على نفقته لاصطناع الثلج وحفظه به فعجبت من هذا التفنن فى الاتقان واستغربت من اقتدار بنى الانسان وعلى ذكر الثلج والتفنن أذكر انى رأيت رجلا يبيع الماء المثلج فى برميل لطيف ظريف نظيف خفيف ذى حنفيتين من الخارج وانبوبة لوضع الثلج من الداخل يحمله على ظهره ويسعى به ليبيع الماء من غير عناء أينما شاء واحدى الحنفيتين مخصصة لغسل الكاس التى يستقى منها الناس وقيل لى ان الرجل اخترع ذلك الطراز منذ عشرة أيام وأما غيره فلا يزال يبيع الماء المثلج فى أحواض من الاخشاب يقف بجانبها ولا بد للظمآن من الورود اليها وقد رأيت فى جميع المحاط التى مررت عليها شبانا وفتيات بل فتيات وشبانا يحملن ويحملون بأيديهن وأيديهم شيأ شبيها بالاسفاط مركبا من اسلاك ينقسم الى عيون عدتها ثمان أو عشر فيها اكواب مترعة يمررن ويمرون بها على القطار لتقديم الماء المثلج لمن شاء من المسافرين فى نظير طلدى واحد (أكثر من مليمين بشئ قليل)

Digitized by Google

ومما رأيته بهذه المدينة رجل مقعد شطيح ولكنه يسعى بنفسه كما يسعى غيره بقدمه ويستمنح الاحسان من كل انسان فى أى مكان فانه اتخذ عربة صغيرة بقدر ما يجلس عليها ولها أربع عجلات وبما أن الشوارع منتظمة والارض ممهدة والسير ميسر فى جميع أنحاء المدينة فما على صاحبنا الآن يضغط بيده على الارض قليلا لتحريك العجلات والتنقل من طريق الى طريق وقد استغنى بهذه الكيفية عن اتخاذ أعمى يحمله ويسعى به فى نظير ارشاده اياه على الطريق ومقاسمته مايصيبه من الرزق ولاشك عندى أنى سأرى رفيقه الاعمى (بحسب ماجاء فى حكايات فلوريان) يدبر له وسيلة يتوصل بها الى نوال الحسنة من غير احتياج لنظر المقعد وتكلفه حمله على كتفه لان أهل هذه البلاد بلاد أوروبا أهل حركة وعزيمة وتفنن واقدام وهنا استوقف القلم مرة ثانية بالرغم عن البواعث الكثيرة التى تجيش فى الصدر كغليان القدر فتدعوه للاندفاع فى هذا التيار وانى لاعانى هذا العناء خشية على القارئ من الملال وشفقة على نفسى فقد برح بى التشوق الى الاوطان واشتد بى التشوق الى الاخوان لعدم استقرارى فى مكان وتعذر استطلاعى الاخبار التى تتوق اليها النفس ويحوم حولها الفؤاد فيا لله من البعاد ويا لله من غالب شعرائنا كيف يصفون وهم فى

التشوق للوطن

مستقرهم عواطف واحساسات لايشعرون بها ولكنها يجيء كلها طبق المراد أهذا من صدق الحدس أو من سلامة الفطرة .....
ويا ليتني كنت تخرجت في الشعر حتى كان ينفتح امامي المجال ويتسع لي المقال

الرسالة الخامسة

(مدينة بيزا Pisa)

تأوه على عدم رؤية مدينة البندقية

لقد أبدعتم يا أهل البديع في تنويع الطباق فهو لعمركم من سلامة الاختراع ولقد برعتم يا أهل المنطق والكلام في بيان التناقض والتضاد ومعاني الاجتماع والارتفاع فان وقتي على كل حال أعتبره ثمينا نفيسا ولكني أجده الآن طويلا قصيرا - أما الاول - فلكثرة الشجن بالحنين الى الاهل والوطن - وأما الثاني - فلتقصيره عن مساعدتي على زيارة مدينة البندقية (فنسيا) فاني كنت بفلورنسه وليس بيني وبينها سوى ست ساعات ومع ذلك لايصح لي ان أتعجب وأقول ان المشتهى قريب وما اليه وصول فان الطريق ميسر والوصال أسهل من ان يدبر والبخار مسخر والقطار حاضر ولكن الوقت سلطان قاهر فكيف لا أتمكن من زيارة تلك المدينة

Digitized by Google

التى قامت فيها الخلجان مقام الحارات والجداول مقام الشوارع والمراكب مقام المركبات والزوارق مقام العربات والمقاذيف والمدارى مقام الخيول الجوارى ... ألاان الوقت محسوب والقيام الى جنوة أمر محتوم فالبدار البدار الى دار الوفادة والعجل العجل لتأدية واجب الرسالة ولكنى أستعضت عما فاتنى بقسمة طريقى الى قسمين للوقوف فى بيشة أكثر من ساعتين كانتا فى الحقيقة أبرك من يومين فاتخذت دليلا من أهل الشباب معدن القوة والفتوة وأمل المستقبل فطاف بنا المدينة وأطلعنا على محاسنها فعوض علينا ماخسرنا بسبب اختيار الشيخ فى فلورنسه

رأيت أمورا كثيرة فى هذه المدينة الصغيرة (التى لايتجاوز عدد سكانها ٤٠٠٠٠ نسمة ومصرنا القاهرة فيها نحو ٤٠٠٠٠٠ نفس) وانى أحيط علم حضرات القراء بالنبا القليل من غير تفصيل .

عجالة على بيشة — هذه المدينة تسمى فى كتب الجغرافية العربية القديمة بيش وبيشة وقد وردت باسم بيزا فى كتابة الشريف الادريسى مر عليها حين من الدهر كانت فيه خاضعة لملوك تونس فى أيام دولة الموحدين (أو الملثمين لاأتذكر الآن ذلك بالتحقيق) فانى رأيت بدار المحفوظات فيها التى تشبه الدفترخانة المصرية عندنا (من

غير تشبيه ولاتمثيل) صكوكا كثيرة وعهودا متنوعة وإجازات غير قليلة وبعضها يتضمن الضمان لاهلها بالحرية التامة والامان فى كافة المعاملات واقامة شعائر الاديان وهى صادرة لهم من أولئك الملوك (وقد اعتنى العالم الطليانى أمارى بنشرها وترجمتها) ورأيت اسم البلد فيها هكذا ـ بيشة ـ وقد شاهدت فى هذه الدار أيضا غير ذلك من الاوراق الرسمية التى اتخذتها كل دولة توالت عليها أوكان لها علاقة بها ورأيت فيها على صغرها كثيرا من التماثيل التى تحيى ذكر أهم رجال ايطاليا أخص بالذكر منها تمثال الطيب الذكر فكتور عمانويل مؤسس الدولة الطليانية الحالية الملقب عندهم بأبى الوطن ولكنه كان كله مغطى بالاخشاب المنضودة بحيث لايرى منه شئ ما وذلك لانه أقيم حديثا وسيحتفل بازاحة الستار عنه قريبا بحضرة الملك والملكة والاسرة الحاكمة ورجال الدولة وأهل الحل والعقد ثم زرت المدرسة الجامعة ومكتبتها العظيمة ورأيت فيها من النظام مايوجب الاعجاب بها مثال ذلك ان الكتاب الذى يستعار منها يوضع مكانه قطعة من الخشب بمقدار حجمة وعلى شكل الكتاب وتكتب عليها نمرته وعنوانه الى ان يرد الكتاب الى محله وفى ذلك فائدتان أولاهما حفظ نظام الكتب وعدم ميلها على بعضها بسبب الخلو بينها مما يضيع

نظام المكتبة والمتاحف

استقامتها واعتدالها وثانيتها التنبيه على ان هذا المكان يشغله كتاب مستعار الآن مع حفظ عنوانه ونمرته لاعلام من يريد ان يجيل ناظره على الكتب فقط ورأيت فيها أيضا صناديق من الخشب على شكل الكتب توضع فيها المجلات الدورية وأخرى لحفظ الكراريس والاجزاء التى تظهر فى أوقات معينة من كتاب واسع كبير حتى لايتولاها التلف والضياع ومتى تمت الكراسات والاجزاء جلدوها مع بعضها وأودعوها فى المحل اللائق بها ثم زرنا مدرسة المعلمين العليا وتفرجنا على معرض التاريخ الطبيعى وهو وان لم يكمل لكنه حاو لكثير من التحف والطرف وفيه كثير من الحيوانات النادرة الغريبة من حشرات ودبابات وأطيار وأسماك ومعادن وأحجار ونباتات وآشجار وثمار وأزهار وغير ذلك مما يدخل فى هذه الدائرة ثم زرنا كنائسها وبيعها وأغربها كنيسة بجانبها برج للناقوس منعزل عنها وهو شامخ فى الهواء لا باعتدال بل بانحراف فانه يميل بكليته على سطح الارض بمقدار خمسة أمتار أى انه اذا أنزلت من أعلى قمته خطا عموديا على مستوى الارض لكانت المسافة بين نقطة مسقطه و بين جدار الاساس خمسة أمتار بالقياس ثم عمدنا الى قبة التعميد وهى بناء آخر مستدير بجانب الكنيسة من الجهة الاخرى وبينما نحن نتأمل فى عجيب تركيبها

البرج المائل وغرائب الصدى

وبديع هندامها وحسن نظامها واتقان رسومها و . . . و . . .
و . . . الخ واذا بالدليل صفق بيديه مرتين ثنتين فأزعجنا منهما
انزعاجا شديدا لايخطر على البال اذ أعقبهما دوى ولاقصيف
الرعود وهزيم أين منه قرقعة المدافع المتوالية فى ساحة الوغى
حتى ظننا ان القيامة قد قامت وان الارض زلزلت زلزالها وأخرجت
الارض اثقالها وان الجبال اندكت والسماء انفطرت (واموئتمراه
واموئتمراه) واستمر الصدى على هذا المدى عشرة ثوان فعجبنا كل
الاعجاب من هذا الصنع المحكم الذى لايحاكيه صنع فى العالم

وقد كنا رأينا شيأ مثل ذلك فى كنيسة رومة من حيث
تدبير الهواء فى صلب البناء اذ يقف الانسان بجانب سارية من
سواريها و يكلم صاحبه من خرق صغير فيها فيسمع كلامه واضحا
ظاهرا من خرق آخر فى السارية الثانية أو ان يقف بجانب
باب فى أعلى القبة ويسمع صاحبه وهو يناجيه بجانب الباب
المحاذى له على مسافة تقرب من المائتى متر ولكن ذلك كله ليس
شيأ فى جانب مارأيناه فى بيشة ثم أخذ الدليل يوهوه ويوهوه
على عادة الافرنج فى المغنى . والصدى يجيبه باجل أسلوب وألطف
معنى

Digitized by Google

جبانه بيشة

ثم تفرجنا على قرافة المدينة ويدعونها (كامبوسانتو) أى الميدان المقدس أو ماأشبه ذلك فرأينا فيها رسوما كثيرة بارزة ومجوفة وقبورا فى صلب الحيطان وتحت الاقدام ولكن ذلك ليس من الغرابة فى شئ بل الغريب أن فى وسطها مربعا كبيرا طينته كله مجلوب من أرض بيت المقدس (أورشليم) جلبته من الشام ٦٦ مركبا من سفائنهم تبركا بتلك الطينة الطيبة ولكى يكون فى بلدهم قطعة من الارض المقدسة تخرج الازهار والاعشاب الخاصة بتربتها فى معدنها الاصلى وقد دعانى الدليل لاخذ شئ من تلك الازهار على سبيل التذكار

كنيسة بهجة

وقد رأيت أيضا بيعة صغيرة على حافة النهر لا يفصلها عن الماء شئ وهى فى غاية الابداع والجمال مبنية بقطع صغيرة من المرمر المختلف الالوان على شكل معجب وأسلوب جميل وأغرب مافيها أن سقفها من الداخل يشبه السقوف المصرية العربية القديمة من حيث التطعيم بالخشب والابنوس والتلقيم بالصدف والعاج ولكنه ليس كذلك بل كله من الحجر المركب مع بعضه على شكل الفص والفسيفساء فله منظر جميل بهيج يزيد فى محاسن المنتزه الكائن على الضفة الاخرى من النهر وهو فى غاية الحسن

أحاسن بيشة

وبودى ان أختم هذه الرسالة بذكر شئ من الجمال فى بيشة

Digitized by Google

فلاشك عندى انه كان أكبر شفيع لنوالها الحرية والامان من ملوك تونس أيام كانت خاضعة لهم ولايمنعنى من الافاضة فى هذا الموضوع سوى خوفى من ان تتطاول علىّ ألسنة السوء ولكنى أقطعها واستريح منها حتى لاتبقى لى بالمرصاد فيما ربما ينساق اليه الحديث فى غير هذا المدينة مما لايرى الكاتب بدا من ذكره من باب الاحاطة ليس الا فقد كان مرورى عليها وقت الظهيرة وقت القيلولة وقت اشتداد الحرارة ومع ذلك رأيت الغانيات الرائحات والغادات الغاديات المشوقات الممشوقات الهائفات المهفهفات ذوات القدود والخدود والصدور والنحور والخصور والشعور و . . و . . وغير ذلك مما ألقيه على الشعراء ذوى الوهم والخيال ليتكفلوا بشرح حقيقة الحال

الرسالة السادسة

(مدينة جنوة)

فراق بيشة ووصف الانفاق

لم أبارح مدينة من ايطاليا وفى جوانحى من اللهف عليها والشغف بها مثل ماحصل لى فى بيشة حتى ان قلمى قد طغى علىّ ويود لايتكلم الا عليها ولم يكن فى وسعى سوى مفارقتها ولسانى يكرر على جنانى مافى وطابه من قليل الاشعار الخاصة بالغزل والنسيب

والغرام والتشبيب ولكن أين ذلك كله مما كنت أشعر به
ومما زاد توجعى على مفارقة محاسنها وأحاسنها ان القطار صار
يسير بين الجبال وعلى حافة البحر بالتمام فبينما هو يجرى تحت
الجبل وفى ظلام حالك اذ ترى نوافذ منقورة فى الصخر الذى يحيط
بك من الجهات الست ترسل النور الى النَّفَق والامواج الى جسر
السكة والطمأنينة والسكينة الى الباخرة ومن فيها فتتجدد فيها
وفيهم عوامل القوة وتدب روح النشاط

ثم استمر الامر على هذا النهج نخرج من نَفَق وندخل فى
نَفَق يوصلنا الى ثالث يتبعه آخر فآخر وهكذا والمسافة بين كل
واحد والذى يليه قدر الدقيقة أو أقل ترى الوابور يقترب فيها
من الطود الشامخ اقترابا شديدا حتى كانه يستند عليه أو يأوى اليه
ليعصمه من الانزلاق فى بحر الروم ولكنه متى دخل النفَق
عجّل السير واندفع بسرعة كانه نجا من خطر لاقل منه أولشجاعة
اوجدتها فيه العادة بل . . . فى المسافر الذى مر تحت كثير
من الانفاق فما بقى يعبأ بها أو يسأل عنها فضلا عن ان أرضها
ممهدة مطمئنة وليست منحدرة كما فى جنوبى ايطاليا والخلاصة اننا
وصلنا جنوة ونزلنا بها لنتفرج عليها أوّلا ثم على مظاهر الاحتفال

Digitized by Google

الذى سيقام بها احياء لذكرى أحد بنيها وهو المخلد الذكر كرستوف كولمب مكتشف قارة أمريكا

اسم جنوة

هذه المدينة تسمى جنوا Genova فى لغة أهلها وجين Gênes عند الفرنسويين وورد اسمها كما رسمته فى كتب الجغرافية العربية القديمة وان كان أبناء العرب فى هذا الزمان يكتبونها جنوا أوجنوى و كثيرا ما كان اسمها موجبا للخلط بينها و بين مدينة جنيف Génève فى سويسرة عند بعض الذين لم يعتادوا التحقيق والبحث بالتدقيق أما الذين وقفوا على الفرق وعرفوا وجوب التمييز فيسمون الثانية (أى مدينة سويسره) جنيفة أوجنيفا ولكنها وردت فى كتابة الشريف الادريسى هكذا (جنبرة) وسأبين لك تعليل هذه التسمية وكثير من أمثالها بالتفصيل فى الرحلة ان شاء الله

منظر جنوة

أما منظرها ففى غاية البهجة والجمال ولا أقول مثل كتاب الافرنج أوالذين حذوا حذوهم من أبناء العرب انها على شكل نعل الفرس أو حدوته بل أقول انها كالنون وجوفها هو جونها ومتى خيم الليل ترى هذه النون ساطعة كالهلال بل تتلاقى من طرفيها بأضواء السفائن الراسية فيها فتكون كحلقة مفرغة قد ملئت من الانوار ثم ألقى بها فى تيار البحار ولايقرب من مشابهتها فيما أعلم سوى مدينة دمياط فى أيام الزينة والمواسم الكبيرة

Digitized by Google

ولما أصبح الصباح نزلنا من نزلنا واتخذنا دليلا لنا (من الشبان) فشاهدنا عظمة المعدات وجمال الاحتفال الذى سيكون لمن جعل العالم توأمين وبلغنا ان الاسطول البريطانى بعد ان رسا قبل غيره على مقربة من المدينة أقلع (أوابحر) على نية الرجوع قبل الاجل المضروب ولم يكن فى المينا سوى ثلاث مراكب طليانية وواحدة هولاندية فوطنا النفس على زيارتها فى عصارى النهار

براهين الوطنية فى أوروبا

ثم طفنا المدينة صاعدين هابطين وشاهدنا حصونها وابراجها وآثارها ومفاخرها ثم دخلنا دار البلدية فأنستنا نظيرتها فى الاسكندرية فان كل غرفة من غرفها وكل قاعة من قاعاتها مفروشة بالاثاث الفاخر ومزينة بالنقوش الاصلية البالغة فى الاتقان وفيها من التماثيل والرسوم والابسطة والستائر والموائد والمعدات ما يجعلها أشبه بديار التحف منها بديار الادارة والسياسة ورأيت فى احدى قاعاتها تمثال كرستوف كولمب وتحت التمثال صندق من المرمر مغلق منيع فيه كتابات ورسائل الرجل التى كتبها بخط يده لكنهم لاجل ان لا يحرموا الناس من مشاهدتها وقراءتها أخذوا صورتها بالفوتوغراف وعرضوها على الانظار تحت الواح من الزجاج ثم انك ترى صور وقائعه واسفاره واكتشافاته وكل

Digitized by Google

ماقاساه فى آخر أيامه مصورا محفوظا فيها بحيث انك بمجرد الاطلاع عليها تعرف تاريخه وما جرياته عن ظهر قلب وفى دار البلدية المذكورة غير ذلك من تماثيل العظماء ممالا أرى حاجة للكلام عليه الآن غيرانى أقول ان القصر الفاخر الذى هى فيه كان ملكا لاحدى العائلات الكبيرة فتنازلت عنه لها وعلى ذكر ذلك أقول أيضا ان أعظم منتزه فى وسط البلد كان لعائلة غنية أخرى فتنازلت عنه للبلدية وهى جعلته منتزها للعامة ومربى لبعض الاطيار الغريبة والازهار النادرة ومتحفا للتاريخ الطبيعى ولقد بلغنى ان احدى السيدات تبرعت للمدينة أيام حروبها بمبلغ يوازى ٢٠٠٠٠٠ فرنك لتعزيز الحصون وتقوية القلاع والمحافظة على أكبر أبواب المدينة فأقامت لها البلدية بعد موتها التماثيل والانصاب اقرارا بفضلها على وطنها واشهارا لحبها لقومها وعلى ذكر ذلك أقول وأقول وأعيد وأعيد ماشتراه مفصلا فى الرحلة وان غد الناظره قريب

غير انى أسألك كلمة واحدة ثم أنتقل من هذا الموضوع وذلك انى قرأت تواريخ بلادى ووقفت على وقائع قومى وتحسرت لما رأيت أنى لاأتذكر شيأ يشبه ذلك أو يقرب منه فان كان على بالك أمر من هذا القبيل أو أقل منه بقليل فانى أناشدك الوطنية

Digitized by Google

الاما تحفتنى به لـتزول عنى الغصـة وليكون فى تذكير القوم به أعظم اسوة

العـمامة والطربوش فى أوروبا

هـل أحدثك بحـديث العمامة والطربوش فى أكبر كنائس هـذه المدينة فانه يدل على انه لم يزرها أحـد قبلنا بشكلنا وان قسوسها لم يبرحوا قط منها . دخلنا هـذه الكنيسة وقلنا لسائق العربة ينتظرنا ولكنه لما رآنا دخلنا من الباب ولم نرفع عمائرنا (العُمارة فى اللغة كل ماوضع على الرأس من طربوش وعمة وطرطور وبرطول وقلنسوة الخ وتقابلها بالفرنسوية لفظة Couvre-chef و Coiffure) أشار الينا باتباع هذه السنة فلم ألتفت اليه ولما دخلنا نبهنا الدليـل الى ذلك فأضـفت جهله الى جهـل السائق وأفهـمته ان ذلك غير لائق وبعد خطوتين جاء الحارس يتبختر فى ملبوسـه الارجوانى وأزراره النحاسية ويتوكـأ على صولجانه وقال لنا لابد من كشف الرأس احتراما للمعبد الكاثوليكى فأفهمته ان هـذه عادتنا فى بلادنا فذهب وأحضر لنا شماسا أو شكت إن أقنعـه ولكن رآنا المطران فاقبل الينا و وافق على مـلاحظات أولئـك فقلت له ياسيدى اننا ولله الحمد نعرف واجب الادب فى كل مقام ونعتبر كشف الرأس اخلالا بالاحترام فلا ندخل قط على عظـيم أو فى مسجد الاورؤوسنا مغطاة ولاشك انه سيقدم اليكم

Digitized by Google

كثير من أمثالنا بمناسبة الاحتفال بمهرجان كرستوف كولمب .
وكلهم يصنعون صنعنا

فأظهر الاقتناع ثم قال لى سلمنا بذلك لرفيقك فان شكله شرقى قح وأما أنت فانك بالملابس الاوروبية وحيث انك قد اخترت ملبوس الافرنج على ملبوس بلدك فاقتد بالافرنج فى نزع القبعة قلت له كلا فهذا هو الشكل الرسمى فى بلادنا وهذا الذى على رأسى ليس بقبعه وقد زرنا قبل الآن كثيرا من الكنائس وأهمها كنيسة ماربطرس برومة فجاءنا رهبانها واكرموا مثوانا وكلمونا بالعربية واطلعونا على ذخائرها ونفائسها وفرجونا على الاعمدة الرخامية التى أرسلها اليها ساكن الجنان أفندينا محمد على باشا حينما احترقت وساعد ملوك الارض على اقامتها وحينئذ اقتنع تماما وقال للحارس يطلعنا على ماعندهم من الذخائر القديمة الصحيحة من سلاسل وأخشاب وغير ذلك مما لايحتمل المقام تفصيله

الضرر فى اتخاذ الملابس الافرنجية

ثم خرجت من الكنيسة وفى نفسى غصة من ملبوسى هذا الذى ترتب على اتخاذه فى بلادنا إماتة كثيرا من صنائعنا وصناعنا واحياء صناعات الافرنج السريعة العطب ومساعدة التجارة الاجنبية على انتزاف مابقى لنا من قليل الثروة فضلا عن أن

Digitized by Google

الحذاء الافرنجي يوجب فى الارجل سقاما قد تكون سببا فى نكد العيش ومرارة الحياة اما البنطلون المحذق والصديرى المضيق والسترة أو الجاكتة أو السالك أوالرد نجوت أوالسموكن أوالفراك والقميص المكوى ورباط الرقبة الملوى وغير ذلك من الازياء والانواع فانها ليست موافقة لطبيعة الاقليم فى بلادنا بالمرة وأما الطربوش فليس فيه من مزية سوى حبس الهواء فوق المخ وعدم تمكينه من الخروج لاحتباك اطرافه على الرأس فهو أجود وأنفع فى البلاد الباردة وليس وراءه الا الضرر فى البلاد الحارة ويا ليتنا حينما اتخذنا الملبوس الاوربى اتخذنا القبعة أيضا فانها ليست محرمة لاشرعا ولاعقلا فضلا عن ان عرب مراكش لايزالون الى الآن (وهم على ماهم عليه من التمسك بالاسلام) يلبسون شيأ شبيها بالقبعة له حواف تمنع وهج الشمس عن الوجه وعما يحاذيه وفوق ذلك فان كلمة شابو (Chapeau) التى تدل على البرنيطه أوالقبعة عند الفرنج محرفة عن كلمة عربية لاأتذكرها الآن (وربما كانت القبعة) لنوع من العمائم كان يلبسه مسلموا الاندلس (وسأبين ذلك بالرحلة)

هذه ملحوظات عنت لى إثر دخولى الكنيسة وقد كان شئ شبيه بها دار فى رأس حينما رأيت ان الملبوس الشرقى أجلب

للانظار (كما وقع فى نابولى وغيرها) فكنت ان أودان أكون مشاكلا لرفيقى بعمامة وقفطان وجبة مرخية الاردان ولاأبقى على هذه الحالة التى اختارها أهل بلادنا فكانوا أشبه بالغراب أراد ان يتشبه بمشية طائر جيل (هو الطاووس أو غيره) فلم يتمكن من التقليد ونسى سيره القديم - لكن الطربوش والحق يقال جعل لى فى أوروبا مزايا كثيرة منها ان القوم كانوا يفسحون لى فى كل مكان واذا قبلت على حانوت قابلونى بالبشاشة والاكرام ولابد أن يكون السبب فى ذلك أن بعض أغنيائنا وكبرائنا الذين يتوجهون بشكل مثل شكلى وينفقون الدرهم والدينار من غير حساب يأخذون ماحصلوا عليه فى بلادهم بأية الوسائط وينفقون فى أوروبا من غير فائدة لهم ولالأوطانهم بل فى قضاء أوطار باطلة وخلاعات زائلة تبقى بعدها حسرات متواصلة والشواهد أكثر من أن تعد وانى لاأشكرهم مطلقا على كونهم جعلوا أهل التجارة يرحبون بى ويوسعون لى مقاما محمودا بل كان أولى لهم وأولى لهم أن يتخيروا الصرف فى نفس بلادهم بما هو أفضل لهم وأجدى لوطنهم كما رأينا فى مدائن أوروبا - هذا موضوع يدوخ منه رأس الكاتب والقارئ فأتركه لغيرى وأريح منه نفسى

Digitized by Google

معامل الشفتشى

ولما كانت مدينة جنوة متفردة على غيرها باصطناع الشفتشى توجهنا الى أحد المعامل و رأينا كيفية الاصطناع من أولها الى اخرها من أخذ الفضة وهى كتلة قائمة واصطناعها أسلاكا مختلفة فى الحجم تتراكب مع بعضها بجميع الاشكال مما يندهش له العقل خصوصا وان القائمين بها أطفال وطفلات تحت ادارة معلمين ومعلمات وسأكتب عليها بالتفصيل عند التيسير

أول رؤية مسلم باوروبا

ولما خرجنا من المعمل تلاقينا برجل لابس طربوشا فوقف ووقفنا ثم تبادرنا التحية بالعربية وحصل لنا برؤيته فرح كثير اذ لم نصادف أحدا من أبناء الشرق من يوم خروجنا من الاسكندرية الى ٢٥ أغسطس يوم وجودنا بجنوة ثم عرفنا انه السيد محمد بن عبد الغنى وكيل سلطان مراكش فى ايطاليا وأراد أن يستضيفنا فاعتذرنا لان الوقت لايساعدنا و بعد ذلك أردنا ان نزور السفائن البحرية فأخذنا زورقا كانت الامواج تصده والتيار يمنعه الى أن أقررنا بوجوب الرجوع وسلينا النفس باننا سنجد فى انكلتره ماهو أعظم وأكمل

Digitized by Google

الرسالة السابعة

(من تورينو الى مودان الى باريس)

فراق جنوة وقرافتها

فارقت جنوة وأنا معجب بنشاط أهلها ووطنيتهم وغريب اقدامهم حتى لقد رأيتهم يزحزحون الصخور ويقيمون مكانها القصور ويصعدون الى أعالى الجبل فيبنون المساكن الانيقة والدور الرشيقة ولقد أطلت التفكير فى زخرفتهم حتى لقرافتهم التى فاقت كل مارأيته فى غير مدينتهم بابداع التماثيل وكثرة العناية بحيث انها تعد من أحسن منازههم وأنظفها وأبهجها ولا يصح للسائح ان لايزورها وقد رأيت بعض العائلات تقيم لمن يتوفى من أفرادها أثرا جليلا من المرمر الناصع بالتمثيل المحكم والاتقان التام مما يكلفها ٠٠٠٠٠١ فرنك فنازلا واعتنت البلدية بتنظيمها على هذا النسق المعجب وقسمتها أقساما بقدر اللحود تبيعها لمن يريد وهى تتكلف بتشييد القبور واقامة الانصاب لمشاهير المدينة قديما وحديثا ·

وكانت جنوة أول مدينة شعرنا فيها بالبرد الخفيف وفيها تنازل الوبل علينا مدرارا ثم قمنا منها قاصدين باريس ولكنا

Digitized by Google

التقينا فى القطار برجل من أهل تورينو أشار علينا بشطر الطريق نصفين حتى لا تفوتنا الفرصة من مشاهدة هذه المدينة الفاخرة التى تسمى فى كتب قدماء العرب طرون وطرونة واطرونة وحتى لا نتعب من طول الطريق

منظر تورينو

فعملنا بنصيحته شاكرين وكنا أرسلنا متاعنا كله الى باريس فدخلنا المدينة وقد أرخى الليل سداله وجر الظلام أذياله فرأينا شوارعها فسيحة أنيقة تضىء الكهربائية أرجاءها فتساعد على زيادة جمال المبانى الفخيمة التى تحف بها وأمضينا بقية الليلة بثياب النهار حتى اذا أصبح الصباح (وانتشر نوره ولاح) قمنا من الفندق وطلبنا من البوّاب أن يتحفنا بدليل من أولى الالباب فاحضر لنا رجلا لتشويه خلقته كانه من عجائب الزمان ثم ركبنا عربة وهو معنا نتفرج على المدينة وما فيها من الغرائب وكانت كلها تزيد فى عينى جمالا واعتدالا وليس الفضل فى ذلك لمنظر صاحبنا فقط بل لانها فى الحقيقة تحتوى بعد استكهلم (عاصمة السويد) على أجمل حدائق الدنيا وقد طفنا منازهها وارتقينا ربواتها وأهم مرتقى صعدنا اليه هو جبل شامخ يكاد يكون رأسيا عليه أربعة قضبان كشريط السكة الحديدية وفوق كل اثنين منهما عربة عجلاتها السفلية كبيرة والعلوية صغيرة جدا بحيث

Digitized by Google

يكون الجالس على هذه العربة كأنه على الارض المنبسطة ومتى
دق الحارس الجرس الكهربائى صعدت بانتظام من غير أدنى
ارتجاج تجذبها قوة الغاز ثم ترسلها بالثانى الى مكانها الاول عندما
تجىء الاشارة وسأصف لك هذه الآلة فى رحلتى فقد كتبت الى
مخترعها أطلب منه البيان الشافى ولما تسنمنا ذروة هذه الربوة رأينا
متحفا فيه الحيوانات والاحجار والاعشاب والازهار الخاصة بالقسم
من جبال الالب المجاور للمدينة ثم صعدنا على سطح المتحف فرأينا
النظارات المقربة قد قربت لنا الجبال حتى كأنها صارت تحت
يد المتناول وقد كلل الثلج هاماتها فكأنها هرمت من طول العهد
ترى السحب فوقها متراكمة على الدوام ولكن سفحها مازالت فيه
قوة الشبيبة والانبات فتراه مجللا بالحلل السندسية البديعة

آثار مصر فى تورينو

ثم هبطنا هذه الربوة وقصدنا متاحف المدينة ولا أذكر منها
الآن الا القسم المصرى فقد رأيت لهم عناية تامة بحفظ الآثار
التى صرفوا فى جلبها من بلادنا الابيض الوضاح والاصفر الرنان
ورأيت فيه مجموعة كاملة من ورق البردى المزين بالاشكال
والرسوم الباهية فيها تصوير الاحوال التى تمر على المصرى القديم
من يوم منبته الى يوم منيته الى يوم دينونته الى يوم مستقره فى جنة
أو جهنم ثم نزلنا تحت الارض فى قاعات طويلة فيها الآثار

Digitized by Google

المصرية الضخمة كالمسلة وصورة لابى الهول وهى فى غاية الجمال وانى لاعجب كيف يصح اطلاق لفظ أبى الهول على هذا التمثال الذى وجهه وجه غادة مصرية مفرطة فى الملاحة اللهم الا ان يقال ان حسنه يهول من يراه كما يقال فى لغتنا الواسعة (لهذه الفتاة محاسن رائعة) ولولم يكن التمثال الهائل الذى بجانب الاهرام ما كان هذا التعبير يصح فى الاذهان ولكن قد كان ما كان فالاجدر بنا أن نحمل هوله على مابه من فرط الحسن وصباحة المحيا

ثم خرجنا من هذا المتحف الى غيره مما فى المدينة فرأينا أسواقها عامرة وحوانيتها مشحونة باصناف البضائع والفاكهة فيها بل وفى كل ايطاليا من أجود مايكون حتى انى رأيت البرقوق فيها بحجم الكمثرى بحيث لايصح ان نسمى نظيره فى بلادنا الا بلفظة بريقيق (بالتصغير) ثم خرجنا منها قاصدين بلاد «فرانسة الغراء» فسار القطار تجره باخرة من الامام وتدفعه أخرى من الخلف لان الارض كانت آخذة فى الارتفاع وقبل ان نصل الى مدينة مودان الفاصلة بين تخوم فرنسا وايطاليا دخلنا نفقا منقورا فى جبل يناطح السحاب فداخلنى منه خوف شديد ورعب زائد فاخرجت الساعة بنوع من الالهام لكثرة فزعى من هذه الكتلة المتناهية فى الجسامة

نفق جبل سان سنيس

والضخامة التى ستكون فوقنا وقد كنت أحسب نفسى قد تعودت على السير فى الأنفاق فاذا الامر ليس كذلك لان القطار صار يسير ويتعثر فى مشيته ثم يخفف من وطأته ثم يستريح ثم يصفر ثم يتنهد ثم ينحدر فيكتم نفسه خوفا من الانزلاق على المنحدر و ينتقل على قضبان توشك ان تكون مضرسة لحفظه من السقوط وقد استطال السير حتى كادت النفوس تزهق من انحصار الهواء ومن الرعب الشديد الذى قد تضاعف بمرور باخرة أخرى بجانبنا مالبثت ان بارحتنا وتركت باخرتنا كالفرس أجهدها الضنى وحضرتها ساعة الوفاة ومع ذلك لا يرحمها الفارس بل ينخسها ويستنزف مابقى فيها من حول وقوة (ولا حول ولا قوة) وكنت وانا تحت هذا الجبل المتعالى أخشى أن يسقط حجر واحد منه فينهار ويروح القطار شهيد هذا الدمار الذى ليس بعده دمار وكنت أخشى أن يصح على السائق نص الحديث النبوى (لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى) وكان الطل متساقطا والنور فى العربة أصفر باهتا (مثل فانوس اللصوص) فتوسلت الى الله جل شأنه أن يهيئ لنا الخروج من هوة الظلمات الى فضاء النور فتقبل الدعاء وانعش أرواحنا بالضياء وليس هذا الوصف الحقير شيأ بجانب الحقيقة على الاطلاق وان لم تصدقنى فتعال ايطاليا ومر

بهذا النفق (ولاتنس بيشة) فانك ستمضى به ان شاء الله تعالى أكثر من نصف ساعة وترى أكثر مما جاء فى هذا البيان وليس الخبر كالعيان

ولقد اعترفت بصدق من قال ان الحادثات تمر على الانسان ثم ينساها حتى كأن لم يكن منها ما كان وانه عرضة للنسيان فى كل زمان ومكان فانى بعد الخروج من هذا المسلك الحرج افتكرت انى نسيت أمرا خطيرا وذلك انى خرجت من ايطاليا ولم أتناول شيأ من المكرونة أوالمعكرونة أوالمقرونة (طعامها المشهور) حتى وددت لورجعت اليها لآكل منها بالارطال أوبالامتار (فقد بلغنى وأنا بمصرانها تؤكل فى بعض النواحى من هذه البلاد بالامتار) ولكن هيهات هيهات رد مافات ولوأنى تذكرت حينئذ الجران بار (أرجوك السماح فان المقرونة مقرونة فيه بالاتقان)

وصف جنوب فرنسا

ولما وصلنا الى مودان نزل الركب يهنئ بعضهم بعضا على السلامة من ذلك الجبل المريع واستنشقنا حينئذ هواء فرنسا وقد كانت رئاتنا فى احتياج اليه وتسلمنا عمالُ السكة الحديدية الفرنسوية ثم سار بنا القطار بين جبال شامخة شماء يشقق من أعاليها الماء فيكون غدرانا وانهارا تنساب بجانب الوابور وتحته بمنظر رائق جميل والهواء صاف عليل يروّح النفس ويرد اليها

Digitized by Google

الحياة ولاأعلم لماذا اعترتنى هزة الفرح ونشوة السرور وأنا أمر بينها معجبا بهذه المحاسن الطبيعية وقد رأيت فى بعض حقولها وفى بعض مزارع ايطاليا شادوفنا المصرى بالتمام ولولا وجود الجبال وكون الذى يسقى الارض بالشادوف لابسا القبعة والبنطلون لظننت انى فى أرياف مصر أشاهد فلاحنا المعهود

وشتان بين مالاقيته فى جنوب ايطاليا مما قبض الصدر وضيق على القلب وبين ماشاهدته فى جنوب فرنسا مما يسر الخاطر ويقر الناظر . أما المدائن التى مررنا عليها فى جنوب فرنسا فانما هى قرى خلوية ليس فيها شئ من الجمال الذى رأيناه فى مدن ايطاليا وكنت عند كل محطة أسمع القوم وخصوصا النساء يملأون الافواه عند النطق باسم باريس فيقلن (پارى والاكثر پاغى بغنة ومدّة فيها الترخيم) ثم أقبل الليل فشددت حلقة فى أعلى الكرسى فانقلب سريرا بل فراشا وثيرا فنمت متوكلا على الله ولسان حالى يكرر مايقوله المصريون (على قلبها لطياون) وبعد ١٩ ساعة قضاها الوابور فى السير الحثيث وصلنا مدينة باريس

وقبل ان انتقل الى الكلام على هذه المدينة الحسناء أرى من الواجب على أن أفى بوعد قد أخذته على نفسى وهو ذكر

Digitized by Google

ماألاقيه من عمال كوك فانى لايسعنى الا أن أوفيهم هنا حقهم من الثناء فقد قاموا بخدمتنا فى جميع المدائن التى نزلنا بها أحسن قيام وساعدونا فى كل طلباتنا فوق المرام وأمدونا بجميع أنواع لتسهيلات والايضاحات خصوصا فى فلورنسة وتورينوحتى محوا الهفوة التى وقعت ببرندزى فلله در كوك أحسن الله مثواه بقدر احسانه الى نفسه والى العالم كله

الرسالة الثامنة

باريس

الانبهار من رؤية باريس

هذه باريس تحفة الدنيا ونزهة العالم وزهرة الكون . هذه باريس جنة الجنائن ومدينة المدائن وعاصمة العواصم . هذه باريس منبع البهاء والمحاسن ومرتع الظباء الاحاسن . هذه باريس تمثال الفخامة والجلال وشخص الخفة والرقة والجمال . هذه باريس معدن العلوم ومركز دائرة العرفان فى هذا الزمان . هذه باريس التى مهما بالغت عنها فى الوصف والمقال فانى بعيد عن حقيقة الحال بعدا ليس له مثال ولا يكاد يخطر على بال

Digitized by Google

فليس لى حينئـذ الا الاكتفاء بانها فردوس الفراديس

بل هى هى باريس

قدمت اليها فى بكرة النهار (من يوم ٢٧ أغسطس) ورأيت فيها من الحـركة والنشاط ماهالنى وراعنى وألزمنى الاقرار بالعجز عن التعبير والحيرة فى التحرير فكيف يتسنى لى أن أوافيكم ياقوم بما شاهـدته فيها من التناهى والبلوغ الى غايات الكمال فى كل موضوع وباب وانى اذا أرخيت للفكر العنان ومكنت القلم من الجولان فى أى ميدان أملى عليكم مايملأ الاوراق ويدهش القراء ولكنى أؤجـل التلخيص الى عودتى اليها بعـد اتمام المأمورية والتنقل فى بعض مـدائن الانكليز لكى تكون كتابتى عليها عن تحقيق وتدقيق فانها تملكت فؤادى واستولت على لبى حتى انى فارقتها مضطرا بعـد ماقضيت بها يومين وماقضيت منها وطرا موطنا النفس على الرجوع اليها واستجلاء مشاهـدها ومعاهـدها . وهل تكتفون بذلك منى الآن أم تريدون أن أوافيكم بعجالة فيها نبأ له شان

أهمية المرأة فى الوجود

أريد أن أتكلم على أحسن نصف فى بنى الانسان ولكنى أخاف اللوام فاسمعوالى بالله عليكم هـذه المرة بمعاودة

الكلام على المرأة وأعدكم انى لاأعود وما عهدتمونى انقض العهود وكيف ألام على الدخول فى هذا الموضوع الحرج الواسع وقد كان للمرأة ولايزال لها الشأن الاول واليد الطولى فى الانقلابات الدولية والنظامات السياسية والترتيبات الدينية بل فى كل شأن من شؤن العمران وفى كل عمل من أعمال الانسان فاننا اذا صرفنا النظر عن أم الامهات وتصفحنا التاريخ العام وجدنا لها أثرا ظاهرا وعملا معروفا فى كل الاديان التى نزل بها الوحى أوزينها الوهم واخترعها الخيال وهذه الاشارة الوجيزة تكفى من له أقل اطلاع

ثم اذا نظرنا بوجه الاجمال الى تاريخ القدماء من مصريين وأشوريين ويونانيين ورومانيين وغيرهم وجدنا المرأة هى دون سواها سبب التقدم والارتقاء أوعلة التقهقر والانحطاط وعلى يدها تم تشييد الدول العظيمة أوتبديد سطوتها ومحو أثرها من الوجود وطالما اشتبك القتال وتفانى الابطال لاجل امرأة واحدة وكذلك الحال فى تاريخ الامم الحديثة . هذا أمر كان وكائن ويكون الى يوم تحشرون وانى أذكر لكم مايحضرنى الآن من الشواهد القليلة مثال ذلك دلوكة العجوز فى التاريخ المصرى القديم والمرأة التى كانت سببا فى حروب تروادة الشهيرة ولوكريس

Digitized by Google

وقرجينا فى التاريخ الرومانى ومثلهما تلك الغادة الكيمائية التى جاء فى بعض الروايات انها كانت سببا فى القبض على انيبال الافريقى قائد قرطاجه بعد ان أذاق الرومانيين من العذاب ماأذاقهم ثم رينى (Irène) فى تاريخ بوزنطيا وتلك الحسناء الفلسطينية التى احتالت على سمسون الجبار فأخضعته وأوقعته فى يد أعدائه بعد ان أوقع بهم وعجزوا كلهم عنه بمفرده وتلك الفتن التى أثار غبارها نساء داود عليه السلام فى آخر أيامه وتوصلت احداهن بالحيلة والدسيسة (على ماجاء فى التوراة) حتى ألزمته بان يجعل ابنها سليمان (عليه السلام) خليفة له والبسوس والزباء فى تاريخ العرب وطومريس ملكة المساجيت التى طلب كورش ملك فارس أن يتزوج بها فامتنعت فأقام عليها حربا كانت عاقبتها وبالا عليه وعلى قومه واليصاموسة قرطاجة وكليوبطرة ملكة مصر الشهيرة ودخول العرب فى الاندلس وخروجهم منه كان سببه المرأة وهذه خديجة وعائشة رضى الله عنهما وشجر الدر وغيرهن فى تاريخ الاسلام وفتك الرشيد بالبرامكة على مافى بعض الروايات سببه المرأة ولاتنس زوجة الزمخشرى فانها على مايروى عنها هى التى أرجعته بالبرهان الفعلى لاالقولى عن القول بخلق الافعال واجنيس سوريل التى كانت سببا فى سقوط الدولة الفرنساوية ثم جان

دارك راعيـة الغنم التى طردت جيوش الانكليز من أرض فرنسا والشواهد أكثر من أن أتذكرها الآن أنا وفى بلاد الانكليز وربما توسعت فى سردها فى الرحلة اذا يسر الله

وكان أحد القضاة فى أوروبا كلما نيط به تحقيق واقعة جنائية يقول للشرطـة (ابحثوا عن المرأة) وبذلك كان يصـل لاكتشاف الحقيقـة على الدوام مهما كانت وقائع الدعوى تصرف الظنون عن وجود أصبع للمرأة فيها ولم يكن فعله هذا من ضروب النبوة أو الاطلاع عـلى ماوراء الحجاب وانما هو من قبيل الاستقراء والاستنتاج ومن تمام معرفـة تأثير المرأة فى أعمال الناس ولقد أحسن شاعرنا العربى اذ يقول

اذا رأيت أمورا * منها الفؤاد تفتت
فتش عليها تجدها * من النساء تأتت

وأذكر بيتـين آخرين يختصان بالمرأة لاأدرى أيهـما الاحق بأن يقال عنده صدق . أذلك الذى قال

ان النساء شياطين خلقن لنا * أعوذ بالله من شر الشياطين

ام تلك التى اجابته فى الحال واجادت فى المقال

ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكم يشتهى شم الرياحين

أما أنا فأحكم بعـد الحـيرة الطويلة بارجحيـة القول الثانى

Digitized by Google

وليس من شيمتى ان استبد عليك لموافقتى بل أتركك حرا فاختر لنفسك مايحلو

المرأة فى فرنسا

ولاشك ان الفرنساويين نظروا الى كل هذه الملاحظات وما يناسبها بنظر الناقد البصير والمتدبر الحكيم فأرسلوا مثلا تناقلته الافواه وهو (ان ماتريده المرأة يريده الله Ce que femme veut, Dieu veut.) لذلك كان لها عندهم الكلمة النافذة والامر الطاع فلا يقدم الرجل منهم على أمر لاترضاه زوجته ومتى أقدمت هى على عمل أوتعلقت به مشيئتها وجب عليه الرضى به والاقرار بوجوبه وان لامندوحة عنه وهم يبالغون فى اكرام المرأة والتأدب فى حقها (ولو ظاهرا) بما يفوق الوصف وفى تثقيف عقلها بجميع أنواع العلوم والمعارف (حتى التى لايقدم عليها الافحول الرجال) ولذلك نبغ منهن الكاتبات المحررات الشاعرات الخطيبات المصورات المشخصات المحاميات الطبيبات المخترعات فى كل أمر ذى بال أو غير ذى بال

أحاسن باريس فى غاية بولونيا

الى هنا أنبه قلمى للعدول عما استطرد فيه الى ماينتظره منه بعض القراء عقيب ماصدرت به الكلام من التخوف من اللوام وقد تعلقت آمال ذلك البعض (اذا صح التعبير بالبعض عن الكل) بان أحدثه على فسحتى فى باريس يوم الاحد الرابع

Digitized by Google

من أغسطس بعد أن أمضيت الاحد الثانى منه فى سان ستفانو بالاسكندرية والثالث فى منازة رومة وخمائلها السندسية

ولعمرى انه يحق لهم ذلك الانتظار ولايحق لى ان ابخل عليهم ببعض ماشاهدته اذ الاحاطة متعسرة بل متعذرة فانى أمضيت يوم الاثنين وصبيحة ذلك اليوم الاحد البهيج فى السؤال عن كثير من العلماء الذين سبقت لى بهم معرفة بالذات أو ببعض العلاقة الادبية ولم يسعدنى الحظ بمقابلة أحد منهم على الاطلاق لانهم كلهم قصدوا الخلوات طلبا للرياضة والتمتع بالسكينة والهواء السليم (وربما كان هربا من الهواء الاصفر وقى الله بلادنا منه) ولذلك أخذتنى الغيرة منهم فأحببت أن أتشبه بهم فى استنشاق النسيم وامتاع النواظر برؤية العيون المراض الصحاح ومشاهدة مافى الطبيعة والصناعة من باهى المحاسن وباهر الاحاسن وما هو الا ان حانت ساعة النزهة حتى علوت عربية توسمت فى سائقها الفهم والنباهة وركب على يمينى رفيقى الاستاذ الشيخ محمد راشد وقلنا لسائق العربة ان يغدو بنا الى حيث يخرج القوم بحجة النزهة والرياضة وترويح الفكر وإراحة البال فأرسل الخيل تعدو فى شوارع منتظمة عامرة آهلة حتى اذا اقتربنا من غابة بولونيا أخذ يسير الهوينا ونحن نمتع النواظر برؤية الوجوه

Digitized by Google

النواضر واللحاظ الفواتر والثغور البواسم والخدود النواعم والقدود المياسة والخصور النحيلة الى ماوراء ذلك مما هو وراء الوصف والبيان وقد كان منهن الخاطرات بالدلال والاعتدال فى حلل البهاء والجمال وملبوس أفخر يزيد الملاحة بما لا يقدر ومشية متوازنة بحركات متجانسة ممزوجة برقة واعجاب لايصح ان تسمى بالتبختر ومنهن الراكبات فى العربات وبجانبهن أو أمامهن رجال من عائلاتهن (أوغيرها) ولكنهن لا ينظرن اليهم ولاهم ينظرون اليهن بل كل من الفريقين مشغول عن صاحبه (لذى تمتلكه اليد) بمن يسعى أمامه أو يمر بجانبه أو يعدو خلفه وكل واحدة من هذه الجوارى المملكات المالكات تبذل غاية جهدها ومنتهى فنها لكى تتجلى فى مظهر أنيق رشيق يسبى ويصبى ثم لاتكتفى بخطف العقول والارواح بل هى فوق ذلك فتاكة فتانة (والفتنة أشد من القتل) ومازلنا ننتقل من منظر الى أبدع الى أبرع الى أبهج الى أبهر حتى انبهرنا واندهشنا وضاعت مناصيغ أفعال التفضيل التى كنا حفظناها لمثل هذه الفرصة وقد كلّ البصر وارتد الطرف حسيرا فافتكرت حينئذ أن البخار تكفل بتقريب المسافات فاغنانا عن استعارة أجنحة القطا للطيران الى موضع الحب والهوى ولكنى فى عوز زائد الى كثرة

النواظر لان العينين اللتين منحهما لى البارى لاتكفيانى لرؤية هذه المناظر التى أمامى وتأسفت على كونى لم أتزود قبل الرحيل بشئ من العيون التى كانت تنفعنى وتنفع أصحابها فى مثل هذه الحال التى ليس بعدها حال ولكن لله الحمد فان الباب مازال مفتوحا والامر ميسورا لانى سأرجع الى باريس وأقيم بها نحوا من أسبوعين أو أكثر فكل من يهزه الشوق لاستجلاء هذه المحاسن بنفسه من غير أن يتحلحل عن مجلسه فليساعدنى بما هو لازم (ع) ومتى انصرفت عن هذه المدينة أرجعت اليه العين بالعين فتحدثه بما رأت وتؤكد له صدق من قال وليس الخبر كالعيان

فلما رأيت مارأيت من التناهى فى التبرج والبهرجة والتغالى فى التزويق والزبرقة والتهالك على النماكة والغندرة خطر على بالى انى لو كنت من قدماء اليونان الذين يعتقدون بتعدد الآلهة لكنت أقول ان إله الجمال بالغ فى الاتقان وبذل كل مافى وسعه من حسن الصنع عند ما كان مشتغلا بالخليقة فى هذه البلاد ولكنى بفضل الله من المؤمنين الموحدين المسلمين الذين يقولون تبارك الله أحسن الخالقين

وقد تذكرت حينئذ عبارة لاتينية كان القدماء يكتبونها على الساعات رمزا الى انقضاء الحياة بمرور الاوقات وهذه ترجمتها

Digitized by Google

(كلهن جارحاتٌ والاخيرة تقتل Vulmerant omnes, ultima necat.) ولو كنت من الشعر بمكانة القادرين على سبكه والمجيدين لحبكه لصغت هذا المعنى فى أبيات بديعة فى الكلام على النساء ولكننى لا أتصور انه فات شعراءنا البلغاء

أقول الحق انى لم أستغرب بعد ذلك كله من تلف بعض الشبان الذين توجهوا الى أوروبا فان المجرجر والمكبب والمقبب والمحدب والمعقد وخصوصا الشريط الذى يعقد على الخصر ويتطاير فى الهواء من وراء الذى يسميه الباريسيات بما معناه (اتبعنى يافتى Suivez-moi,jeune homme) كل ذلك يجر الى الغرور من غير شعور ويهوى باهل الهوى الى - هاوية الغواية والشرور الامن عصم ربك وهم ولله الحمد كثيرون . وقد قال لنا سائق العربة ان مارأيناه ليس بالشئ الذى يذكر لان المدينة الآن صفر من أهاليها المقصودة بالذات وأكابر القوم كلهم فى الخلوات

وهنا أنتقل من هذا الموضوع الى موضوع آخر له به تمام الارتباط وهو انى من أهل المذهب القائل بعدم اطلاق الحرية للنساء الى هذه الدرجة التى تجاوزت الاعتدال الى التطرف فى الافراط

وجوب حجب النساء

Digitized by Google

فان المرأة بعد كل تعليم وتهذيب أراها ضعيفة ميالة أكثر من الرجل لداعى الشهوات والتفانى فى الملاذ فالواجب أن تكون الحرية لهن كالملح فى الطعام فان التعليم ليس بقادر ان ينزع منهن هذه الاميال وان نزع منهن الخرافات التى ينشئها فى عقول الاطفال

أقول ذلك بمناسبة مارأيته فى (تقويم ترويح النفوس Calendrier Amusant) المكتوب باللغة الفرنساوية عن سنة ٩٣ القادمة . قال فى النهر الثانى من صحيفة ٢٣ والاول من صحيفة ٢٦ ماخلاصته : ان العلامة كستنر (Kœstner) أحد أساتذة ليبسيك وصاحب التصانيف العديدة المشهورة نشر كتابا فيه ابحاث علمية دقيقة مستوفاة تكلم فيه على حركة ازدياد المواليد ونقصها فى البلدان المختلفة مستندا على الارقام وقد أدته ملحوظاته وحساباته الى اثبات النتائج الآتية بحسب التعديل المتوسط وهى

ان المرأة الالمانية تخون زوجها فى عرضه ٧ مرات والبلجيكية تخون زوجها فى عرضه أيضا ست مرات وأربعة أخماس مرة (بحسب التعديل المتوسط) والانكليزية تخون زوجها خمس مرات والنمساوية أربع مرات ونصف مرة والهولاندية

Digitized by Google

أربع مرات والسويدية أو الدنيمركية مرتين والطليانية مرة وخمسة اسداس المرة والفرنساوية مرة واحدة والاسبانية سبعة اثمان المرة والبرتقالية واليونانية خمسة اسداس المرة والصربية والبشناقية والتى من الجبل الاسود والبلغارية ثلثى مرة والتركية (ويعنون بهذه اللفظة المسلمة وغير المسلمة من الشرقيات) عشر المرة الواحدة اه

فاذا سلمنا بهذا الحساب الذى استنتجه ذلك الاستاذ الالمانى رأينا أن فى التحجب وفيما يقرب منه فائدة عظيمة فى صيانة الاعراض

زيارة سفير الدولة العلية

وبعد ان طفنا هذا المنتزة مرتين رجعنا الى فندقنا فعلمنا بكل سرور وانشراح آن دولتلو أسعد باشا سفير الدولة العلية فى باريس حضر لزيارتنا وترك لنا ورقة الزيارة وقد كنا توجهنا الى السفارة فى صبيحة ذلك اليوم (الاحد) البهيج وحظينا بمقابلة دولته ولبثنا معه مدة انصرفنا بعدها شاكرين مالاقيناه من لطفه وبشاشته وجميل مؤانسته ومحادثته

ثم أمضيت الليلة وأنا احلم أنى فى غابة بولونيا وانه لاتصح مؤاخذتى على وصف مارأيته فيها الابعد أن يؤاخذ بهاء الدين العاملى على وصف النساء فى الارجوزة الشهيرة التى كتبها على رحلته فى بلخ وأوردها فى أوائل الجزء الثانى من الكشكول

Digitized by Google

وبعد ان يؤاخذ الكثير من فحول العلماء وأكابر الاتقياء الذين لم يأنفوا ورود هذا الروض الانف وهكذا الى ان أشرقت الغزالة فحملنا امتعتنا ثم ركبنا القطار السريع قاصدين لندرة عاصمة بلاد الانكليز التى لاتغرب الشمس عن ممالكها ومستعمراتها

الرسالة التاسعة

من باريس الى لوندرة

وخلاصة وجيزة على المؤتمر

وصف بحر المانش

اشتهر الانكليز عند الخاص والعام بالاختصار فى الكتابة والكلام على الهجوم والمقصود من غير تقديم مقدمة أو استفتاح بفاتحة وسأتكلم عن أخلاقهم بالتفصيل فى الرحلة وأكتفى الآن بمجاراتهم فى هذا السبيل

قمت من باريس الى دييب (Dieppe) أحد ثغور فرنسا فى الشمال الغربى وركبت الباخرة وأنا مرتجف من هول بحر المانش ودوّاره اذ انى قرأت فى كل كتب السياحة انه من أشد الابحر اضطرابا وهيجانا لانحصاره مابين شطوط فرنسا وانكلترا واندفاع التيار فيه ولذلك كان الاوربيون بل الامريكيون أنفسهم

Digitized by Google

يعترفون بشدة هوله ويفزعون دائما من اجتيازه حتى لقد حمل ذلك بعض المهندسين من فرنسا على تقديم مشروع مقتضاه خرق نفق تحت قاع البحر تسير فيه السكة الحديد للسهولة والراحة وتقريب المسافة ولكن انكلترا عارضت فى إنجاز هذا المشروع خوفا من تعدى قوة حربية برية عليها من فرنسا المجاورة (كما يتقول الفرنساويون) . ولقد ازداد رعبى حينما سألت أحد المسافرين وأجابنى باكثر مما قرأت وتمكن كل التمكن بعد أن أنذرنى القبودان أيضا باضعاف ما أفادنى الاول فكاد يفعل بى الوهم ما يقصر عنه دوار البحر لولا انى تجلدت واذ كنت مضطرا للسفر وليس لدىّ من المراكب سوى ركوب هذا المركب ولا يمكننى الانتظار حتى تعترف انكلترة بفائدة النفق (كما اعترفت بفائدة قنال السويس فيما بعد) فقد اعتمدت على الله وعملت بنصيحة بعض الخبيرين الذين تعرفت بهم فى باخرة البر فبادرت لتناول قليل من الطعام قبل قيام السفينة حتى يكون فى المعدة شئ يقاوم تأثير الدوار بادىء بدء فلا يقع على الامعاء مباشرة

فجاءنى الغلام وكلمنى بالانكليزية وكنت قد نسيت اليسير الذى كنت تعلمته قبيل سفرى من القطر المصرى بسبب استعمالى الطليانى فى ايطاليا والفرنساوى فى فرنسا فضلا عما فى رطانة

الانكليزمن الصعوبة والدمدمة والهمهمة واهمال المقاطع الاخيرة من الكلمات فتذكرت ان أحسن طعام يجيد القوم صناعته هو الرزبيف والبفتيك (أو البكتيف بحسب رواية البعض فى بلادنا) فذكرت اسم اللون الاول فعاد ومعه قطعتان كبيرتان حواليهما من الدهن سواران بل سوران وبجانبهما قليل من شبه المرق فغمست لقمة فى هذا السائل ثم وضعتها فى فمى فكادت تحدث عندى ماهوأشد من دوار البحر ودوخة الرأس واضطراب الامعاء لولا أن تداركت نفسى فأهويت الى فى بكمية عظيمة من الملح والفلفل والخردل وذلك لان الانكليز يصنعون ما كلهم من غير ملح ويتركون تمليحها للآكل بقدر مايريد وخلاصة القول انى أكلت كما أكلت (لاهنيأ ولامريئا)

وأما رفيقى فقدآثر النوم على كل شئ عملا بما اكتسبه من التجربة فى بحر الروم

ثم انى صعدت على ظهر السفينة لاتمتع بمنظر البحر ومشاهدة المدينة ولوان ذلك يزيد فى أعراض الدوار ولاأصف اعتدال الجووبهاء السماء وصفاء اللجة وجمال المدينة واجرافها الصخرية الشامخة التى تتلاطم الامواج تحت اقدامها بل أقول انى كنت أستغرب من تحسن الحال كلما تقدمت السفينة الى الامام وأنا

Digitized by Google

لاأشعر بالاضطراب ولكن القبودان كان يقول لى (بالفرنساوية)
تربص قليلا ريثما تعارض السفينة التيار . وما زال الحال
على هذا المنوال حتى بدت لنا شطوط انكلترا والفرح يداخلنى
قليلا قليلا الى أن دخلنا ميناء نيوهافن (New Haven)
بسلامة الله تعالى وحسن معونته بعد مسير أربع ساعات ونصف
وكان عدد المسافرين ١٤٠ فى الدرجة الاولى و ٨٠ فى الثانية
لم يؤثر الدوار الا على ستة من الستات واثنين من الخواجات وقد
أجمع الخبيرون على ان مثل هذا اليوم لا يجىء الافيماندر فقلت
لعل هذا من كرامات المؤتمر أو ان أحد أصحابنا فى مصر قرأ
لنا حزب البحر

دخول انكلترة

ثم نزلنا فى المدينة فاستقبلنا أعوان الكمرك يسألوننا هل معنا
شئ من الدخان والسجاير ثم وضعوا أمتعة المسافرين على كثرتها
فى مخزن كبير بحسب ترتيب عددها فى التسجيل ووضعوا النمرة
على الارض بالطباشير لكل متاع مسافر وعدد ما معه من
الشنطات وما يتبعها لكى يتوجه كل أحد بحسب تذكرته الى
موضع نمرته فيرى متاعه بدون أن يكون ازدحام أو اختلاط
أوضجة أو رجة فأعجبنى هذا الترتيب وبعد التفتيش سار بنا

Digitized by Google

القطار الى لونده فيما بين حقول خضراء ناضرة ومراع واسعة زاهرة

وصول لوندرة

فلما وصلنا المحطة المقصودة من لونده فى مساء ١٩ أغسطس تلقانا عامل من بيت كوك ومعه كثير من مكاتيب اخوانى الذين تركتهم فى مصر وصلت قبل وصولى فحفظها لى عامل كوك وقد تلوتها باشتياق زائد قبل ان انتقل خطوة واحدة وشكرت الله على هذه النصف مشاهدة مسرورا بها شاكرا لله ذاكرا مالهم من الفضل والعناية ثم ركبنا العربة قاصدين الفندق فاذا المدينة كبيرة ضخمة جسيمة هائلة لايصح أن تسمى مدينة أوعاصمة بل هى قطر كبير واذا حق لى تسمية باريس (جنة الدنيا) فلا بد لى من تسمية لونده موساعات العالم

وقد نزلنا فى أهم فندق بأهم حى من احياء هذا القطر اعلاء لشأن المأمورية واعتبارا لمقام حكومتنا السنية وهو المعروف بـ(ألبمارل هوتيل) وهو من الطبقة الاولى ولا ينزل به أحد من المسافرين الا بتوصية أوتقديم وكان نزلا لاعضاء العائلات الملوكية الذين جاؤا الى هذه الديار وقد كان النور الكهربائى فيه طوع بنانى طول الليل وطول النهار وان اليراع عاجز عن

Digitized by Google

وصف ماعليه الفندق ولكنى أقول ان بذل الدنانير الوافرة أجرة للنزول فيه كبذل الدراهم فى غيره وسأصفه بما فى المقدور فى الرحلة ان شاء الله تعالى

وفى صباح النهار نزلنا الى قاعة الاستقبال فرأينا ثلاثة من بعض زيارات أبناء بلادنا قد حضروا للسلام علينا وكنا لا نتوقع ان أحدا يعرف مكاننا فى تلك الساعه فحصل لنا برؤيتهم ومكالمتهم مزيد السرور وهم من التلامذة الذين أرسلتهم الحكومة الخديوية للتعلم فى بلاد الانكليز

ثم حضر لزيارتنا فى الفندق سعادة الجنرال السير غرنفل باشا سردار الجيش المصرى سابقا فاستقبلنا سعادته بواجب الاحترام اللائق بمكانته من الفضل والعلم وهو الذى ساعدنا فى مأموريتنا هذه كما سيمر على نظر القارىء ثم حضر لنا رفيقنا الثالث وهو الدكتور فوللرس وقد رددناله الزيارة بعد ذلك

أعمال المؤتمر بغاية الايجاز

فلما جاء يوم افتتاح المؤتمر أرسل لنا سعادة سردارنا السابق عربته لتقلنا الى محل الاجتماع فلما وصلناه رأيناه يموج بالناس ولا يجهل القارئ ان جميع من يضمه المكان هو من مشاهير العلماء ونخبة الفضلاء من كل أمة ولم يحضر المؤتمر

Digitized by Google

أحد من العائلات الملوكيـة بل كلهم اعتـذروا برسائل برقيـة وغـير برقية

وأفتتح حضرة الرئيس الاستاذ مكس مللر أعمال المؤتمـر بخطبـة قد كانوا طبعوها فى ٦٣ صحيفة ووزعوها علينا وكلها غرر ودرر وربما لخصتها فى الرحلة أما الرياسة الادارية فقد كانت فى يد اللورد نورثبروك (الذى كان حاكما على الهند وقد جاء مصر من زمن غـير بعيد) ولاحظ الجميع ان الوقت المقرر قد مضى ولم يتم العمل المحـدد فى البيان الرسمى ليوم الافتتاح بل انه لم يتكلم أحد غـير الرئيس وآخر اثنى عليـه وثالث تكلم بالطليانية وعلى ذلك انفضت الجلسـة الافتتاحيـة وفى المساء كانت مأدبة اللورد نورثبروك لاربعة وعشرين مدعوا من أهل المؤتمر لم يكن بينهم شرقى غـيرى وقد أجلسونى على المائدة والى يمينى الدكـتور بوهلر وهو من أشهر مشاهير العلماء فى أوروبا والى يسارى السير غرنفل باشا وكانت المأدبة أشبه شئ بمآدب الملوك على ما سمعت لا ما عرفت

وفى الايام التالية كانت الاقسام تشتغل بمباحثها وفى جملتها الفرع الثانى من القسم الثانى الخاص بالساميات الذى كنا فيه فلما جاء دورنا تكلم الدكتور فوللرس على رسالة كتبها فى الاصوات العربية مستندا على ما رواه ابن يعيش شارح المفصل وما جاء به سيبويه

النحوى ثم تلوته بالفرنساوية مبينا إجمال ما فى الرسائل التى قدمتها للمؤتمر ثم قام حضرة الاستاذ الشيخ محمد راشد وتكلم على رسالته التى كتبها فى الكلام الدارج بمصر القاهرة وأورد كثيرا من أزجال العوام والحانهم وموشحاتهم ومواليائهم وأدوارهم ثم قدم شرحا مطولا كتبه على خطبة مقامات الحريرى

وفى اليوم الرابع عينوا لجنة دولية للنظر فى شؤون المؤتمر الآتى والاقرار على وقت انعقاده ومحله وتعينت فيها عضوا نائبا عن الديار المصرية وكان الحاضرون ٣٥ بما فيهم الرئيس فتليت الخطابات الواردة بهذا الصدد ودارت المذاكرة على تعيين وقت انعقاد المؤتمر الآتى فقال الكونت داجو بيرانتى مندوب ايطاليا ان اللازم عقده بعد ثلاث سنوات حتى يتيسر للعلماء فى خلال هذه المدة أن يحضروا مباحث يقدمونها فيه فقلت حينئذ (ان القاعدة التى تقررت فى أول الامر لاجل عقد المؤتمر كل ثلاث سنوات انما كانت لقلة المستشرقين وأما الآن فقد انتشروا حتى كان لهم من أمريكا مشاركون كثيرون والواجب علينا أن نوجد لهم فرصا كثيرة يعرضون فيها أعمالهم لئلا يزداد الشقاق بين أجزاء هذه الجمعية فتضيع القاعدة الاولى بالكلية وتذهب ثمرات هذا الجمع ادراج الرياح ويصير علماء كل دولة على

عقد مؤتمر فى عاصمتها كل عام أو عامين فيتفرق العمل شذر مذر ولهذا فانى بمناسبة الشقاق الحاصل الآن فى لسبون أرى وجوب الاقرار على عقد المؤتمر فى سنة ٩٤ أى بعد سنتين فقط) فطرح الرئيس هذين الرأيين على الاعضاء وحسبت الاصوات فاذا هى متساوية فى كل فريق ١٢ عضوا وبقى الترجيح له فأطال الامعان ثم انحاز الى رأينا وتقرر الاجتماع فى سنة ٩٤ ثم تقرر أن يكون مركزه مدينة جنيفا (جنيره) ببلاد السويسره ثم تقدم مشروع خاص بتنظيم أعمال المؤتمرات فى المستقبل وجعلها تسير على وتيرة واحدة فتقرر بعد بعض تعديلات

ولما حل اليوم المحدد لانفضاض المؤتمر اجتمع فيه خلق أقل من الذين حضروا يوم الافتتاح ودارت المذاكرة على ماقررته اللجنة الدولية التى سبقت الاشارة اليها ثم أعلنوا بالاختتام

وفى المساء توجهنا الى مأدبة أعدتها لجنة تنظيم المؤتمر لجميع الاعضاء فى قاعة (هوتيل متروبول) وهو من أكبر فنادق لونده وكان عدد الحاضرين فيها ٣٠٠ مدعو وكان السير غرنفل باشا على يمينى والاستاذ الفاضل الشيخ محمد راشد على شمالى ولا يخطىء من يشبه هذه الحفلة ببرج بابل من حيث اختلاف الالسنة الا أنها بالغة فى الكمال والاتقان جمعت أصنافا كثيرة من بنى آدم ولغات

متخالفة تتكلم بها القوم الواحد بعد الآخر وقال رفيقى شيأ يناسب المقام ثم تكلمت بالعربية حسب مقتضى الحال واعلم انه لكبر هذه المدينة واتساعها لم يظهر فيها أثر ما لانعقاد مؤتمر المستشرقين فيها بل ولا أقل أثر لمؤتمرات غيره كانت منعقدة فى الوقت الذى انعقد مؤتمرنا فيه وهى مؤتمر للعملة (بفتح الميم) ومؤتمر للعامل وثالث للصحة وكل هذه منزوية فى غضون جوف هذه المدينة التى تسمى فى كتب العرب (لندرس) كما يسمون عاصمة فرنسا (بريس) وأما اسمها فى لغة أهلها فهو لندن ولكن الفرنساويين يسمونها (Londres) ويضعون فى آخرها سينا لا ينطق بها فاذا أرادوا النسبة اليها رجعوا للاصل اللاتينى الذى يقرب من اللفظ الانكليزى فقالوا لندنيان (Londonnien)

وفى الاسبوع الذى كان المؤتمر منعقدا فيه (من ٥ الى ١٢ سبتمبر) دعينا لمآدب كثيرة ونزه مفيدة للجسم والفكر يسمونها رياضة رياضية وبلغتهم جاردن پارتى (Garden party) لكنهم ينطقون بها جادن پاتى بجيم وألف مفخمتين ونون لا تكاد تظهر وكذلك الپاء الفارسية والالف فى التفخيم والتاء والياء فى عدم الظهور (فهذا درس من اللسان الانكليزى وان كنت لا أعرف منه الآن الا قليلا) ولا أذكر من هذه

الرياضات الرياضية فى هـذا المقام سوى مأدبة أعدها لنا اللورد امهرست (وهو غـير الذى كان حاكما على بلاد الهنـد) فقـد دعانا فى يوم ١٣ سبتمـبر الى قصره الكائن على مسافـة أربع ساعات من لوندرة فركبنا القطار ونزلنا عنـد وصولنـا فى عربات فاخرة أرسلها لنا رب الضيافة ومنزله أشبه شئ بمدينة عامرة فيها الرياض الغناء ومن ألطف مايروق النظـر فيها أماكن أعـدها للعب فسيحة الارجاء مفروشـة بالاعشاب الطبيعية وفيها الغابات والبحيرات لصيد الطيور والاسمـاك ومعمل للغاز و آخر للكهربائية وآخر لاصطناع العربات وترميم آلات الزراعة وخزانة للاسـلحة وغـير ذلك مما يدل على الحضارة وضخامة الثروة واصالتها وأذكر انه جمع فى روضته هـذه كثيرا من الاشجار النادرة الغريبة من أقاصى المشرق والمغـرب وله عناية بالازهـار والفوا كه فوق العـقل وقد رأيت عنده صنفا من العنب كبير الحجم لذيذ الطعم أبيض اللون وله خاصـية الرائحة الذكية فيضوع أريجه عنـد أكله

وقد اصطنع فيه زهرية على مثال بستان الازهار الذى كان فى قصر الحمراء بغرناطة أيام دولة عرب الاندلس وشكلها آخذ بالبصر بهـجة ورونقا

Digitized by Google

أما داخل القصر فحدث عنه ولا حرج وقل ماشئت ففيه دار تحف مصرية وبابلية وعمومية ولاجل أن يتصور القارىء مقدار التحف التى فيه وعظيم أهميتها أقول انه يوجد لديه ١٣ صندوقا كبيرا كلها مشحونة بآثار مستخرجة فقط من تل العمارنة فى ديارنا قريبا من ملوى بمديرية أسيوط وهو ينظر الآن فى بناء محل متسع لعرض هذه الآثار فيه وأما المكتبة فهى كبيرة جدا وفيها نسخ كثيرة بخط اليد من المصاحف الشريفة وكثير من الكتب العربية والفارسية والهندية مماله قيمة وذلك عدا الكتب الافرنجية المنسوخة بخط اليد المحلاة بالصور والرسوم البالغة حد الاتقان والكتب التى كانت باكورة اختراع المطبعة فى أوروبا وفى انكلتره وهى الآن نادرة الوجود وقلما توجد فى الكتبخانات العمومية التى من الدرجة الاولى وأحسن شيء رأيناه نسق وضعها وترتيبها المدهش للعقول وقد أعد للكتب النادرة المثال خزائن من الحديد خشية عليها من الحريق اذا شبت النار وان كان متحفظا على جميعها كما ينبغى

وفى المنزل غرفة ورقها من الجلد الاندلسى القديم وعليه أشكال ورسوم صورها احد المعلمين النابغين وأما الاوانى والفرش والاثاث والاستعداد وكثرة الرسوم والطيور والحيوانات المصبرة

Digitized by Google

فذلك مما لا لاحد لوصفه ولا تسل بعد هذا عن بقية قاعات النوم والجلوس والاكل وماتحتوى عليه من الاثاث والنور والاشكال والاوضاع فكله من وراء مقدور اليراع وصفه وفى الدار كلها اسطوانات عليها اعلانات تفصيلية بكيفية استعمالها بالسهولة لاخماد النار اذا شبت فى أى مكان وخلاصة القول انه اذا كان فى الدنيا نعيم فهو فى منزل هذا الرجل

أما دماثة أخلاق حضرة اللورد وحسن معاملته لنا هو وزوجته و بناته الست فذلك بمقدار ثروتهم وحضارتهم وقد أحرزوا من شكرنا لهم بمقدار ما كان لهم من مكارم الاخلاق

ومن بناته ثلاث أو اثنتان جئن مصر والباقى لم يزرنها ولكنهن يقرأن الحروف العربية و يقدرن على كتابة بعض الكلمات بخلاف اخواتهن الاخرى وقد كان بود هذه العائلة الكريمة ان تبقينا عندها أياما كثيرة ولكنا اعتذرنا لان حضرة الشيخ كان لابد من رجوعه الى مصر فى يوم ١٦ سبتمبر فودعناهم بعد ان أخذت احدى كريماته صورتنا بالفتوغراف و بعد ان استكتبونا أسماءنا بالعربية والافرنجية

أما نزهتنا فى لوندره فلا أتكلم عليها الآن وانما أذكر انى شفيت الغليل برؤية شبه مدينة البندقية فى احدى ضواحيها

Digitized by Google

وهو محل متسع فيه تياترورحب وفيه معمل للزجاج يشبه معامل البندقية وفيه شوارع مائية ومراكب ومراكبية تمثل للانسان مدينة البندقية بالتمام

فحمدت الله على هذه الفرصة الذى جعلت لى فكرة على هذه المدينة المائية حتى كأنى شاهدتها بالعين فالايدرك كله لايترك كله

معرض التاريخ الطبيعى

وقد توجهنا فى يوم من الايام الى معرض التاريخ الطبيعى البريطانى وكان مرشدنا فيه حضرة وطنينا الفاضل المنفرد بالشهرة فى هذا الفن الدكتور عثمان بك غالب فاستفدنا من دقائق المعرض وحقائقه أشياء كثيرة وأقول الآن ان الحكومة تنفق عليه وحده فى السنة خمسمائة ألف جنيه انكليزى وقد كان فى الاول فرعا من المتحف البريطانى فلما اتسع نطاقه وازدادت معروضاته نقلوه الى هذا المكان المخصوص وهو فى غاية الترتيب ونهاية الكمال

Digitized by Google

الرسالة العاشرة

لوندرة

عظمة لوندرة وجسامتها

بودى لو تيسر لى أن أكتب الآن ولو كلمتين على هذه المدينة بل على هذا القطر الواسع الذى يسمونه لوندره ولكنى أقف امام هذا الموضوع الهائل شبيها بالنملة بجانب مسجد السلطان حسن أو كالزورق الصغير فى البحر المحيط تتلاعب به الامواج وأنى له أن يهتدى الى بر السلامة فعلى م أكتب وماذا أصف وفيم أخوض فلقد اشتملت متاجرها على جميع أصناف العالم ومحصولاته كما ان بضائعها ومعاملها بلغت من الاتساع والاتقان فوق مايتصوره الادراك حتى إن مجرد الدخان الذى ينبعث منها الى سمائها يتحد مع ضبابها ويزيد فى تكدير جوها ثم يتساقط على مبانيها وعمائرها وتماثيلها وانصابها فيجعل منظرها أسود قاتما كئيبا محزنا تنقبض منه النفوس ويذهب بالانشراح ادراج الرياح وفيها من الاقبال على الشؤن واغتنام الفرص ومعرفة قيمة الوقت مايحير الافكار و يبهر الابصار ورجال الشرطة فيها بلغوا من الانتظام وحسن الدراية وكمال الدربة ومعرفة الواجبات مالايكاد يضاهيهم فيه غيرهم فى الكون باسره حتى صار لهم مهابة

Digitized by Google

فى النفوس وسيطرة حقيقية على كافة الافراد بحيث ان أقل اشارة منهم تكفى لمنع أى خلل أو اضطراب

حركة لوندرة

أما استمرار الحركة فى شوارعها فمما لا يتصوّره الانسان الا بعد المناظرة بالعيان فانها فى أقل الايام (ماعدا يوم الاحد) تشبه يوم مهرجان النيل أو ليلة احتفال الاعجام فى العاشر من محرم الحرام أو موسم المولد النبوى أو الاحمدى فترى العربات العمومية ذوات العجلتين وذوات الاربع تتقاطر وراء بعضها وبجانبها عربات الاومنيبوس شبيهة بالمنازل والدور كسلسلة متصلة الاطراف والناس يتبع بعضهم بعضا كأنهم يساقون الى المحشر الى غير ذلك مما يقتضى التعريف به أن نظهر الحقيقة فوق الاغراق والغلوّ فى المبالغة ولكنى لا يصح لى أن أعتذر بتعذر الاحاطة بأطراف هذا الموضوع عن كتابة ماشعر به الوجدان وتأثر به الجنان وانى أحاول ذكر قليل مما تيسر لى الوقوف عليه من الاجماليات ومن أمورشتى ومنشورات متنوّعة تصور للقارئ بعضا من كل من جسامة هذه المدينة العظيمة واتساع نطاقها وامتداد أعمالها وكيفية الحركة فيها

وابورات لوندرة

فأوّل شئ يؤثر على عقل القادم اليها مايراه فيها من حركة الوابورات وسرعة مسيرها وكثرة عددها وتنوّع اتجاهاتها واختلاف

Digitized by Google

أوضاعها فى الارتفاع والانخفاض حتى يكاد يعتريه دوار فى الرأس يشبه دوخة البحر ويداخله خوف شديد من امكان حصول الاصطدام فى كل لحظة أو خروج القطار عن الشريط فى كل خطوة حتى اذا وصل المحطة زادت الدهشة مما يراه فيها من الاتساع وكثرة الارصفة وجسامة المبانى وتعدد صنوف المخلوقات وتناهى صفوف العربات مما يضيع اللب ويذهب بالرشاد ثم متى دخل فى شوارعها وسار فى طرقاتها ومسالكها بهت وبلغ الاضطراب منه منتهاه

ومهما وصفت ومهما شرحت ومهما بالغت فانى لا أبلغ عشر معشار الحقيقة ولذلك رأيت ان الطريقة المثلى هى أن أكتفى الآن بذكر بعض أمور متفرقة تجعل للقارئ فكرة صغيرة من عظمة هذه المدينة الكبيرة

فوائد الشركات

ولكنى أقول قبل ذلك ان الشركات والجمعيات وما بينها من المزاحمة الممدوحة والمناظرة المحمودة هى روح هذه الحركة وأس هذا الارتقاء فمهما نظر الانسان الى أى عمل من الاعمال رآه فى يد شركة من الشركات وليس للحكومة دخل فى شئ ماسوى المراقبة العالية التى تجعل الجمهور فى أمان من اغتيال هذه الشركات وفيما عدا ذلك فان الامة قائمة بنفسها مكتفة فى طلب

Digitized by Google

المكاسب والمعالى بما يفيدها ويرفع شأن دولتها من غير أن تتنازل وتمد يدها لامداد الحكومة ماديا أو معونتها معنويا حتى ان الانسان ليتساءل بعد ما يراه من تنوع الشركات وتناولها كل شأن من شؤن العقليات والمحسوسات كيف ان مثل البوستة والتلغراف والكمرك والدخوانية والبوليس والجيش ليس فى يد الشركات نعم فقد كانت البوستة والتلغراف خاضعين لهذا القانون العام فى هذه البلاد بلاد التعاضد على الاعمال والتباعد عن الخمول والاهمال ومعرفة ثمرات الاجتهاد والاتحاد والاقتدار على انماء المال ولقد كان فتح الهند كما لا يخفى واضافتها للدولة الانكليزية على يد شركة تجارية

باجتهاد الافراد نجاح المجموع

وذلك لان أفراد الامة البريطانية يرون أنهم لم يخلقوا الا للعمل والاكتساب ولقد بلغت محبة الاستقلال فيهم مبلغا لا يكاد يتصوره العقل حتى ان بعض البنات فى العائلات الكبيرة تذهب للرسم والتصوير أو التطريز والتدبيج أو التعليم والتدريس لتكتسب بنفسها ولا تكون كلا على عواتق أهلها مع ما هم فيه من الثروة والرفاهية ومنهن من يؤثرن التغرب فى بلاد الهند واستراليا وكندا بصفة وصائف أولى من البقاء فى منازلهن خاليات من العمل منغمسات فى البطالة والكسل وذلك شأن الشبان

Digitized by Google

أيضا حتى لقد جاء فى أمثالهم أنه (لاشئ يفلح مثل الفلاح) وذلك يشبه المثل الفرنساوى (الغاية تبرر الواسطة) وهم يعتبرون الفقر عيبا بخلاف سائر الامم ولذلك يشتغلون كلهم مثل النحل ولو كان الرجل منهم ابن غنى ذلك القناطير المقنطرة فلا بد له من التكسب بعرق جبينه

استئثار الانكليز فى كل شئ

وحبهم لوطنهم ولانفسهم ولابناء جنسهم أمر لايكيف مثال ذلك أن الرجل منهم اذا كان يعرف لغة غير لغته الاصلية فلا يتكلم بها الا عند الضرورة القصوى واذا رأى منك أنك تعرف من الانكليزية مباديها أخذ يخاطبك بها و يجتهد فى منعك من مكالمته باللغة المشتركة بينك و بينه لانها غير انكليزية وكذلك السكة فلا يتعاملون بغير العملة الاهلية مطلقا ومثلها المقاييس والمكاييل والاوزان ومع ان العقلاء منهم يعترفون بأفضلية الطريقة الاعشارية لكنهم لايزالون متمسكين بطرائقهم المتعددة المتخالفة التى ليست على أساس ثابت ومثال ذلك أنك اذا توجهت لاى مخزن وطلبت صنفا أو محصولا مما اشتهرت بعض البلاد الاجنبية بصناعته واتقانه فان رب الحانوت يجيبك بأنه موجود عنده ولكنه ينصحك نصحا مكررا بأخذ الصنف الانكليزى قائلا لك انه أجود وأفضل من جميع الوجوه

Digitized by Google

تصور الوطنية الحقة باوروبا

وهذا الموضوع يجرنى الى الاستطراد بذكر كلمة واحدة على الوطنيــة فى بـلاد أوروبا التى أتيح لى زيارتها الى الآن وهى ايطاليا وفرنسا وانكلترا فهى التى جعلت هذه البلاد ذات سطوة عظيمة وبأس شـديد فانهم ينظرون الى من يخدم الوطن باعتبار أعماله العمومية المفيدة للبلاد ويجلّون ذكره على الدوام من غـير أن ينظروا مطلقا الى أعماله الشخصية وأموره الداخليـة ومهما كان فيهـا من موجبات الانتقـاد فان ذلك لايمنعهم من اعتبـاره واحترامه ورفع صيته الى أعلى عليين ألا ترى ان (غاريبالدى) الذى يهتز لاسمه قلب كل وطنى طليانى قد خدم الدولة الطليانية وأوجد وحدتها فأحله أهـل بلاده المحل الاول من الاعزاز والاعظام ولم يلتفتوا الى ماتناقله بعضهم عنه من الاعمال المنكرة التى ارتكبتها زوجته الفتاة وقد اتخذها بعد ان صار طاعنا فى السن ومثال ذلك غامبتا رجل الجمهورية الفرنسوية فان قصته مع عشيقته معروفة وهى التى أطلقت عليه الرصاص فنقلته الى غير هذه الدار ومع ذلك فهو موضوع الاعجاب عند الفرنساوية يلهجون بذكـره ويتمدحون بمآثره ويحتجون بأقواله ويستشهدون بأعمـاله وقد أقاموا له فى أعظم نقطة من باريس حيث كان قصر الامبراطور جهـة ميـدان الكاروسـل تمثالا فخيما رفيعا اكتتب الاهلون

لاقامته على أفخر مثال وهم يأتون لزيارته من كل انحاء فرنسا يضعون عليه الاكاليل والتيجان

وأما لوندره ففيها تمثال أمير البحر (الاميرال نلسن) الذى كسر الدوننمة الفرنساوية وتعقبها فى كل البحار وفاز بالانتصار فى وقائعه وخصوصا فى الجهة من الاندلس المعروفة فى كتب العرب باسم طَرَف الاغر (التى حرفها الافرنج الى ترافلجار Trafalgar وقد خبط أصحابنا المترجمون فى نقلها الى العربية فقالوا ترفلجار أو طرف الغار) فقد أقاموا تمثالا فاخرا على عمود شامخ يشرف على كل مبانى لوندره ونظروا الى ما اكتسبه منه الوطن ولم يلتفتوا بأى وجه الى علاقاته السرية مع امرأة أخرى (كان لها بعل فيما بلغنى) حتى انه حينما أدركته الوفاة أثناء الواقعة البحرية فى طَرَف الاغر كان أول شئ اهتم به هو السؤال عن نتيجة القتال فلما بلغه ان النصر لدولته سكر بخمرة الفوز وهو فى سكرات الموت ولم يلتفت بعد ذلك لشئ سوى انه أوصى باعطاء سيفه ووشاحاته الى خليلته

ولقد يذكرنى ذلك بالملكة كاترينة امبراطورة الروسيا فان التاريخ ينبئنا بأنها كان لها محبون معلومون ولهم مرتبات وعلوفات رسمية بهذه الصفة فى ميزانية الحكومة حتى انها لبست

Digitized by Google

الحداد رسميا بعد وفاة أحبهم اليها مدة سنتين ومع ذلك فلا يزال الروس يفتخرون بها ويمجدون ذكرها لان دولتهم فى أيامها وباجتهادها بلغت من التقدم وعلو المكانة ماجعل لها جانبا مهيبا فى أعين الدول الاخرى

فهكذا يكون حب الوطن وهكذا يكون السعى فى تشجيع الفضلاء على خدمته فان النظر الى السفاسف وتعقب الهفوات التى لايترتب عليها ضرر للامة والوطن لايكون من ورائه الا إهباط العزائم وتثبيط الهمم فتخمد القرائح النيرة وتنطفى الافكار الوقادة ويقعد المجتهدون وأصحاب الامانى عن الكد وراء المعالى ولايصيب الوطن من ذلك الاخسران رجال ربما كان له من وراء أعمالهم فائدة جليلة

ولقد ساقنى الكلام على وطنية الانكليز الى هذا الاستطراد فأسأل القراء عفوا لانى أرى نفسى وجوارحى وقلبى وفكرى تندفع بالرغم عنى الى ذكر شئ من هذا القبيل عسى أن يكون له صدى فى بلادنا فيكون من ورائه النفع العميم

احصائيات ناطقة بحسامة لوندرة

وأرجع الآن الى الكلام على لوندرة التى يتعسر على الانسان أن يقول أين مبدؤها وأين منتهاها ومن المحتمل انه لم يتفق لأحد أنه رآها كلها وان ذلك لن يتفق فى الاستقبال لما يستوجبه

المشروع من الصعوبة والاتعاب والحيرة والاضطراب فان مسطحها ٣٥٠ كيلومترا مربعا من غير ضواحيها وارباضها وقدروا أطول دائرتها ٩٠ كيلومترا وان طولها من الشرق الى الغرب ٣٥ كيلوا مترا ومن الشمال الى الجنوب ٢١ كيلومترا وطول طرقها ١٥٠٠ ميل وطول بالوعاتها ومصارفها ٢٠٠٠ ميل وكان عدد سكانها فى أول هذا القرن أى سنة ١٨٠١ عبارة عن ٨٦٤٠٣٣ نفسا وفى سنة ١٨٢١ صاروا ١٢٢٧٥٩٠ ولما جاءت سنة ١٨٧١ بلغوا ٣٢٥٤٢٦٠ يسكنون فى ٤١٧٧٦٧ دارا وفى سنة ١٨٨١ أثبت الاحصاء الرسمى أنهم ٣٨١٤٥٧٠ بما فى ذلك الضواحى المتصلة بها تمام الاتصال ويتضح من التقرير الابتدائى عن حركة السكان فى سنة ١٨٩١ ان عددهم فى شهر ابريل من تلك السنة كان ٥٦٣٣٣٣٢ وعدد المنازل ٧٩٧٦٧٩ وعدد الاغراب المتوطنين بها ١٥٠٠٠٠ ولها وحدها فى مجلس البرلمان ٥٨ عضوا ينوبون عنها

وسائط النقل

ولكنك اذا نظرت الى ذلك الاتساع الهائل وتلك المسافات المتباعدة الشاسعة تراها معدومة وكأنها لم تكن فان المدينة قريبة الاطراف لسهولة التنقل وكثرة الوسائط من كل نوع ففيها أكثر من ١٥٠٠٠ عربة بعجلتين وحصان واحد والسائق من

خلف (واسمها هنسم وهى مثـل عربات الاوتيل كونتيننتال فى القـاهرة) أو باربـع عجـلات وحصانين لركوب هـذه الخـلائق المتزاحمـة أما عربات الامنيبوس فلا تقـل عن ٢٥٠٠ عربة تسـير فى ٢٠٠ خط متمايزة عـن بعضها وقد انشأتها شركات متعددة وقد بلغ عدد الركاب فى عربات احدى هـذه الشركات (وقدرها ٨٦٠ عربة) ٦٠ مليونا من النفوس فى سنة ١٨٨٢ وفى كل عربة منها ٢٦ مقعدا ١٢ فى الداخـل و ١٤ على ظهـرها وفى أكثرها زيادة على ذلك مكانان بجانب السائق وفى ضواحى المـدينة وبعض جهاتها عربات الترامواى التى تجـرها الخيل على قضبان حديدية وهى لاربـع شركات ولايمكن ادخالها فى المـدينة لكثرة الازدحام فان المقرران عربتـين تسـيران الى الامام وعربتين الى الخلف وقلما تكون جهة من الشارع خالية من الاربـع عربات

وقد أحدثت سكة حديد العاصمة (التى تسير تحت الارض) عربات الامنيبوس توصـل بين المحاط و بعضها وتتميز عن عربات الامنيبوس الاخرى بان السـائق تكون فوق رأسه مظلة كبيرة عليهـا اسم الشركة ويجوز لكل انسان صادفها فى طريقـه ان يركب فيها

Digitized by Google

وفيها أيضا عربات تسمى (ماى كونش) تسير بالسواحين والمتفرجين الى بعض مدائن النزهة القريبة

وفيها شركة تتكلف بحمل الامتعة والرزم والطرود التى لايتجاوز وزنها ١٠٠ رطل الى أية جهة من جهات لوندره وضواحيها ولها أكثر من ١٢٠٠ مكتب فرعى متوزعة فى كل انحاء المدينة وثمن النقل زهيد جدا وقد تأسست شركة أخرى لنقل البالات مثل بالات الاقطان والبراميل بانواعها والبضائع الكبيرة الجسم وأهم هذه الشركات فيها ٧٠٠٠ مستخدم و ١٠٠٠٠ حصان وهنا أقول ان سائقى العربات فى لوندره يفوقون فى صناعتهم جميع أمثالهم فى سائر أنحاء الارض

وهنالك أيضا شركة خيرية تألفت لمساعدة العساكر البرية والبحرية الذين قضوا مدة الخدمة فانها تكلفهم وتقوم باحتياجاتهم وتستخدمهم فى نقل الرزم والطرود الصغيرة باجرة لاتتجاوز ١٥ مليما بحسب بعد المسافة وثقل الحمل

ويوجد بها شركات لها زوارق بخارية كثيرة العدد تجرى فى نهر التيمس على الدوام لنقل هذه الجماهير المجمهرة من مكان الى مكان وهى فى البحر بمثابة عربات الامنيبوس فى البر ويجوز للراكب فيها ان ينتقل من الواحد للآخر بحسب الجهة التى

Digitized by Google

يقصدها من غير زيادة فى الاجرة وهى لاتتجاوز ١٥ مليما وتقوم المركب كل خمس دقائق ويوجد شركات أخرى لها بواخر تسير بين لونده والجهات التى على نهر التيمس وتقوم كل ربع ساعة وكل نصف ساعة (ماعدا أيام الشتاء) وفوق ذلك على النهر مراكب كثيرة بالقلوع والمقاذيف يؤجرها الناس للفسحة على الماء أو للتنقل من جهة الى أخرى ويوجد مراكب بحارية انشأتها بعض الشركات للسفر من لونده الى جميع موانى انكلترا واسكتلندة وارلندة بل ولفرنسا والجهات الاخرى من قارة أوروبا هذا بصرف النظر عن المراكب البحارية التجارية الكبيرة التى تمخر فى جميع البحار

وفى لوندرة أكثر من ٥٦٨ محطة للسكة الحديدية أقل واحدة منها (حتى التى تحت الارض) أكثر من محطة مصر القاهرة الحالية اتساعا وحركة وعملا ومنها مايساوى محطة مصر والاسكندرية وطنطا ثلاث مرات فى ثلاث مرات وقد يمر فى بعضها (مثل محطة كلابهام) أكثر من ١٤٠٠ قطار من غير احتساب قطارات البضاعة (وأنت ترى من هذا كم ينبغى أن يكون مقدارها فى بلدة تجارية صناعية مثل لونده)

وفى سنة ١٨٨١ نقلت سكة حديد العاصمة وكلها تحت

Digitized by Google

الارض ١١٠ مليون من الركاب بالتمام وقد ازداد هـذا العدد الآن زيادة كلية

وصف القطارات بلوندرة

ثم ان القطارات كثيرة جدا وسريعة للغاية والعربات مفروشة بكل عناية واتقان حتى ان عربات الدرجة الثالثـة هى أحسن بكثير من عربات الدرجة الثانية عندنا ولا يمكن ان يمر على الانسان لحظـة واحدة وهو فى القطر من غـير أن يرى قطرين أو ثلاثة تحت اقدامه ومثلها بجانبـه ومثلها فوقه بقليـل ومثلها يجرى على القناطر والجسور ومثلها بحـذائه ذات اليمـين ومثلها الى جانب اليسار وهكذا مما يحدث الخبال وذلك كله نتيجة المزاحمة وثمرة المناظرة فان الذى يريد أن يتوجـه من لوندرة الى مانشستر مثلا يجد أمامه خمسـة طرق مختلفة فى يد شركات مختلفة وكل واحدة منها تجتهد فى ان تضمن للمسافر من المزايا والفوائد والتسهيلات ما يجعـله يقبـل عليها دون سواها حتى ان الطوالات الخشب المستعملة فى الدرجة الثالثة أصبحت لا وجود لها بالكلية وقد تكون عربات الدرجـة الثالثـة فى قطرات الاكسبريس كما ان بعض القطرات لا توجد فيها إلا الثانية وفى بعضها (وهى السريعة) لا ترى الا الاولى

ولا يمكن أن يمضى على الانسان اذا وقف فى مكانه ثـلاث

Digitized by Google

دقائق من غير أن يمر عليه مايريده من عربات الامنيبوس أو القطرات أوالزوارق البخارية أوغير ذلك فأصبحت المسافة فى هذا البلد الطويل العريض معدومة والابعاد متقاربة لسرعة وسائط النقل وكثرتها وسهولتها وتيسرها

وخلاصة القول ان تعدد الشركات ومنافستها لبعضها التنافس الممدوح يجعل الانسان مهما قلب ناظره فى أية جهة من جهات المدينة على وجه الارض أو تحت الارض أو فى الجو فوق أسطحة المنازل يرى عددا هائلا من القطرات البخارية منها مايرفع عقيرته الى عنان السماء ومنها مايكتم نَفَسه فى جوف الارض ويكتفى بالانين

تشخيص حركة لوندرة

ومن تأمل فى حركة هذه القطرات التى لاينقطع دويها كلها مركبة من ٢٠ أو ٣٠ عربة كبيرة وكلها مشحونة ببنى آدم ثم نظر الى الزوارق البخارية والى سواريها التى تجعل النهر كغابة بالغة فى الاتساع ثم نظر الى عربات الامنيبوس وهى تجد فى السير وليس بها مقعد خال ثم نظر الى حركة الشوارع ومافيها من المركبات المختلفة المقادير والاحجام والاشكال والانواع وكلها غاصة بالناس وبالبضائع ثم نظر الى جانبى الطريق ورأى الاقوام تمور وتموج كالسيل المنهمر الذى لايصده عائق فلا

شك أن يعتريه اضطراب واندهاش وتأخذه الحيرة والاختبال ويحكم بان هذه المدينة كقرية النمل وليس لها من هذا القبيل نظير فى العالم بأسره على الاطلاق والذى يزيد فى الاعجاب والاستغراب انه لايسمع صوتا ولاصياحا ولاضجة ولااعتراكا بنسبة جزء من ألف جزء من هذه الحركة بل كل انسان صامت أوهامس مقبل على شؤنه مكد فى الذهاب الى مقصده وكل شئ يجرى فيها كالساعة المنتظمة ذات الآلات الكثيرة والغايات المتنوعة حتى ان الغريب ليحكم بانه بين قوم لايسمعون ولا يتكلمون

سكة حديد العاصمه

ولا أنتقل من هذا الموضوع قبل أن أذكر شيأ يسيرا عن سكة حديد العاصمة فانها عبارة عن طريقين أولهما يدور حول الستى City (أعنى المدينة مثل السكرية والغورية وما حواليهما من الجهات فانها معروفة فى مصر القاهرة باسم المدينة أيضا) والثانى حول البلد كلها وهما متصلان ببعضهما فى كثير من النقط وقد بلغت نفقات الميل الواحد فيما بلغنى ثلاثة ملايين من الجنيهات لان الشركة التزمت بدفع قيمة الاراضى والمنازل وحفر الارض وبنيان القباب والعقود وغير ذلك مما يوجب صرف المبالغ الجسيمة وبما ان القطرات فى هذه الطرق تسير تحت الارض الا عند دخولها فى المحاط (فانها كلها مكشوفة الى السماء)

فقد رأى مهندسوا الشركة أن يصنعوا الآلات البخارية محتوية على مزيتين مفيدتين جدا لمقتضى الحال فأولاهما ان الآلة مجهزة بحيث أنها تحرق الدخان المتصاعد منها فلا يكون له أدنى تأثير وثانيتهما انها تصطنع من الفحم الذى تحرقه زيت الحجر (الغاز أو البترول) اللازم لاضاءة كافة العربات على الدوام والاستمرار

ثم ان القطار يدخل المحطة وهو فى منتهى السرعة ويقف مرة واحدة فيحصل ارتجاج خفيف جدا لا يكاد يشعر به الانسان والسبب فى ذلك انهم وضعوا فى ثلاث جهات من الرصيف ثلاثة ألواح كبيرة لتوفير الوقت ومكتوب عليها ما معناه (انتظر هنا للدرجة الاولى أو الثانية أو الثالثة) فيقف ركاب الدرجة الاولى فى المكان المعين وركاب الدرجة الثانية فى المحل المخصص لهم ومثلهما أصحاب الدرجة الثالثة ثم ان العربات فى القطر مرتبة وراء بعضها بحسب الترتيب المعين فى رصيف المحطة فمتى جاء الوابور وقف فى المكان المناسب فلا يكون على المسافرين الآن يدخلوا العربات من غير تعب ولا سؤال بل بتحريك القدم خطوة أو خطوتين بالاكثر وذلك لمنع الاختلاط فان القطار لا يقف أكثر من بعض ثوان وتجد على باب العربات من الداخل عبارة هذه

Digitized by Google

ترجمتها (انتظروا حتى يقف القطر) ولكنى أرى من الواجب على المسافر ان يشرع فى النزول بمجرد وقوف القطر لان أقل تأخير يترتب عليه ان يساق الى المحطة الثانية ثم يرجع مع قطر آخر الى المحطة المقصودة من غير أن يلتزم بدفع أجرة تكميلية بشرط أن لايظهر على وجه الارض بل يستمر على رصيف المحطة وهذا أمر ينبغى تنبه الغريب اليه فان كثرة الاعلانات فى المحطة تمنعه ولاشك من أن يعرف اسمها فالاجدر به والحالة هذه أن يسأل قبل النزول فى القطر عن عدد المحاط التى سيكون الوقوف فيها قبل الوصول الى المحطة اللازمة أو أن يجتهد فى قراءة اسم المحطة على فوانيسها وذلك الانتظار فانهما المحلان الوحيدان الباقيان للآن فى حرز وأمان من هجمات أصحاب الاعلان

وكل انسان يركب فى القطر يجوز له أن يؤمن على حياته ونفسه من العوارض والاخطار التى ربما تطرأ فى أثناء السفر ففى حالة الوفاة تدفع الشركة ألف جنيه انكليزى لورثة المسافر فى الدرجة الاولى الذى يكون قد أمن على حياته بدفع مبلغ يوازى ١٢ مليما زيادة على ثمن التذكرة وتدفع مبلغ ٣٠٠ جنيه لورثة المسافر فى الدرجة الثانية الذى يدفع ٨ مليمات زيادة على ثمن التذكرة ومبلغ ٢٠٠ جنيه للمسافر فى الدرجة الثالثة الذى يدفع ٤

Digitized by Google

مليمات زيادة على ثمن التـذكرة فاذا كان العارض غـير الوفاة التزمت الشركة بالتعويض بمبلغ نسـبي بحسب شـدة العارض وخفته وفى هـذا المقام أذكر مارواه بعضهم من أن رجـلا من الانكليز كان يركب على الدوام فى الدرجة الاولى ولا ينسى مطلقا التأمين على حياته وفى كل مرة وصل المحطة بالسـلامة أخذ فى اللعن والشتيمة والسباب لعـدم وقوع ما كان ينتظره لعائلته من الثروة واليسار وحقيقة فان الاخطار قليلة بل نادرة بل لاتكاد تذكر وقد كان انشاء هـذا الخط فى سـنة ١٨٦١ وله أكثر من ٣٠ محطة وقد يمتد الى بعض ضواحى لوندره (ويكون حينئذ على وجه الارض) وقد يسـير تحت نهر التيمس فى انبوبة من الحديد وفى كل خمس دقائق يقوم قطار وذلك من الساعـة ستة صـباحا الى نصف الليل (ولكن القطر يقوم قبل الساعة ٨ صباحا وبعد الساعة ٨ مساء فى كل ربع ساعة وثمن التذاكر طفيف جدا فلا يزيد على خمسة قروش صاغ)

وأقول بهذه المناسبة ان تسجيل المتاع ليس من أصول السكة الحديدية فى بلاد الانكليز على العموم (لا كما فى ايطاليا اواه منها اواه) بل ان المستخدمين يستغربون من الذى يطلب ذلك منهم لان القاعـدة العامة (وقد يكون لها استثناء لاأعرفه الآن) ان

Digitized by Google

الانسان يكتب اسمه واسم المحطة على متاعه ثم يباشر وضعه على عربة صغيرة فى الرصيف ثم فى العربة المعروفة (باسم عربة العفش) ومتى وصل الى المحطة نزل وتوجه الى المستخدم وأعلمه عن متاعه فيسلمه فى الحال من غير أدنى تعب ولا اختلاط ونزاع أو عطل أو مماطلة

وعندى كلام كثير على السكك الحديدية وكثرتها وتقدمها فى بلاد الانكليز ولكن لايسمح لى المقام بايراده الآن وانما لايسعنى ان أخفى اعجابى بها من كل الوجوه حتى ان الانسان لايتصور كيف أنها لاتنقل هذه البلاد وخصوصا لوندره الى اية جهة من أقطار المعمورة

شركات الاستدعاء بالكهرباء

ومن أغرب الشركات التى فى هذه المدينة شركتان ليس لهما من عمل سوى الاستدعاء بالكهرباء وذلك ان لكل منهما مشتركين فى جميع جهات المدينة وكافة انحائها ومنازلهم متصلة بسلك كهربائى بالمكتب الموجودة فى دائرته ويكون فى المنزل شبه مزولة عليها ازرار الاول للساعى والثانى للطبيب والثالث للعربة والرابع للاستغاثة من الحريق والخامس للاستغاثة بالبوليس فاذا ضغط المشترك على أحد هذه الازرار عرفت الشركة مطلوبه فتبعث له فى الحال ساعيا أو طبيبا (واذا كان له طبيب مخصوص يكون

Digitized by Google

عنوانه معلوما عندها فتخبره بالطلب) أوعربة للركوب أو طلمبات الحريق أو رجالا بواسطة ادارة البوليس لامداده بالقوة اللازمة وهاتان الشركتان مستعدتان أيضا لخدمة غير المشتركين بهما فيجوز لهم ارسال طرودهم وأمتعتهم بواسطة سعاتها فى نظير أجرة لاتزيد عن ١٢ مليما فى الساعة وفوائد هذه الشركات ظاهرة خصوصا فى المدن الكبيرة

شركة حماية الحيوانات

وهذا الحديث على الشركات يسوقنى الى ذكر شئ وجيز عن شركة حماية الحيوانات وان كان اسمها معروفا فى مصر فانها من أغرب الشركات وأفيدها وهذه الشركة تحت حماية البرنس دوغال ولى العهد وقد كان لها تأثير عظيم فى هذه البلاد بحيث انك لاترى القوم حتى الذين من الطبقة الدنيئة يتجاسرون بأى حال ولاى سبب على اهانة الحيوان الاعجم واساءته ولها عمال كثيرون ومن أعضائها جم غفير من أصحاب الوجاهة والنفوذ وكل من أقدم على هذا العمل المنكر حكم عليه بالاشغال الشاقة من ستة شهور الى سنة كاملة وكثيرا ماركبت فى عربات متعددة ولا أتذكر أن السائق رفع السوط على الحصان أكثر من مرتين بكل خفة وكثيرا ماقطعت المسافات الطويلة من غير أن يلمس السوط جسد الحصان على الاطلاق ومثل هذه الشركة لازوم

لها فى بلادنا اذا راعينا الاحكام الشرعية المفروضة كما هو الواجب علينا

شركات قاعات المطالعة والكتبخانات

وقد رأيت فى البلاد الافرنكية التى مررت بها قاعات المطالعة ولكنها فى لوندره قليلة وليس للحكومة يد فيها البتة بل قد أنشأتها شركات تجارية متنوعة أو خاصة بطبع الكتب ونشرها وقد أسست بعض الشركات كتبخانات ترسل الكتب اللازمة الى منازل المشتركين فلا تكلفهم التوجه الى مركزها لانتقاء الكتب التى يرغبون مطالعتها فى منازلهم وقيمة الاشتراك من جنيه واحد الى خمسة الى ستة فى السنة

شركات التوريد

وفى هذه المدينة غير ذلك من الشركات التى لا تدخل تحت حصر ولو أردت أن أذكر كلمة على كل واحدة أو أكتفى بمجرد الاشارة الى اسمها لاتسع المجال بما يوجب الملال مهما كان اصطبار القارئ ومجاملته للكاتب ولكنى أقول انى رأيت فيها كثيرا من شركات التوريد التى تتعهد للمشترك بجميع مايطلبه من الاصناف والمحصولات اللازمة له ولعائلته ولمنزله بابخس الاثمان ومن أجود الاصناف

النوادى وغرابة تنوعها

ثم أنتقل الى الكلام على النوادى (المعروفة بالكلوب) فانها كثيرة جدا وأهمها نحو المائة وكلها فى قصور فخيمة شامخة

باذخة بالغة النهاية فى الزخرفة والاتساع والاتقان والاحتواء على كل مايطلبه الانسان من مأكول ومشروب وجرائد وكتب وغير ذلك مما يلزم للفكاهة وتمضية الوقت فى نعيم وسرور وكل شئ فيها من أجود نوعه وبثمن المقطوعية (الذى يساويه فقط) وهى معدة لاجتماع الاصحاب والاصدقاء الذين من صنف واحد وأذواق متشابهة وعددها بالنسبة الى لوندرة أكثر منه فى أية عاصمة أخرى من عواصم أوروبا ولا يقبل العضو فيها الا بعد اقتراع سرى دقيق جدا ورسم الدخول من خمسة جنيهات الى أربعين (والغالب ٢٥) والرسوم السنوية من ثلاث جنيهات الى خمسة عشر هذا عدا ثمن المأكولات والمشروبات وفى بعضها يجوز للعضو أن يستضيف بعض خلانه ومنها ماهو للرجال والنساء ومنها ماهو للنساء خاصة أو للعلماء أو لحزب المحافظين أو لحزب الاحرار أو للهند الشرقية أو للضباط البرية والبحرية العاملين أو للضباط المتقاعدين أو للمستعمرات أو لتحسين نوع الكلاب أو لمدرسة اكسفورد الجامعة أو لمدرسة كمبريدج الجامعة (ولا يقبل فيهما الا المتخرج منهما) أو لالعاب الكرة أو لرجال السياسة أو للسياحة (ولا يدخل فيها الا من ساح الى مسافة ٥٠٠ ميل عن لوندره) أو الرجال لآداب ومن أغرب نواديها ذلك المعروف

باسم النادى المتوحش وفيه كثير من أرباب الجرائد والآداب والفنون والتشخيص ومن أعضائه البرنس دوغال ورسم الدخول فيه ٨ جنيهات والرسوم السنوية ثلاثة جنيهات ولأغلب المدارس نوادى خاصة بتلامذتها الحاليين والسابقين وقد يزيد أعضاء بعض النوادى عن ٧٠٠٠

وكل جمعية وكل شركة وكل ناد يولم فى السنة وليمة فاخرة وأهم هذه الولائم وليمة جمعية التصوير ويجتمع فيها أكابر أرباب العلم والسياسة والرياسة والجيش والبحرية وأعضاء البرلمان والاساقفة والافوكاتية والبرنس دوغال واخوته وكل من اشتهر فى فن أو عمل وقيمة النفقات فى هذه الوليمة تبلغ من ٤ جنيهات الى ٨ جنيهات عن كل واحد من المدعوين

مطاعم لوندرة

وفى هذه المدينة أكثر من سبعة آلاف مطعم (لوكاندة) والخدمة فيها كلها منتظمة جدا ولو ان أماكنها فى الغالب ليست بالغة فى الزخرفة مثل نظائرها فى أوروبا وكثير من هذه المطاعم على مذهب الهنود فلا تجد فيها سوى الخضارات وماتنبته الارض وأما اللحوم فلا توجد فيها البتة لانها محرمة

وفيها نحو ألف قهوة وكلها على الطرز الانكليزى أى ان الانسان يمكنه أن يتناول الطعام فيها بثمن بخس ولكنه اذا طلب

Digitized by Google

شيأ من المشروب وجب عليه دفع الثمن مقدما للخادم لكى يستحضره له من الخارج (وكذلك الحال فى بعض الفنادق وفى كثير من المطاعم) لان هذه الاماكن ليس لها رخصة فى بيع المشروبات ثم ان القهوة عبارة عن قاعة ضيقة تنقسم الى طوالات من الخشب منفصلة عن بعضها تمام الانفصال ومثبتة فى الحائط والارض مثل عربات الدرجة الثانية فى السكة الحديدية فيأكل الانسان فيها وهو بمعزل عن جاره وفيها تجد دواما القهوة والشاى والشكولاته والكاكاو والبيض والجبن

أماكن الاجتماع العموميه

أما القهاوى الكبيرة التى من جهة المدينة (السيتى) فهى أشبه ببورص يجتمع فيها التجار والنواخذة (مجهز والسفن Armateurs) وأصحاب الضمان من الحريق والغرق وسائر الطوارق والعوارض والسماسرة وأمثالهم فيتعاقدون فيها ويتبايعون

وفيها بعض محلات يسمونها دواوين السجاير تشبه القهاوى التى فى أوروبا ويكون بعضها عبارة عن قاعة كبيرة فيها نجف وثريات وألواح فيها صور ورسوم وعند الدخول يدفع الانسان شلنا واحدا (٥ صاغ) ويكون له حق فى سجارة أفرنكية وفنجان قهوة وقراءة أهم الجرائد المطبوعة فى انكلتره وفى أوروبا وقد أنشأ

Digitized by Google

بعض الفرنساويين والطليانيين قهاوى على الطراز الاوروباوى (المتعارف فى مصر) ولكن هذين الصنفين من الاماكن العمومية لايجوز لهما بل ولايمكنهما وضع الموائد أو الكراسى على برازيق الطريق ❊ البرزوق فى اللغة العربية يقابل كلمة التروتوار الفرنساوية Trottoir الشائعة الآن راجع شرح القاموس ولسان العرب فى ترجمة ب رزق تجد ان معناه القسم من الطريق العام المخصص على جانبيه للسائرين على الاقدام وأما كلمة افريز التى استعملت تحاشيا من كلمة تروتوار (أوتل توار بحسب نطق العوام) فهى فى غير موضعها لانها فارسية معربة ومعناها فى كتب اللغة الجزء البارز من أطراف أعالى البناء فيقابلها لفظ كرنيش المعرب عن الفرنساوية ❊ ومتى سار الانسان على برازيق الطريق رأى فيما بين الحوانيت كثيرا من مخازن الدخان فانها فى لوندرة فوق العدد والاحصاء

الحمامات — وقد رأيت كثيرا من الحمامات فيها الماء الملح الاجاج أم العذب الفرات باردا أو مسخنا على درجات مختلفة وفيها حمامات على الطرز التركى المتعارف فى مصر وقد صار للانكليز الآن بها ولع وغرام وان لم يكن القائمون بالخدمة فيها على شئ من مهارة أهل

Digitized by Google

بلادنا وفى بعض الحمامات لاتزيد الاجرة عن ١٢ مليما ومع ذلك فان الشركات القائمة بادارتها تربح ارباحا وافرة

التياترات والملاهى

وفيها تياترات كثيرة واشهرها ثلاثة وثلاثون وفيها عدد عظيم من الملاهى وقهاوى الغناء والموسيقى وأماكن عرض الصور والبهلوان وغير ذلك مما يكون فيه تشخيص الروايات أيضا

جرائدها ودياناتها

وفيها وحدها أكثر من ٤٠٠ جريدة منها ٥٠ للديانة على سائر مذاهبها فان الشيع الدينية فى بلاد انكلترة كثيرة متنوعة جدا وهم يحترمون كل الاديان وكافة الاعتقادات حتى انه يصح ان يقال ان كل انكليزى يعبد الله بحسب هواه وقد بلغ عدد الديانات والمذاهب فى بلادهم أكثر من ١٨٣ وكل واحدة من هذه الشيع تدعى بالطبع انها هى التى فازت باكتشاف الحقيقة وهى تتناظر مثل مناظرة الشركات التجارية ومع ذلك ففى كل يوم تظهر شيعة جديدة وأبغض المذاهب الى هذه الأمة هو المذهب الكاثوليكى الرسولى الرومانى ويكرهون البابا كراهة التحريم وهذا التعصب المطلق بجانب ذلك التساهل المطلق هو أيضا من باب التناقض المطلق

الكويكرز

وافكارهم واعتقاداتهم وآراؤهم ومقالاتهم فى نهاية الغرابة ولايسمح لى المقام الآن ببيان شئ منها ومع ذلك أقول ان منهم طائفة تسمى الكويكرز (Quakers) لايركعون الا لله العلى المتعالى ولا يرفعون قبعتهم لاحد ما (كما هى عادة الافرنج)

Digitized by Google

ويخاطبون الناس قاطبة بالكاف (أى لا يعظمون المفرد باستعمال الجمع كما هى العادة فى أوروبا فلا يقولون حضرتكم أو أنتم أوما أشبه ذلك بل قلت لك انك فعلت كيت وكيت ... الخ وهذا النوع من التعبير يسمى عند (العرب المخاطبة بالكاف) وعند الفرنساويين (Tutoyer) ولا يحلفون أبدا حتى امام المحاكم ويمتنعون من الدخول فى سلك العسكرية لانهم يعتبرون الحرب محرمة وجناية حتى ان جون بريط السياسى الانكليزى المشهور استعفى من وزارة غلادستون فى سنة ١٨٨٢ بسبب الحرب التى وقعت بين انكلتره وأهل الثورة العرابية فى مصر ولهم غير ذلك من الاطوار والاخلاق

تبويذ الانكليز

وأما جيش السلام فلا أتكلم عليه الآن وانما أقول ان جماعة من البوذيين الوثنيين جاؤا الى لوندرة بقصد تبويذ الانكليز (اذا صح التعبير أى جعل الانكليز كلهم على مذهب بوذه) وبلغنى ان لهم هيكلا تقام فيه شعائرهم الدينية فى خط ويت شابل (White Chapel) المعمور بالوف من الخلائق وعلمت ان أعمالهم سائرة فى طريق التقدم وان بعضا من رجال البوليس الانكليزيين قد دخلوا فى زمرتهم

Digitized by Google

الاستراحة يوم الاحد بانكلترة

وبمناسبة الديانة والكلام عليها أقول الآن ان أمة الانكليز انفردت عن سائر سكان الارض بمراعاة الراحة المطلقة في يوم الاحد فهو عندهم يوم مقدس تنقطع فيه الاعمال مرة واحدة ويستعدون لذلك من ابتداء عصارى السبت فترى الخلائق تتناقص والازدحام يقل شيأ فشيأ والمخازن تغلق والنواقيس تدق ومتى جن الليل عادت الحركة الى منتهاها ورجع الاضطراب الى اقصاه لكن في الاسواق فقط اذ يتوجه القوم اليها من كل صوب لاخذ المؤنة والذخيرة اللازمة لذلك اليوم الذى يقف فيه دولاب الاعمال وينقطع الاخذ والعطاء والبيع والشراء حتى فيما يتعلق بالقوت اللازم لحياة النفوس ومتى أصبح الصباح رأيت المدينة قفرا بلقعا ليس فيها سوى القليل من رجال الشرطة وبعض نفر منثور في شوارعها واما المخازن والابواب والشبابيك وديار التحف والآثار والتياترات فكلها مغلقة والعربات بجميع أنواعها يقل وجودها بالكلية واما القهاوى واللوكاندات فتفتح في مواقيت الفراغ من الصلاة فقط أي من الساعة الاولى الى الساعة الثالثة بعد الظهر ومن الساعة السادسة بعده الى ماقبل نصف الليل بساعة ولكن الاغرب من ذلك كله ان البوستة مع أهميتها تعطل حركتها فلا تباشر أي عمل ما ولا توزع الخطابات الواردة اليها

ولاترسل المكاتيب الصادرة الى الخارج ومثلها التلغراف فان اسلاكه تستريح أيضا فى هذا اليوم يوم الراحة العامة إلا فى بعض المحطات الكبيرة جدا وكذلك الكمرك فانه يحجز البضائع وامتعة المسافرين الذين يقدمون الى هذه البلاد فى هذا اليوم المشؤم فانه حقيقة يوم الحسرة على الغريب يضطره للاعتكاف فى منزله وتضييع يوم من حياته بلا ثمرة ولاعمل والسكة الحديدية لاتمشى القطارات عليها اثناء القداس وفى غير هذا الوقت تقل حركتها الى الربع أو أقل وترى فى جداول مواقيت السفر خانة عمومية لايام الاسبوع وخانة خصوصية للقطارات القليلة التى تقوم فى يوم الاحد وتلك المحاط التى كانت بالامس عامرة آهلة بالخلائق تصبح وهى ساكنة مطمئنة ويكون منظرها مع عظمتها واتساعها مشوبا بشئ من الايحاش يجعلها أشبه بقبر هائل وخلاصة القول انالمدينة كلها ينقطع منها الحس وتبارحها الحياة فكأنها سراج قدخبا نوره فجأة ولايتصور المرء انه مازال فى تلك المدينة المتماوجة بهذه المخلوقات بل يخطر على باله انه دخل بلدا جاءها النذير بقرب جيش هاجم عليها فولى أهلها الادبار وتركوا الديار ومافى الديار ملتجئين الى الخلوات والقفار وابقوا بعضا من الرجال يراقب حركات العدو ويعلمهم باعماله حتى اذا أقبل المساء

Digitized by Google

ابتدأت الحياة تدب فى هذه الآلة العظيمة المعروفة بلوندرة فترى
بعض الناس يبتدؤن فى الجولان ومتى قابل الواحد منهم صاحبه
(من الرجال والنساء) سأله هل كنت فى الكنيسة فيجيبه بالايجاب
أو يعتذر بعذر قوى مقبول ولاجل ذلك ينبغى للغريب ان يغتنم
فرصة الاحد فى التوجه الى الكنيسة فى الصباح ثم يخرج الى
أرباض البلد لاستنشاق الهواء الصحيح فانه يكون محتاجا اليه
لقلته فى لوندرة بسبب الدخان ولكنى اشير عليه بأن يرجع فى
عصارى النهار و يطوف بعض الشوارع ويمر ببعض الحدائق مثل
هايدپارك وغيره فانه يرى فيها كثيرا من الخطباء وأغلبهم من الشغالة
واقفين يخطبون فى أى موضوع يدور فى أدمغتهم مثل الفوضى
والاشتراكية والديانة بسائر أجزائها عندهم وترى الرجل منهم
يخطب وحواليه جماهير كأنهم على ذى جنة وهو
لا يقول لهم افرنقعوا بل كلما زاد عددهم رفع عقيرته مشيرا الى
اليمين والى الشمال والاغرب من ذلك ان بعضهم يقف يتكلم
بصوت مرتفع ويشير بيديه مع انه وحده وليس حوله من يستمع
له ولكنه يوالى الكلام كأنه محاط بالاقوام ويستمر بالايماء الى
من يفرض وجودهم ذات اليمين وذات الشمال ومنهم من يجىء
فى ركب جليل بالموسيقى والاغانى والاناشيد وغير ذلك من

الخطباء فى هايدپارك وغيره

المقدمات التى تصطاد العامة وتجذبهم الى حضور مقالتـه ومنهم من يطوفون فى الشوارع بالالحان والانغام والرايات والاعـلام وبالاختصار ان كل واحد منهم تزين له نفسه الكلام يقف فى أى مكان ثم يتكلم بما يريد ويجتمع الناس حوله أولا يجتمعون ويكون رجال الشرطة بجانبهم غير مبالين بتجمعهم مهما كانت أقوال الخطيب موجهة ضـد الدولة أو بالحث عـلى احراق دور الاغنياء وسلب المخازن الكبيرة وما أشـبه ذلك فان حرية المقال فى هـذه البلاد

التناقض بانكلترة

وصلت الى ماهو فوق منتهاها وفى يوم الاحد يكثر السكر والسرقة أيضا لان الانكليز لايعرفون الوسط فان بلادهم بلاد التناقض جمعت الاطراف فاما التناهى فى الغـنى واما التناهى فى الفـقر واما التناهى فى الفضـيلة والعـفاف واما التناهى فى الرذيلة والفجور واما التناهى فى العمل واما التناهى فى الكسل الى غـير ذلك من الاطراف حتى ان المدينة اما أن تكون غاصة بالجماهير أو تكون خلوا من العالم بالمرة (فى يوم الاحد) وهكذا

لاتكلم من لاتعرفه بلوندره

وا بكثرة اللصوص وتفننهم فيها ينبـغى بل يجب على الانسان أن لايكلم أحدا لايعرفه وان يجتنب كل من يعرض عليه خدمته وارشاداته أو يبادره بالكلام واذا احتاج لاى أمر من الامور فلا يسأل الا رجال البوليس فانهـم يبادرون بالاجابة بحذق وفطانة

Digitized by Google

أو يدخل فى بعض المخازن ويستعلم فيها عما يريد وقد اعتاد الانكليز أنفسهم على ذلك فاذا اتفق لك انك كلمت واحدا منهم فان كان من أصحاب الادب وأهل المجاملة أجابك بنعم أولا من غير زيادة وكثيرا مايعرض عن الاجابة ويلازم الصمت ويستمر فى طريقه من غير ان يلتفت اليك بالمرة وان كان شرسا اعطاك درسا أو قلع لك ضرسا

عموميات على البريد

هذا وأينما سار الانسان فى شوارع لوندرة رأى حوانيت عليها صناديق للبوستة وفى كل صندوق فتحتان كبيرتان احداهما لوضع المراسلات الخاصة بالمدينة نفسها والثانية للمراسلات التى برسم أقاليم انكلتره والبلاد الاجنبية وفى بعض الشوارع المتباعدة عن هذه الحوانيت ترى على برازيق الطريق اسطوانات كثيرة من الحديد الملوّن بالبوية الحمراء معدة لوضع المراسلات فيها حتى لايلتزم الانسان بالتوجه الى المكتب القريب منه وثمن تذكرة البوستة للمملكة البريطانية نصف بنس (أى ٢ مليم) وللخارج بنس واحد (أربعة مليم) وعدد مرات التوزيع فى السنى اثنتا عشرة مرة فى كل يوم واحدى عشرة فى المواضع التى حول دار البوستة المركزية على مسافة ثلاثة أميال ويبتدئ التوزيع

من الساعة ٧ ونصف أفرنكى صباحا وفى بعض الجهات يكون ارسال المكاتبات بالتلغراف فى قناة يفرغون منها الهواء وعلامة ساعى البوستة أن يدق على الباب دقتين عنيفتين وفيما عدا الجهات المحيطة بدار البوستة يكون التوزيع ست مرات فى اليوم الواحد ويجوز إرجاع طوابع البوستة الى مكاتبها فتخصم من قيمتها ٢ ونصف فى المائة فى نظير العمولة والاصدار واعلم أنه يوجد بهذه المدينة شوارع كثيرة لها اسم واحد وقد يبلغ عددها ١٠ أو ١٥ فلاجل منع الاختلاط الذى يتأتى حصوله بهذا السبب قسمت ادارة البوستة المدينة الى ثمانية أقسام باعتبار الجهات الاربع الاصلية والجهات الاربع الفرعية ووضعت حرفا أوحرفين (ج ش أى جنوب شرقى مثلا) للتمييز بينهما بالسهولة حتى لايحصل عائق أوغلط فى التوزيع ولذلك ينبغى لكل من يراسل أحدا من أهل لوندره النازلين بها أن يضع هذه الحروف الصغيرة بعد ذكر اسم الشارع والمدينة لسهولة التسليم وعدم التعطيل

عموميات على التلغراف

أما التلغراف فكان قبل سنة ١٨٧١ لثلاثين شركة ثم أخذته الحكومة وجعلته تابعا لمصلحة البوستة ومع أن أقل أجرة لارسال أى تلغراف من لوندرة واليها هى أعلى مما فى بلادنا لانها هنا ست بنسات (أى خمسة قروش من العملة الدارجة) وهى فى

Digitized by Google

بلادنا قرشان فقط بالعملة الصاغ ولكن القوم يستخدمونه بكثرة لايتصورها العقل لانهم يفضلون خسارة القليل من المال واكتساب الوقت ومع ذلك فأعمال البوستة أيضا مازالت رائجة وإذا دفع الانسان أجرة رد التلغراف وفات الوقت المقرر للاجابة أمكنه استرجاع مادفعه لهذا الغرض فى ظرف ثلاثة أيام من تاريخ الارسال ويجوز إرسال الرسالة البرقية الى جملة أشخاص مقيمين فى قسم واحد بشرط أن يدفع المرسل ٨ مليمات على كل نسخة غير النسخة الاصلية ويجوز أيضا إرسالها الى أشخاص مقيمين فى جهات مختلفة بعد دفع نصف الاجرة العادية على كل نسخة خلاف النسخة الاصلية وهذه التسهيلات المفيدة للمصلحة وللجمهور غير موجودة فى بلادنا

عموميات على التلفون

وبمناسبة التلغراف أذكر أنه يوجد بين باريز ولوندره سلك تلفونى وأجرة التكلم فيه لاى فرد من أفراد الناس مدة ثلاث دقائق ٨ شلنات (٤٠ قرشا صاغا) أما التلفون الخاص فى لوندره وحدها فهو فى يد جملة شركات

المدارس

ولا يسعنى الآن أن أوجل الكلام على التعليم والمستشفيات وأكتفى بأن أقول ان المدارس فى هذه البلاد تعتنى عناية عظيمة بتربية الجسد والعقل لان العقل السليم لايكون الا فى الجسد السليم

Digitized by Google

ومن جملة المدارس التى زرتها مدرسة ايزلوورث المعروفة باسم (نيو برورود كوليج) فرأيت النظام فيها بالغا حده وناظرها المسيو بارنت (Barnett) على غاية الظرف واللطف وحسن المعاملة ودماثة الاخلاق وعلمت منه وتحققت بنفسى ان تلامذتنا المصريين فيها بلغوا من التقدم والنجاح درجة يغبطون عليها وأنا متأكد من الآن أنهم سيخدمون الوطن خدمة جليلة عند رجوعهم اليه بما اكتسبوه من المعارف والآداب ويسرنى بل يجب على أن أورد أسماءهم فى هذا المقام وهم حضرات الافندية أحمد براده ومحمود يوسف ومحمود قاسم

وقد أصدرت نظارة المعارف العمومية أمرها الى وطنينا المجتهد الفاضل حسن أفندى توفيق الذى كان فى برلين بالتوجه الى لوندره لتعلم اللغة الانكليزية وغيرها بهذه المدرسة وقد رأيته وعلمت منه بكل ارتياح وانشراح أنه ألف كتابا فى التاريخ العام وأنه بعد أن يتمه قريبا يشرع فى تدوين ما استفاده من أنواع العرفان ووقف عليه من شتات الفوائد التى تنفع ابناء بلاده ولعمر الحق ان هذه النتائج مما يسر مصر وكل محب لها ولاهلها وأقول مثل ذلك أيضا عن حضرات الافندية التلامذة على عمر وأحمد فهمى ومحمود اسمعيل الموجودين بمدرسة

هومرتن فانى توسمت فيهم النجابة والفطانة وتفرست انهم عند عودتهم الى وطنهم بعد زمن قريب سيبرهنون على أنهم لم يضيعوا اوقاتهم سدى بل اكتسبوا من العلوم مايجعلهم هم واخوانهم ان شاء الله وساعدتهم العناية فى مقدمة العاملين على اتحاف أبناء بلادهم بما يفيدهم فى ميدان العرفان (وان غد الناظره قريب) وسأشرح لك الكلام فى الرحلة على التعليم وطرقه وقرب الوصول الى ثمراته فى بلاد الانكليز وعلى مدرسة اكسفورد الجامعة بنوع خصوصى لانى زرتها بالتفصيل وأكتفى الآن بايراد بعض المرتبات التى للاساتذة لتعلم ان مرتبات أمثالهم فى بلادنا أقل مما يكتسبه الواحد منهم فى يوم أو بعض يوم مثال ذلك أن المدرسة الجامعة فى اسكتلندة تدفع لمدرس الكيمياء ٨٠ ألف فرنك فى السنة أى ثلاثة آلاف ومائتى جنيه أى مائتين وستة وستين جنيها وثلثى جنيه فى الشهر الواحد ولمدرس التشريح ٧٥٠٠٠ فرنك ولمدرس الطب ٦٥٠٠٠ فرنك ولكل من مدرس التاريخ الطبيعى والباتولوجيا ٢٠٠٠٠ فرنك ومدرس النباتات مرتبه السنوى ٥٥٠٠٠ فرنك ويوجد فى المدرسة الجامعة بمدينة جلاسكو مدرس للتشريح ومرتبه ٥٥٠٠٠ فرنك فى السنة وأما المدرسة الجامعة باكسفورد ففيها ٤٢٤ مدرسا

Digitized by Google

مجموع مرتبهم السنوى أربعة ملايين من الفرنكات أى متوسط الواحد منهم ٩٥٠٠ فرنك وفى المدرسة الجامعة بكمبريدج ٤٨٣ ومجموع مرتبهم السنوى ٣٣٠٠٠٠٠ فرنك وفى دبلين عاصمة ارلندة مدرسة اسمها الترينتى (أى التثليث) وفيها ٥٩ مدرسا مرتبهم ٨٠٠٠٠٠ فرنك فى السنة فهكذا تكون العناية بالتعليم والقائمين به

الاعلانات وهولها

ومن الامور التى تدهش القادم الى لوندرة كثرة الاعلانات التى يراها على جدران المحطة وكل مكان فيها حتى لا يمكنه مطلقا معرفة اسم المحطة وتمييزه عن الاعلانات ثم متى سار فى الشوارع رآها كلها اعلانات واذا ركب فى عربات الاومنيبوس أوغيرها رآها كلها اعلانات من الداخل والخارج والاسفل والاعلى ولقد كان صدرى يضيق من رؤيتها وهى كأنها تتهددنى بوجوب قراءتها والعمل بما تشير اليه والاستحصال على ماتدل عليه فكنت اذا قلبت طرفى يمنة ويسرة أو رفعته الى أعلى أو خفضته الى أسفل أو حولته الى الخلف أو رجعت به الى الامام رأيت الاعلان واقفا لى بالمرصاد فاذا أغمضت الطرف لاستريح منه قليلا ثم انتبهت فلا مناص لى من رؤيته على الدوام وفى كل مكان مختلف الصور والاشكال والرسوم والالوان فاذا أخذت تذكرة للسكة الحديدية

أو لعربات الاومنيبوس أو غير ذلك رأيت الاعلان مقتفيا أثرى وأثر كل من كان فى أى مكان وأى زمان فاذا اشتريت كتابا أو جريدة أو تعريفة أو خريطة أو ماأشبه ذلك رأيت الاعلان هو هو على الدوام يضطرنى لقراءته بالرغم عنى قبل أى موضوع يهمنى فاذا مشيت على برازيق الطريق رأيت الاعلان يتماطر على من حيث أدرى ولاأدرى فأحتار فى كيفية التخلص منه فاذا جن الظلام رأيت الاعلان مكتوبا بالانوار على صفحات الزجاج أو بواسطة القنوات الخاصة بنور الاستصباح

وقدجرت عادة الجرائد أنها تخصص صفحاتها الاولى للفصول المهمة والمواضيع ذات الفائدة العامة ولكن الامر هنا بالعكس لان الانجليز يعتبرون الاعلان من أهم الاشياء فترى جرائدهم كلها على اختلاف مواضيعها وتنوع مشاربها مشحونة بالاعلان خصوصا الصفحات الاولى والصفحات الاخيرة حتى ان الانسان ليحتار قبل أن ينظر الى مواضع الاخبار والفصول السياسية اذلابد من المرور على الاعلان مثال ذلك جريدة التيمس المعروفة بملكة الجرائد تحتوى على ١٦ صحيفة منها نحو احدى عشر صحيفة مخصصة للاعلان وقس عليها سائر رعاياها وقد علمت ورأيت أن بعض البيوت التجارية يتكبد النفقات الطائلة والمصاريف

الهائلة لنشر الاعلان على صحائف حديدية فى جميع المحطات ثم لاتكتفى بذلك فتضع صحائف أخرى فى عربات السكة الحديدية (خصوصا التى تحت الارض) ثم لا تكتفى بذلك فتنشره فى عربات الاومنيبوس فى كافة أرجائها ثم لاتكتفى بذلك فتنشره فى جميع الجرائد ثم لاتكتفى بذلك فتنشره على غطاء جميع الكتب التى تظهر حديثا وفى الصفحات الاولى والاخيرة منها ثم لاتكتفى بذلك فتعلقه فى جميع أنحاء المدينة ثم لاتكتفى بذلك فتستخدم رجالا تلبسهم بشكل مخصوص وتضع أطواقا من الحديد على خواصرهم وأكتافهم لتعليق الاعلان فيمشى الرجل منهم (ويسمونه سندويش Sandwich) وامامه وخلفه وفوق رأسه ألواح من خشب مكتوب عليها الاعلان ثم لاتكتفى بذلك فتطبع أوراقا صغيرة تضعها فى يد السندويش فيفرقها على المارة فهذا هو الحصار بعينه وكل واحد من أصحاب الاعلان يجتهد فى التفنن فى اعلانه حتى يجعله يضطر الانظار بالالتفات اليه لما فيه من الرسوم والحروف والالوان وغير ذلك مما يضيق الصدر ويقضى على الانسان بان يحسد العميان

العميان فى لوندرة

وهنا تذكرت العميان فقد سبق لى القول بأن المقعدين استغنوا عن خدمتهم وقلت لابد لى أن أجد طائفة العميان قد

وجدت هى أيضا طريقة تكفيها الحاجة الى أنظار القعدين ولا أريد أن أتكلم على التكايا المخصصة لهم بواسطة الحكومات أو أهل البر والاحسان فانها ليست من تفننهم وقد كنت أعرف أنهم اتخذوا الكلاب للاسترشاد بها والسير خلفها ولكنى قرأت من بعض الجرائد أثناء مرورى على باريس أن أحد العميان جلس على بر زوق الطريق ووضع بجانبه لوحة مكتوب عليها هذه العبارة (القوا نظرة وصلديا الى الذى لايمكن أن يردهما اليكم) فكيف لايحن قلب الانسان وتدفعه عوامل الشفقة الى امداد صاحب ذلك الفكر الحسن ولما جئت لوندرة رأيت العميان قد تفننوا فى الاختصار لان الوقت عند الانكليز من ذهب فترى الرجل واقفا حيث تمر الالوف المؤلفة فى كل لحظة وعلى صدره صندوق صغير فيه فوهة ومكتوب عليها (Blind) (أعمى) ليس الا ثم ان بعضهم أراح نفسه من الوقوف أيضا فوضع صندوقا بجانب شباك التذاكر حتى ان المسافر بعد أن يأخذ الباقى له يضع بنسا أو بنسين أو مايتيسر بكل سهولة من غير أن يتكلف وضع يده فى جيبه واخراج الدراهم منه فان ذلك يضيع منه الزمان ويمنعه عن الاحسان . وأتذكر أنى أول مرة رأيت الرجل واقفا على قنطرة لوندرة ومعه هذا الصندوق لم أفهم الكلمة التى عليه فوقفت

أنظر هذا الامر ولما سألت من معى وعرفت سر المسئلة فرحت كثيرا اذ تمكنت بذلك من الايفاء بوعدى فى رسالة فلورانسه

مواطف وطنية

ولكنى مالبثت ان تكدرت لانى سمعت بعض المارين بجانبى يقولون عنى انى أمين باشا (رجل خط الاستواء وهو الدكتور شنتيزر الالمانى) فقد ثارت فى العواطف الوطنية والاحساسات القومية لانى لاأرضى أن أشبه برجل مثل هذا الذى خان حكومتى وبلادى وباع أو أعطى أملاكها فى خط الاستواء لدولته الاصلية أو لغيرها بعد ان رقته حكومتنا السنية الى مراتب العز والشرف وسهلت له سبيل الثروة واليسار وحسن السمعة والاشتهار ثم تكلفت النفقات الطائلة (وهى فى احتياج اليها) لامداده وانجاده وانقاذه فقابل ذلك المعروف وكل هذه المواساة بالنكران وفعل مافعل قاتله الله

وبالاسف انى بعد ذلك سمعت اناسا آخرين يقولون هذا القول عنى حينما يرون احمرار وجهى واحمرار طربوشى

وداع وسياحة بانفراد

ولقد تجولت فى بعض مدائن الانكليز وسأتكلم عليها بالاختصار فى الرسالة الآتية وأترك التطويل الى الرحلة ثم رجعت الى هذه المدينة وكانت مدة مقامى فيها أولا وثانيا ثلاثة وثلاثين يوما ولم أشرع فى السياحة الا بعد أن ودعت صديقى الفاضل عثمان

Digitized by Google

بك غالب وكأنى ودعت معه نفسى أو أودعته روحى لشدة الالم الذى حصل لى من فراقه ولكونى بقيت بعده وحيدا (وما أردت أن أستعين بالتلامذة المصريين حتى لا أشغلهم عن الدرس والتحصيل وحتى أتعود على السياحة بمفردى)

اخلاق الانكليز

ومن أخلاق الانكليز التى وقفت عليها فى سياحتى فى بعض مدائنهم المشهورة ان الجراءة والاقدام فيهم أكثر منهما فى أية أمة أخرى فهم يقتحمون كل الاخطار التى تخطر على البال وهم مخلوقون للسياحة والتجوال ومتى خرج الواحد منهم من وطنه قاصدا أى جهة وقابلته الصعوبة والمشقات والاهوال والاخطار فلا يزيده ذلك إلا ثباتا واقداما وعنادا لانه رسم خط سيره ولا يمكنه أن يعدله أو يرجع عنه واذا كتب فى دفتر سياحته أنه فى يوم كذا وساعة كذا يكون فى المحل الفلانى فاذا لم تصادفه منيته فى الطريق فلا شك أنه يكون فيه فى الوقت المعين

واذا سافر لاقصى أقاصى الارض فعل من غير ضجة ولا رجة ولا حيرة وذلك عنده بمثابة السفر الى القبة والمطرية لاهل القاهرة والى الرمل لاهل الاسكندرية وانما هنالك سؤال وحيد لا يمكن أن ينساه وهذا هو (هل أرجع من طريق الصين أو طريق أمريكا)

ولوع الانكليز بالرياضات

ولابد لكل انكليزى من أبناء البيوتات الكبيرة أن يكون عارفا بقيادة المراكب والخيل والعربات ويتعود من نعومة أظفاره على الرياضات الجسدية فلا يعبأ بالمشى مسافة مائة ميل أو بالتقذيف فى الزورق من لوندرة الى اكسفورد (٦٩ ميلا) وكثير منهم يذهبون من لوندرة الى ايدمبورج عاصمة اسكتلنده سعيا على الاقدام والمسافة (٤٠٤ أميال) ومنهم من سار على أقدامه ٤٠٠ مرحلة فى بلاد السويد وهم يستمرون على المشى بهذه الكيفية حتى يصبحوا طاعنين فى السن وترى الشيوخ الهرمين يمشون فى الارياف كل يوم خمسة أو ستة كيلومترات ولا يمتنعون عن ذلك الا اذا أصابهم مرض لابد أن تعقبه الوفاة ومعلوم أن غلادستون مازال الى الآن يقطع الاحطاب بنفسه حتى لقد اتفق له فى الشهر الماضى أن بقرة نطحته وكادت تبقره بينما كان مواظبا على عادته فى الغاية

وفيهم كثير من الشيوخ يغتسلون بالماء البارد صباحا ومساء صيفا وشتاء ولا يتناولون فطورهم الا بعد مشى ثلاثة أو أربعة أميال

ويوجد باكسفورد أستاذ جرت عادته أن يمضى المسامحة السنوية مع زوجته فى قارب يقوم هو فيه بالتقذيف وهى

بامساك الدفة ويستمر على ذلك شهرا أو شهرين فى كل سنة ومتى أقبل المساء نزل بأحد الخانات التى على ساحل النهر وعند الصباح يأخذ منه المؤنة ثم يستمر فى تجواله وقد ساح بهذه الكيفية على أغلب أنهار أوروبا

وكثير منهم يذهبون على عجلة الاسلاك (السيكل Cycle) من احدى عواصم أوروبا الى الاخرى وقد جرت عادة أغلب المتزوجين حديثا بقضاء الشهر الاول المعروف عند الافرنج بهلال العسل على ظهر هذه العجلة فى الوديان والغابات والبرارى والخلوات متنقلين من قرية الى أخرى بدون أن يكون مع الزوجين شخص ثالث

حرصهم الكلى على الوقت

واذا سألت الواحد من هؤلاء الاقوام عن سؤال أجابك لحرصه على الوقت بنعم أولا فقط وفى النادر يجيبك بكلام قليل جدا بحيث انه لايتخلى عن عمله الذى فى يديه أو قراءة جريدته وكذلك السائل يطرح السؤال ثم يوالى عمله وفى المكاتب الخاصة بالادارات العمومية أو بالشركات ترى هذا الاعلام (الرجا منك أن لاتتكلم الا فيما يختص بالاشغال) وفى الكتبخانات والمحلات العمومية ترى كلمة (صه) أو (الكلام ممنوع) مطبوعة فى كل جهة وترى طريق الدخول وطريق الخروج واضحا فى كل المحطات وما أشبهها من المحال العمومية وبجانبه أصبع يشير الى الطريق

Digitized by Google

تحشمهم في بعض عبارات

وما أصدق الذى قال ان الانكليز لايشبهون أية أمة أخرى ولكنهم كلهم متشابهون متجانسون على منوال واحد وطرز واحد وهم يتحاشون القول الهراء بكل مافى وسعهم فيعبرون عن الزنا بقولهم (مسامرة جنائية) ويستبدلون هذه الجملة (ممنوع إلقاء القاذورات وممنوع التبول الخ) بهذه (لاترتكب أى اتلاف) ويسمون المبولة والمرتفق (مغسلا) ولاجل تأييد هذه التسمية يضعون طشتا لغسيل الوجه وفرشا لتنظيف الشعر والملابس ولذلك يقول الرجل منهم (انى أريد أن أغسل يدى) بدلا من قولنا (أنا رايح زى الناس أو رايح أزيل أو أنقض أو أفك وضوئى) ولا يقولون عن المرأة انها حبلى بل انها (فى طريق العائلة) أو (فى حالة تستدعى الاهتمام) وهم يتحاشون المزاح بالمرة أمام النساء وفى بعض المباول العمومية يكتبون هذا الاعلام (أصلح ملابسك وبنطلونك قبل الخروج) وهكذا

الثقة والصدق

وفيهم ثقة تامة يعجب بها الغريب حتى فى الاعمال والتجارة والصدق فيهم منتشر جدا فيكتفى الرجل منهم عند الزواج بأن يعلن عن سنه وانه عزب أو لم يتزوج ولا يبرز أوراقا لتأييد أقواله واذا كذب الواحد منهم مرة فى الامور القضائية حوكم كمن يحنث فى يمينه أو يخون عهده واذا كذب عند أحد الافراد طرد

Digitized by Google

فى الحال ومن ثقتهم ان عمال الكمرك يسألون القادم عما معه من الاشياء الخاضعة للرسوم ويعتمدون قوله فاذا ظهر كذبه صودرت الاشياء المضروبة عليها الرسوم الكمركية لجانب الحكومة وألزم الكذاب بدفع قيمة الرسوم ثلاثة أضعاف

مبادئ الزواج

ومتى اصطحب شاب بفتاة كان له أن يعرفها بأصحابه وينفرد بها فى الفسحة والنزهة والمراقص والتياترات والخلوات وغير ذلك وقد يبقى عقد الخطبة بينهما سنين طوالا الى أن يتيسر للشاب القيام بما يلزم من المصروف ومتى حصلت المفاتحة فى الخطبة فلا يجوز لاحدهما أن يعدل عن الزواج الابرضا الآخر فلو عدل الشاب طالبته الفتاة وأهلها بالعطل والاضرار وأبرزوا فى الجلسة المخاطبات والمكاتبات التى تبادلها المحبان وتعترف الفتاة أمام المحكمة بالاقسام التى أغلظها لها بالبقاء على حبها وبغير ذلك واذا كان العدول من طرف المخطوبة لا يتأخر الفتى فى اقامة القضية واكتساب مبلغ وافر من المال فى نظير العطل والاضرار

شدة تمسكهم بعاداتهم

وللانكليز تمسك شديد بعاداتهم وتقاليدهم يشبه محبتهم للغتهم وتفضيلهم لها على ماعداها حتى انهم يحتقرون الغريب الذى يزورهم أو يتوجه الى التياترو أو يجلس فى الفندق على مائدة

الاضياف بغير الملابس السوداء الرسمية المعتبرة عندهم فى ليالى الاحتفالات وأغلب النساء فى البيوتات الكبيرة يتكلمن بالفرنساوية جيدا ومن عاداتهن أنهن يقمن عن المائدة بعد تمام الأكل ويبقى الرجال وحدهم لشرب الدخان وغيره والمسامرة والمحادثة ثم يتقابل الكل فى قاعات الاستقبال أو غيرها وفى النساء لدى التكلم خفة فى الحركة وشمم وجراءة واقدام ولولا انى وعدت بعدم الرجوع لهذا الموضوع لشرحت الحال وأطلت المقال وحسبى أن أقول ان الذى يحكم عليهن بحسب العينات التى يراها فى مصر يعترف بأنه أخطأ وجازف متى جاء هذه البلاد ومن الغرابة أن الواحدة منهن متى كانت جميلة فليس لها مثيل على وجه الارض ومتى كانت قبيحة فلا يضارعها فى السماجة انسان وذلك لان الوسط غير موجود فى بلادهم فى كل الامور

احذرالنساء

ومما ينبغى تنبيه الغريب اليه أن لا ينفرد بالجلوس مع أية امرأة كانت فى غرفة من عربات السكة الحديدية مهما ظهرت له فى مظاهر الاحتشام والوقار والنبل والكمال فلقد تجمع كثير منهن (كما تجمع الرجال واشتركوا فى التجارة والصناعة) واتفقن على جعل القطارات ميدانا لاعمالهن فمنهن النصابات المحتالات النشالات الطرارات ومنهن التى تطالب بمبلغ عظيم وتهدد صاحبها

Digitized by Google

بأنه ان لم يؤد هذه الجزية عن يد وهو من الصاغرين بلغت رجال الشرطة عنه فى المحطة التالية بأنه فاتحها بما يخل بالآداب وغير ذلك ومنهن المتدينات المترهبات اللاتى يلازمن الرجل بدعوى انهن يخلصن روحه ويهدينه الى الصراط المستقيم صراط الذين اتبعوا المذهب البروتستانتى ثم تأخذ فى ايراد الدلائل والبراهين لاقناعه بوجوب الدخول فيه وفى هذا القدر كفاية الآن

مبانى لوندرة

واعلم أن مبانى لوندرة كلها على طرز واحد ومثال متشابه ومنوال متجانس وكلها متسربلة بملابس الحداد كأن أهلها يرون مثل بنى العباس ان (النور فى السواد) ويظهر للمتأمل فيها انها مبنية بالطوب الاحمر ولاتزيد عن الدورين الا فى النادر ولكنها متى تعدت هذا العدد أوتجاوزت النموذج المتبع عندهم فى البناء فيكون ذلك للطرف الآخر مرة واحدة فقد شاهدت بعض الدور فيها ثلاثة عشر دورا وقد شاهدت من جمال بعض المنازل والقصور ماجعلنى أحكم بانى فى احدى مدائن ايطاليا بعيدا عن لوندرة بمراحل وكيلومترات ومثال ذلك كنيسة ماربولس تتراآى على مسافة ٢٠٠٠٠ متر مما حولها وفى كل المبانى ترى طبقة تحت الارض يستخدمونها للطبخ والغسيل والتخزين ولغير ذلك من

اللوازم المنزلية حتى لايكون ذلك بجانب المساكن بل ان النزول الى هذه الطبقات يكون من سلم على برزوق الطريق فلا يدخل الفحام أو الجزار أو الخباز أو الخضرى أو غيرهم من المتعهدين بالتوريد فى المساكن مطلقا وقد دبروا النور والهواء فى تلك الطبقات الارضية بما يجعلها موافقة للصحة وقد رأيت فى بعضها قاعات للجلوس وغرفا للاستقبال فى غاية الزخرفة والجمال بحيث انها تروق فى عين الانسان وتستميله الى اطالة الجلوس فيها أما المساكن فان منظرها من الخارج عادى حقير ولكنه من الداخل محفوف بالتأنق وله من التزويق رونق يأخذ بالابصار فترى فيها المفروشات الثمينة والطرف والتحف التى لاتقدر قيمتها وترى الكراسى والمقاعد مختلفة الاصناف والاشكال وترى الامتعة والمرائى فى جميع النواحى مرتبة بذوق وحذق قد تجرد منهما خارج المنزل بالمرة وهذا أيضا من باب التناقض

المطبخ الانكليزى

وأما طبخهم فعادب تافه وفى غاية البساطة فكأنهم لايزالون على الفطرة فان الاشكال التى يعرفونها قليلة العدد وليس لهم من تنويع أو تعديل بل مازالوا سائرين فيها على سنة آبائهم الاولين ولكنها كلها والحق يقال صحية نظيفة وقد فاقوا الامم جميعا فى اصطناع الروزبيف فانك ترى كتلة من اللحم تزن

Digitized by Google

ثلاثين أو أربعين رطلا وكلها مسوّاة بالسواء من الداخل والخارج ومن جميع الجوانب وهم لا يضعون الملح فى الخبز أيضا أما الفنادق الكبيرة وأغنياء القوم فيستخدمون طباخين فرنساويين حتى انهم يضطرون (مع شدة محبتهم للغتهم) لكتابة وفهم أسماء الالوان بالفرنساوية ولقد أحسن ڤولتير حيث قال (ان الناس فى بلاد الانكليز يعبدون الله على خمسين نوعا ولكنهم لا يهيئون البقرى والضانى الاعلى نوع واحد)

تمر المساكن

أما نمر المنازل فى الشوارع والحارات فليست منتظمة كما فى مصر بطريقة الشفع والوتر بل قد ترى الجانب الايمن مبتدئا بعدد ١ ثم ٢ وهكذا حتى اذا انتهى الشارع بعدد ما رجعوا بالعدد الذى يليه من نهاية الجانب الايسر فيكون أول الشارع فيه أول أعداد المنازل من جهة اليمين وآخرها من جهة الشمال وفى القليل منها قد اتبع القوم طريقة الترتيب الحسنى المتعارفة فى مصر وغيرها من ديار أوروبا

المرتفقات والمباول العمومية

وفى جميع المحطات والمتاحف والآثار العمومية والاسواق المهمة والميادين التى بين الشوارع ترى مرتفقات ومباول عمومية بعضها خاص بالنساء والباقى للرجال وكلها فى غاية النظافة ونهاية الاستعداد وتضاء بالليل بالكهربائية وفيها الماء متساقط باحكام

Digitized by Google

على الدوام من أحواض قد ترى فى بعضها الاسماك المختلفة الالوان يربيها الحارس فى هذه البحيرة التى يتجدد ماؤها فى كل لحظة وكثير من هذه المرتفقات متسعة جدا وينزل اليها بدرج لانها تحت الارض (فكأنها البنفسج قد اختبأ من عيون النرجس) واذا اضطر أحد لقضاء الحاجة ولم يجد المرتفق قريبا منه فله أن يدخل فى أى دكان فطاطرى ويدفع بنسا واحد (٤) مليم للخادم

وصف الستى

وقد سبق لى ذكر الستى (المدينة) وسهى على أن أقول انها مركز الصناعة والتجارة لا للوندرة وحدها بل للعالم أجمع تتوارد اليها كنوز الثروة من جميع أقطار الارض وتديرها هى كيف شاءت وترسلها أينما أرادت ومن نظر الى جوّها تصوّر أن رتيلاء هائلة جاءت ونسجت خيوطها وأرسلتها فى جميع أطرافها فان الاسلاك التلفونية والكهربائية التى فيها عدها أعسر من احصاء قطرات الامطار ومما يدلك على أن الحركة فى هذه الجهة من لوندرة قد وصلت الى نهايات التصوّر أن الرسائل الواردة عن طريق البوستة توزع فيها فى كل ساعة من ساعات النهار حتى ان عدد المكاتيب التى ترد اليها فى كل صباح يزيد عن الالف ألف (وهنالك مخزن واحد يرد له فى اليوم أكثر من ثلاثة آلاف رسالة) وعدد

سكان الستى المقيمين بها ٣٧٦٩٤ نفسا ولكنها فى ساعات الاشغال تتوافد اليها الخلائق من كل فج عميق حتى يبلغ عدد الذين بها طول النهار أكثر من ٣٠١٣٨٥ منهم ٢٩٥٢٠ رؤساء بيوت تجارية و ٢٠٢٢١٥ مستخدما و ٥٠٤١٦ مستخدمة و ١٩٢٣٥ غلاما لايزيد سنهم عن ١٥ سنة وقد حسبوا ان فى ٢٤ ساعة (فى يوم ٢٧ ابريل سنة ١٨٩١) دخل الى حدود الستى ١١٨٦٠٩٤ شخصا و ٩٢٣٧٢ عربة مختلفة الانواع ومتى أقبل الليل رجعت هذه الخلائق كلها وتركت الستى قاعا صفصفا حتى اذا شقشق النهار رأيت هذه الافوام تنهال عليها من كل جانب بمئات الالوف كالسيل المنهمر فهى أشبه بالبحر يحدث فيه المد والجزر

بلوندرة روح التجارة

ومما يدل على ان روح التجارة مجموعة فى العاصمة الانكليزية ان الرسائل التى توزعها البوستة فى لوندرة وحدها تزيد عن ربع مجموع الرسائل التى برسم بريطانيا العظمى كلها بل ان بلاد اسكتلندة (Scotland) (وتعرف عند العرب باسم سقوسية) باجمعها لايرد لها من الرسائل نصف مايرد للوندرة كما ان ايرلندة (وتسمى كذلك فى كتب العرب القديمة) بسائر مدائنها ومعاملها ومتاجرها البحرية لايرد لها الثلث

Digitized by Google

السعادة بالاجتهاد

فكيف لاتنهال جداول الثروة على هؤلاء القوم العاملين الذين يعرفون حقيقة قيمة الوقت حتى ان الرجل منهم اذا افتكر فى أى أمر من التسهيل والتيسير وثابر عليه بقليل من الثبات وساعده حسن جده لا يلبث أن يصير من أغنيائهم وأشرافهم ونبلائهم مثال ذلك رجل كان يصطنع البيرة (الجعه) واسمه (باس) فاتقن عملها وتفنن فى طرق التعريف بها حتى انه وصل الآن الى ثروة لايمكن تقديرها الا لمن يعلم أنه اشترى الدار التى كان يسكنها اللورد بيكونسفلد وزير انكلترا الشهير ثم فرشها بالمتاع الفاخر وبلغت نفقات الفرش وحده ٦٥ ألف جنيه تقريبا من ذلك لوحتان فيهما بعض الصور والمناظر بستة عشر ألف جنيه ولما وصل الى ماوصل من اليسار توصل الى ان صار من اللوردات الكبار (اللورد بريون) وعنده الآن سبعة آلاف عامل وله ايرادات كثيرة ودخله من الجعة وحدها بين ٣٠٠ ألف و ٤٠٠ ألف جنيه فى السنة الواحدة ومرتب مدير الادارة عنده هو ٥ آلاف جنيه انكليزى فى السنة

ومثله كوك المشهور وتاريخه معلوم فى مصر وقد أصبح لبيته الآن أقلام ومكاتب فى كافة البلاد المتمدنة بل ان له فى لوندرة وحدها نحوا من ثمانية مكاتب وكلها تشبه بل تفوق المصالح المنتظمة

Digitized by Google

المشهود لها بالاجادة ومما يدل على انتظام ادارته وتيقظ عماله لراحة معامليه انهم أطلعونى فى لوندرة على ترجمة شكواى من وكلائهم فى برندزى أرسلها لهم وكيلهم فى القاهرة نقلا عن رسالتى الاولى واستفهموا منى عن اللازم وأوعدونى بمعاقبة المقصرين حتى لايعودوا للاخلال بواجباتهم وسأفرد للكلام عليه فى الرحلة فصلا ان شاء الله .

ومثله رجلان اسمهما سبيرز وبوند قد التزما بان ينشئا فى جميع محطات لوندرة وبريطانيا العظمى سكردانات (١) للآكلين والشاربين من المترددين على القطرات فراجت تجارتهما وربحت أعمالهما حتى تعديا هذا النوع الى غيره فأنشآ دكاكين بدالين (بقالين) وخياطين وغير ذلك وعندهما من النساء المستخدمات نحو الخمسمائة امرأة

ومثلهما كثير غيرهما اتبعوا طريق الجد فى أعمالهم ففازوا وصاروا من أهل الثروة وأقبلت عليهم الخلائق وأقرت لهم

---

(١) يؤخذ من كلام شفاء الغليل فيما فى لغة العرب من الدخيل ان السكردان لفظ فارسى معرب ومن شرحه له يستفاد انه يقابله فى اللغة الافرنكية كلمة بوفيه Buffet المستعملة الآن فى اللغة العربيه وحينئذ فالرجوع الى السكردان أولى وأفضل)

Digitized by Google

بالفصاحة والاصالة وصار لهم فى النفوس مهابة وجلال حتى ان كثيرا من المحدثين بهذه الصفة أصبحوا أعضاء فى البرلمان بالنيابة عن بعض المقاطعات بل عن بعض المدارس الجامعة وهم كثيرون لاأريد أن أطيل الرسالة بذكرهم ولكنى لاأرى مندوحة عن الكلام على رجل اسمه هويتلى Whitely

هذا الرجل كان فى مبدا أمره من طائفة المتسببين ببيع بعض الاصناف على عربة يدفعها بيده أو يقف بها بجانب الرزوق وقد أصبح الآن وهو صاحب مخازن واسعة فى لوندرة لايضاهيها غيرها فى كل البلاد التى رأيتها وقد علمت أنها فريدة فى العالم بأجمعه وقد دخلت هذه المخازن فحرت واندهشت وضللت عن الطريق لتشعب مسالكها وتنوع الاصناف فيها فانك تجد عنده كل مايحتاجه الانسان من أى طبقة كان من يوم مولده الى يوم ملحده من جميع الاصناف وكافة الانواع من ملابس للجسم وللرأس ولليدين وللاقدام داخلية وخارجية للرجال والاطفال والنساء والبنات جاهزة أومفصلة بحسب الارادة ومن أقمشة لجميع أصناف الناس للملكية والعسكرية البرية والبحرية ومن حرائر ومنسوجات مختلفة متعددة متنوعة ومن روائح واعطار ومن بضائع أجنبية من جميع أقطار الدنيا من مصاغات

Digitized by Google

ومجوهرات مختلفة الاقدار والاحجام والاثمان ومن مشغولات الحديد وكافة المعادن على الاطلاق ومن أخشاب وأحطاب ومن كتب وورق وما يقتضيه ذلك من جميع الانواع ومن فواكه طرية وناشفة وخضراوات جافة ورطبة جنية ومن لحوم الحيوانات والصيد ومن حيوانات حية وأطيار وأسماك بل تجد عنده الفحم الحجرى بل الكبريت بل كل ما يتصوره الانسان يجده فى هذه الدكان وعلى الضمان ذهب اليه فى أحد الايام رجل من اللوردات وأراد أن يربكه ويضحك عليه فقال له انى أريد فيلا أبيض (ومعلوم انه من الندرة بمكان) فتلقاه الرجل بكل هدو وسكينة واستوصفه الفيل اللازم وساومه الثمن وأخذ عنوانه ثم قال له أضرب لك موعدا بعد ثلاثة شهور يحضر مطلوبك فلم يمض الاجل المعين حتى جاء الى صاحبنا اللورد كتاب فى البوستة يعلمه بوصول الفيل حائزا لكافة الشرائط المطلوبة والاوصاف المرغوبة وانه مستعد لارساله اليه فى المكان الذى يعينه وبلغنى ان عدد القتيات المستخدمات فى مخازنه يقارب الخمسة آلاف وأمثال هؤلاء كثيرون

فلا يعجب الانسان حينئذ اذا اضطر القوم للاستعمار الغنى والفقر والاجتهاد فى جلب الذهب الى بلادهم من كافة أقطار الارض

Digitized by Google

حتى صارت مدينتهم سوق العالم كله وأصبح كثير منهم يكتسبون في الدقيقة الواحدة خمسة أو عشرة جنيهات أو أكثر ومنهم من ايراده السنوى يعتبر في بلاد أخرى رأس مال عظيم جدا ومنهم دوك اف فونشير يملك من الاراضى فقط ماقيمته ثمانية آلاف ألف جنيه ومع ذلك فان ثروته هذه ليست شيأ يذكر بجانب دوك وستمنستر فانه لم يتيسر حصرها للآن

وبهذه المناسبة أقول ان الباحث المدقق لايرى في اى نقطة في الكون منظرا أبشع ومشهدا أشنع من الفقر الذى أناخ بكلكله على جانب عظيم من سكان لوندرة فان ذلك المنظر يوجب لوعة وألما لايضاهيهما شئ من الاحزان لقربه من تلك الثروة الطائلة وتلك النعمة الكاملة الآخذة في النماء والازدياد بقدر اشتداد وطأة الفاقة وتناهى الاعسار فهلا يرى الناظر بعد ذلك ان هذه المدينة قد تفردت بالجمع بين الاطراف وانعدم فيها الوسط في كل أمر من أمور الحياة حتى لقد صدق شاعرهم شيلي إذ قال مامعناه

ان جهنم المستعرة * أشبه بمدينة لوندرة

الرسالة الحادية عشرة

تجول فى بعض مدائن الانكليز

وصف المطر والضباب

قمت من لوندرة فى يوم الخميس ٢٢ سبتمبر وقد اكفهر وجه السماء واحتجبت شمس الضياء وخيمت فى المدينة كتائب الضباب ثم تمزقت ضلائع السحاب فتساقطت الامطار كالانهار وتسابقت السيول من أعالى التلول وتتابع الرعد القاصف يصحبه البرق الخاطف ورأيت الناس يبتدؤن فى ايقاد النور فى الشوارع والحوانيت والدور فنزلت من العربة الى جهة مستقربة للتفرج على هذه الحركة المستغربة غير مبال بهاطل الوابل فخيل لى أنى فى صندوق كبير من الزجاج القاتم وعلى جدرانه شبه أشجار منضودة ومياه معدودة وطرائق ممدودة وأشباح فى غدو ورواح وماوصلت الى سكة الحديد الا وقد بلغ الظلام منتهاه فأسرعت الى عربة القطار السريع ورأيت الماء ينهال من ميازيبها كأنها أفواه القرب ولما استقربى الجلوس واستأنست بالجلوس ورأيت النفوس تتضجر من هذا الجو العبوس فاتحت بعض القوم بهول هذا اليوم فقال هذا هو الضباب الاسود ولعله يقف عند هذا الحد فلا يكون طليعة لعرمرم الضباب الاصفر فانه هو الموت الاحمر

Digitized by Google

فأظهرت الاشتياق لمعرفة هذا الافتراق فأخبرني أن الضباب عندهم قسمان أولهما وهو الذى نشاهده الآن أكثر غرابة وأقل ضررا للانسان فانه يجعل وقت الظهيرة البهيج كمنتصف الليل البهيم فيسارع الناس بإضاءة النبراس ومتى كان الضباب فى الطبقات العالية فليس فيه من الضرر ما يستحق أن يذكر ولكنه على كل حال لا يوجب عطلا فى دولاب التجارة وحركة الاعمال وأما الصنف الثانى فهو الاصفر يؤثر على الحلق ويتهدد الحلق بالخنق ويوجب التحفظ على الافمام بالاكمام وقد اخترعوا للوقاية منه كمامات مخصوصة للتمكن من التنفس بسهولة وكل من أهمل الاحتراز بهذا الغطاء أو بهذه الكمامة خرج الدم من فيه مع اللعاب ان لم تزهق النفس وتذهب الى الرمس وفى الحال يسرجون المصابيح فى الشوارع والحارات والدور والدكاكين ولكنه يستحيل على الانسان أن يرى النور نفسه ولو كان بمقربة منه وبعضهم يلتجؤن الى العربات فيلبثون بها ساعات وترى هذه الحركة الهائلة التى تفردت بها لوندرة تقف كلها مرة واحدة ولا يتجاسر الجرىء على أن يتقدم فترا أو يتأخر شبرا خوفا من الاصطدام بشئ مما لايراه. وهذا الصنف من الضباب لا يظهر الامدة خمسة عشر يوما وأخص الاوقات به شهر نوفمبر فقد يمر الاسبوع الكامل كأنه ليلة واحدة

قد يتخللها أحيانا شفق باهت يزيد فى الحزن والكآبة المنتشرة على أرجاء المدينة ولذلك كان الانكليز أعرف الناس بمضار الجو فى مدينتهم فيبارحونها فى فصل الشتاء (الا من تضطره حوائجه وأعماله) ويفر الاعيان والاشراف واللوردات منها فى هذه الاوقات لانها تكون والحق يقال غير قابلة للسكنى بما يغشاها من ركام الضباب المتوالى الذى يمزج فيها بين النور والظلام ويزيد فى درجة الرطوبة الى حد لا يطاق فشكرت الرجل على هذه الافادة وأردت أن أحيطه علما باعتدال الجو فى بلادنا وبهاء السماء عندنا مما يجعلها جنة تقر النواظر وتشرح الخواطر ولكنى رأيته لا يعبأ الا ببلاده ولا يلتفت الى غير ماهو فى معلومه فأقفلت باب الحديث وأخذ هو والجماعة فى تدخين شبقاتهم القصيرة الشهيرة وتلاوة جرائدهم الكثيرة واشتغلت باضافة هذه الفوائد على ما علمته من سرعة تغير الجو فى لوندرة فان متوسط درجة الحرارة فيها هو ٤٥ر٩ من درجات سنتيجراد وقد تنزل فى الشتاء الى ٣ تحت الصفر ولم يمض الا قليل من الزمن حتى وصلنا برمنغام Birmingham مدينة برمنغام فنزلت بها وهى مدينة قديمة اسمها الاصلى بروموايشام ثم حرفها العامة الى بروماجم واشتهرت الآن باسمها المتداول المعروف وهى مركز المعامل التى تشتغل باصطناع الحديد فى بلاد الانكليز وفيها

ورش للجلوانوبلستيا ولاصطناع الريش الفولاذ التى يستعملها الافرنج فى الكتابة بدل الاقلام وللمصنوعات الحديدية الخاصة بالكنائس وعلى مقربة منها ورشة لاصطناع الزجاجات العدسية الخاصة بالفنارات البحرية وأخرى لعمل العربات ومن أجمل مبانيها دار المدينة وفيها متحف واف ومكتبة أهلية يقوم بالخدمة فيها نساء فى غاية الفطانة وفيها غرفة مخصصة لمؤلفات شاعرهم الفيلسوف الشهير شكسبير تحتوى على مجموعة فيها كتبه التى طبعت فى جميع المطابع وفيها تراجمها الى كافة اللغات الاوروباوية وكذلك البوستة يقوم بمباشرة أعمالها نساء لهن حظ وافر من علم الجغرافية

مدينة دربى

ثم قمت منها الى مدينة دربى (Derby) وتفرجت على مكتبتها ومتحفها ولكنها ليست الا عبارة عن معامل كثيرة خالية مما يشرح صدر الغريب أو يستميله لاطالة البقاء فيها وأهم شئ يستحق الذكر هو انى حططت بها الرحال (أعنى جعبة ملابسى ووطاب أوراقى) مدة ٢٤ ساعة

مدينة منشستر

وأسرعت بالقيام منها الى مدينة منشستر (Manchester) على القطار السريع فمر تحت نفق اسمه بيك فورست تونل وطوله ميلان كاملان ولكن القطار قطعهما فى دقيقتين وفيه بطرية كهربائية

Digitized by Google

لاضاءة كافة العربات بالليل أو عند دخولها نهارا فى بعض الانفاق فقط ومنشستر مدينة كبيرة عامرة فيها كثير من المعامل وأهم شئ تفرغت له فيها مكاتبها الكثيرة المجانية التى أعدت لتثقيف عقول الاهالى وتشحيذ أذهان العمال فى أوقات خلوهم من الاعمال وقد رأيت فى أهم مكتباتها مجموعة مستوفاة لانظير لها فى أعظم مكاتب أوروبا حيث احتوت على جميع ماألفه العلماء فى فن اختذال الكتابة (الستنوغرافيا) وفيها مجموعة كاملة لاهم جرائد بريطانيا العظمى واعمال البرلمان وكتب قديمة نادرة ومعمل للتجليد ورأيت فيها طابعا طابعا يؤثر على الورق من غير حبر استحدثوه حتى لا يتمكن أحد القراء من اختلاس بعض أوراق الكتب التى يكون فيها تصاوير ورسوم أو جداول أو غير ذلك مما يستشره الغواة للاختصاص به واتلاف الكتاب برمته وهى طريقة لطيفة يحسن اتباعها فى الكتبخانة الخديوية حفظا لما فيها من الذخائر والنفائس حتى ان الذى يستعير الكتاب النادر لاتسول له نفسه تجريده من بعض الصفحات فيصبح أبتر عديم القيمة وفيها غرفة للقراءة يجد الانسان فيها جميع الجرائد التى تصدر فى اليوم وسأشرح الكلام بالتفصيل على مكاتبها التسعة وغرف المطالعة المتعددة اظهارا لما جاءت به من الفوائد التى لاتقدر وعدد سكان

Digitized by Google

هذه المدينة ٧٠٥٠٠٠ نسمة بما فيها سالفور من ارباضها وهى كما لايخفى مركز لصناعة الاقطان (وفى متحفها نموذج من جميع محصولات القطن بانواعه فى كافة أقطار العالم) وليست من شئ فى حسن المنظر و بهاء الرونق وهى كسوق يتوّن فيه أهل المدائن التى حولها وكلها مختصة بغزل القطن ونسجه وبما يتبعه من الصنائع وفيها بعض عمائر تستحق الذكر مثل دار أمانة المدينة ودار التجارة الحرة وهى معدة للاجتماعات العمومية تسع ٥٠٠٠ نفس وفيها بستان للنبات فى غاية الانتظام وفيها كثير من الاسواق والكنائس المهمة وفى شوارعها وميادينها أنصاب لتخليد ذكر مشاهير الانكليز وقد مضى علىّ فيها أحد الآحاد فكأنها ولوندرة قد أفرغتا فى قالب واحد ومما زاد فى أهمية المدينة أن شركة تألفت وساقت مياه البحر الاطلانطيقى من ليفربول اليها فى ترعة سموها قنال مانشستر لكى يتيسر للسفن أن تدخل فى انكلترا حتى تصل اليها بما فيها من البضائع وقد بلغت نفقات هذا القنال نحو ٦ ملايين من الجنيهات والمنظور أنهم يصرفون أيضا أربعة ملايين أخرى

ليفربول
وفندق أدلفى

ثم قمت منها الى ليفربول (Liverpool) ونزلت بفندق ادلفى وهو من أفخر وأفخم الفنادق التى رأيتها بأوروبا من حيث الاتساع والاتقان وكمال المعدات حتى ان أدنى

Digitized by Google

غرفة فيه يضيئها النور الكهربائى وفيها التلفون للمخاطبة معادارة الفندق وخدمه ولمكالمة النازلين به مع بعضهم ومع المشتركين فى التلفون من أهل المدينة

الجمعية الاسلامية الانكليزية

وقد تفرجت فيها على المحاكم وعرفت أساليب التقاضى والمحاماة عندهم وزرت مكتبتها ومتاحفها وشاهدت آثارها وأنصابها وتقابلت فيها مع الشيخ عبدالله ويليم كويليم رئيس الطائفة الاسلامية من أبناء الانكليز ودعانى لتناول الطعام عنده وأكرم مثواى ورأيته قائما هو وأصحابه بتأدية الفروض الدينية الشرعية بقدر اجتهادهم فى دار جعلوا فيها قبلة ومحرابا ومكانا للصلاة ومنبرا للوعظ والخطابة وفيها مدرسة اسلامية لتعليم الآداب والفنون الانكليزية على مايوافق النصوص الشرعية وهى الى الآن فى عهد الطفولية وكلهم متوددون لبعضهم رحماء بينهم مقبلون على تكسب أرزاقهم يتخاطبون بألفاظ الاخاء ويحيون بعضهم بتحية الاسلام ويزيد عددهم الآن عن الستين بما فيهم بعض النساء ولاشك انهن سيكون لهن اليد البيضاء فى تعميم نشر المبادى الحقة واظهار مزايا الدين الحنيف شأنهن فى كل عمل أقبلن عليه فى أى قطر من أقطار المسكونة وقد ترجموا بعض السور الكريمة ونظموها فى قصائد

Digitized by Google

يرتلونها فى بعض الاجتماعات وعندى نسخة منها وقد اديت

الزمهرير فى سبتمبر

معهم فريضة العشاء فى ليلة ٢٧ - ٢٨ سبتمبر وقد اشتد الزمهرير وتنازلت الحرارة وارتفعت البرودة بما لم أعهد له مثيلا من قبل حتى كانت جوارحى تنتفض وفرائصى ترتعد كأنى العصفور بلله القطر واستمرت أسنانى على الاصطكاك والاحتكاك حتى تحققت ان برد العجوز فى بلادنا ليس بالشئ الذى يذكر بجانب ماسميته برد الشباب عندهم وكانوا كلهم يقولون أين هذا من البرد الصحيح

نار السعير

وبعد أن خرجنا من المسجد صاحبنى اثنان منهم لارشادى على الفندق وبينما نحن فى اثناء الطريق واذا بمبادئ حريقة فى مخزن خشب فوقفنا نتأمل أفاعيل النار مع اشتداد هبوب الرياح ولم تمض برهة كبيرة حتى ارتفع لسان اللهيب الى عنان السماء وتطاير الشرر الى جهة الشرق فأتت على المخزن وبعض البيوت المجاورة له ولم يتغلب عليها رجال المطافئ مع إقدامهم وبراعتهم الا بعد أن بلغت النفس التراقى ولولا حذاقتهم وسكون الاهالى وعدم اضطرابهم واستيلاء الهلع عليهم لكانت أحدثت اتلافا أعظم مما حدث وسأكتب عليها بالتفصيل وانما أذكر الآن ثبات الانكليز فانى لم أسمع فى الجماهير التى تجمهرت الا صياحا واحدا من امرأة استغاثت بالقوم لانقاذ ولدها وألقت نفسها فى مقدمتهم

Digitized by Google

لاستخلاص فلذة كبدها وبعد ذلك استولى الصمت والسكون حتى فى أهالى المنازل المجاورة التى كانت ألسنة النار تتطاول اليها وبقى رجال المطافئ مالكين لحريتهم فى العمل حتى انقضت هذه القارعة ولم يمت فيها أحد من الناس والحمد لله

عموميات

وعدد أهالى ليفربول ٥١٧٠٠٠ نفس وهى أول الموانى البريطانية بعد لوندرة بل قد تفوق عليها بما يصدر منها الى الخارج وأخص تجارتها مع بلاد امريكا اذ يجيئها منها كميات من الحبوب والاقطان وغير ذلك من المحصولات مما لا يكاد يتصوره العقل ثم تصدرها بعد اصطناعها فى معاملها الى جميع انحاء العالم وأحواضها أهم ما يوجد فى أعظم موانى الدنيا تدخل اليها أكبر السفائن فى كل لحظة وهى متقاطرة صفوفا صفوفا وراء بعضها على مدى ستة أميال وزيادة بحيث ان منظرها يعتبر من عجائب العالم ولا يزالون الى الآن يشتغلون بحفر أحواض جديدة وانشاء مخازن للتجارة البحرية

ومن أهم مبانيها قاعة سنت جورج وهى عمارة فخيمة جليلة بما فيها من الرونق والبهاء وحسن النظام يجتمع فيها القوم أثناء الانتخابات أو الاحتفالات العمومية ورأيت قصر متحف الفنون والصور والرسوم وغرفة المطالعة والمكتبة الحرة

Digitized by Google

والبورصة وغير ذلك من عظائم الآثار التى لايسمح لى المقام بالتوسع فى الكلام عليها الآن وفيها كما فى غيرها من مدائن الانكليز تلك الرياض السندسية التى تنقى الهواء وتسر الفؤاد بما فيها من الخضرة والنضرة والمياه المتدفقة والاشجار القليلة حتى يتيسر للنظر ان يمتد الى منتهى الافق وفيها مدرسة جامعة وغير ذلك مما أستبقى شرحه للوقت والمكان المناسبين له

هذا وقد كنت عقدت النية على الرجوع الى لوندرة مباشرة ولكنى عدلت عن ذلك وعولت على زيارة بعض مدائن الغال لقربى منها واعلمى بانه لم يسبقنى أحد من أبناء جلدتى من هذا الجيل فى التوجه اليها وستكون موضوع الكلام فى الرسالة التالية ان شاء الله

الرسالة الثانية عشرة

تجوال فى بلاد الغال

نظرة فى الانسان

خلق الله الانسان فى أحسن تقويم وبرأه على أبدع تكوين وصوّره فى أجمل مثال وفطره على أكمل منوال ثم أودع فيه من غرائب الغرائز وخفى الاسرار ومكنون القوى ما لا ارتياب فى وجوده الحاذق الفطين أو يتخيله الدرّاكة الفهيم أو يخطر على بال اللبيب الاريب ولا يزال العلم يكشف لنا فى كل يوم عن قناع هذه الخبايا ويكاشفنا بما فى تلك الزوايا ويطلعنا بمقدار تقدم العرفان على ما فى الانسان العاجز من آثار الاقتدار كلما قرن الارادة بالعمل ووفق بين الفكر والتحقيق فى مظاهر الوجود وهذه كلها قضايا ثابتة عند من قدح زناد القريحة الصحيحة وتدبر فى سلائق الخلائق وأرسل رائد التأمل الى عجائب الارتقاء العصرى وما كان من نتائج سعى العقلاء فى الايام الخوالى

السبب فى عدم تغرب المصريين

أقول ذلك بمناسبة ما اشتهر به المصريون من الركون الى السكون والخلود الى الراحة والقناعة بالكفاف وما ذلك الا لتوفر العيش فى بلادهم البارة بأهلها وتيسر أسباب الكسب ونوال الرزق من غير ما كد ولا كدح كما هو الشأن فى الامم المتوطنة

Digitized by Google

بالبلاد الجبلية أو الاصقاع المجدبة القاحلة أو البلاد التى ضاق ذرعها عن القيام بأود أبنائها حتى اضطروا للنزوح عنها الى ماهو أخصب وأبرك سعيا وراء القوت أو طلبا للرفاهية والنعيم

وليس السكون من شؤون المصريين دون من عداهم ممن يدبون على وجه الكرة الارضية فماهم وربك إلا كسواهم من طوائف المخلوقات الذين أفاضت عليهم يد العناية الازلية نعمها المترادفة حتى جعلت بلادهم مطمحا لانظار الغريب عنها يلتجىء اليها على الدوام ويقرع أبوابها طلبا للقرى والضيافة

ثم اننا اذا نزلنا فى سلم الكائنات الى الحيوانات رأينا هذه النتيجة بعينها فانواع الدبابات وأصناف الحشرات وأطيار الهواء وأسماك الماء خاضعة لهذا الناموس الكونى العام فما كان منها فى وسط مشحون بالخيرات تراه من طبيعته ميالا للسكينة وعدم العنفوان وما كان بعكسه يكون من خلقه البطش والبغى والعدوان وقد استمر الحال على هذا المنهاج حتى تأصلت هذه الاخلاق وصارت وراثية فى كل من الفريقين يتناقلها الابناء عن الآباء والاحفاد عن الاجداد ولكننا اذ قلبنا الموضوع وعكسنا القضية كما يفعل علماء الطبيعيات ببعض الحيوانات لاتلبث الجبلات ان تتغير والسجايا ان تتحور والطبائع أن تتنوع وتتحول

Digitized by Google

والاميال أن تتبدل وتتعدل بحسب مايقتضيه الحال ويستوجبه المقام .

لذلك كان البدو على العموم مجبولين على الترحال والضرب فى أطراف البلاد حتى اذا تمصروا أصبحوا كأهل الحضر أقل استعدادا للهجرة والتغرب عن الاوطان والابتعاد عن الارض التى نبتوا بها واستقوا من مائها وتغذوا بنباتها

السبب فى ولوع الانكليز بالسياحة

ولما كانت بلاد الانكليز كثيرة البعد عن ان يصدق عليها انها من الخصب وتوفر الرزق بحيث تكفى لمؤنة أهلها تولد فيهم بالضرورة حب السياحة والسعى فى مناكب الارض وبذل كل مافى وسعهم من الوسائط الحسية والوسائل المعنوية لجلب الثروة من أقطار الارض وأطرافها الى تلك الجزيرة التى يسكنون بها ثم لما ضاقت عنهم التزموا بالاستكثار من الاستعمار والانتشار فى سائر الاقطار مثل الفينيقيين وأبنائهم القرطاجيين ومثل الاغريق والرومانيين ومثل العرب فى أول دولتهم والبرتقاليين والاسبانيين فى مبدأ نشأتهم ومثل الالمانيين واليونانيين وغيرهم من أمم هذا الزمان

وبعد ان كانت السياحات للانكليز من أول الحاجيات أصبحت الآن من ضروريات الكماليات لانها رسخت فى ملكاتهم

Digitized by Google

وثبتت فى أخلاقهم حتى انهم فاقوا جميع أمم الارض فى هذا الموضوع

استعداد المصريين للسياحة

وبعكسهم المصريون واشباههم من الاقوام فانهم لم تحوجهم بلادهم للخروج من حوزتها ومبارحة حومتها فانها تكفلت لهم بلوازم الحياة ولم تضن عليهم بما يسد رمقهم حتى انه ماأمكن ولايمكن ولن يمكن أن يموت فيها أحد بسبب الجوع كماهو حاصل فى كل يوم بلوندرة وغيرها من مدائن الانكليز ولايمكن أن لايجد العامل فيها عملا يغنيه عن بذل ماء الوجه وإخلاق الديباجة أو الانتحار ان كان فى نفسه شئ من الشمم والشهامة وأما لوندرة وحدها فقدشهد الاستاذ كيرهاردى نفسه وأكد بأن عدد العمال الذين لاعمل لهم هو ١٠٠٠٠٠ ومعلوم ان أقل تعطيل فى معامل أية مدينة من بلاد الانكليز يوجب انقطاع الخبز عن مئات ألوف من العمال كما تشهد به التلغرافات

فلا غرابة حينئذ فى أن مصر لم تخرج كثيرين من أهل السياحة والزيارة ومحبى الاستطلاع ولكن ذلك ليس برهانا على عدم استعداد أهلها لها بل ان البارئ جل وعلا خصهم أيضا بهذه الغريزة كما حلاهم بصفاء القريحة وجودة الذهن وسمو المدارك وغير ذلك من المزايا العقلية التى يعترف لهم بها حتى

Digitized by Google

أعداؤهم من الاجانب وانما الاعمال محك الرجال فلا يصح للعاقل المنصف حينئذ الآن يسخر ويستخف بأولئك السائحين الذين جاؤا مصر وحكموا بأن أهلها ليس فيهم اقتدار على السياحة وطلب العز فى التنقل فان أول طواف حول افريقية كان فى عهد الفراعنة الاقدمين وعلى سفائن المصريين وبواسطة المصريين خرجوا من بحر الروم مغربين حتى تجاوزوا بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق) ثم اجتازوا بحر الظلمات (المحيط الاطلانطيقى) الى أن بلغوا مايعرف الآن برأس عشم الخير ثم جابوا البحر الهندى وألقوا المراسى عند مدينة القلزم (قريبا من السويس) ومن نظر فى كتاب (مصر والجغرافيا) الذى وُفقت الى اظهاره حديثا اذعن بأنهم قد كانت لهم اليد البيضاء فى الاكتشافات الجغرافية التى حصلت ببلاد السودان وغيرها وان كانت رسائلهم وتقاريرهم وكتاباتهم لم تنل حقها من الانتشار حتى تكون بهجة فى عين المحب وقذى فى أعين المبغضين

الاندفاع للسياحة

ولقد صدق الفرنساويون فى المثل الذى أرسلوه حيث قالوا (ان الشهية تحضر وقت الاكل L'appétit vient en mangeant) واصدق منهم امامنا البوصيرى فيما أتى به من الحكم (ان الطعام يقوى شهوة النهم) فانى حينما أتيح لى مبارحة الربوع التى ألفتها

Digitized by Google

والديار التى عهدتها وهذه هى المرة الاولى عرفت مقدار الحنين اليها والتوجع من مفارقتها حتى لقد اشتد بى الوجد عليها وأنا بقلورانسه على مقربة منها ولايعرف الشوق الا من يكابده ولاينكر هذه العواطف النبيلة الامن تجرد منها ولكننى كنت كلما طوحت بى الاسفار أستأنس الى السياحة وأرى فى نفسى مايجذبنى الى رؤية بلاد كثيرة واقوام عديدة حتى انى لما كنت بلفربول شعرت بما يدفعنى الى زيارة بلاد الغال وقد دارت المكالمة بينى وبين بعض الانكليز على ماعزمت عليه من التوغل فى هذه البلاد فاستكبر هذا المشروع على شاب من المصريين وقال لى انه من باب المجازفة سيما مع قلة بضاعتى فى اللغة الانكليزية مع كونى لو كنت متقنا لها لما أفادتنى بشئ كثير لان أهل تلك البلاد لهم لسان آخر خاص بهم وهو بعيد عن الانكليزية بعدا شاسعا فقلت له ولم تقدمون أنتم الى بلادنا وتكتبون عليها مع عدم معرفتكم بلساننا ولاوقوفكم على اخلاقنا فقال لى اننا نستعين بما كتبه اسلافنا الذين خالطوكم وأقاموا بين ظهرانيكم فضلا عن انتشار لساننا فى أوطانكم وكثرة التراجمة الذين نستخدمهم فى التفهم والتفهيم فأجبته بانى لاأرى من مانع فى ان اكون لقومى مثل أولئك الاسلاف الذين تشير اليهم وانى

Digitized by Google

أستعين بترجمان من أهل تلك البلاد يفهمنى بالانكليزية وعلى قدر الامكان ماليس فى وسعى ادراكه من لغة قومها فان الانكليز والامريكانيين لابد أن يكونوا قدموا اليها وحينئذ فلاشك فى وجود نفر من أهلها يكاموننى بالانكليزية على قدر ماأفهم ثم أحطت صاحبى بمشروع سياحتى فى الاندلس والبرتقال وانى لاأفهم كلمة واحدة من اللغة الاسبانية فقال ذلك سهل عليك لانها قريبة من الفرنساوية والطليانية ولك بهما إلمام فسلمت له بسداد هذا الجواب فقال لى وهناك عوائق أخرى ربما لاتقوى على مقاومتها وهى البرد الشديد والرطوبة الزائدة وتوالى الامطار فى هذه البلاد الجبلية فقلت له وفوق ذلك فانى عازم على النزول الى مناجم الفحم الحجرى فهز رأسه وبرم شاربيه وتبسم ضاحكا ثم قال بصوت متقطع (اذا كان الكلام سهلا على اللسان فالعمل صعب على الانسان) فترجمت له ماقاله شعراؤنا (أنجز حر ماوعد - وان غدا لناظره قريب) ثم ودعته بعد ان وعدته بانى اكاتبه من هاتيك البلاد وركبت القطار فى عصارى النهار

دخول بلاد الغال

ولما وصلت الى مدينة شستر Chester استدعيت حمالا نقل متاعى الى قطار آخر وأعطيته جنيها ليستحضر لى تذكرة الى لنجوثلن Liengollen ويرد لى الباقى فذهب وغاب ثم رجع

موفيا بالمراد فأتحفته بما قدرنى الله عليه لانى افتكرت أنه كان فى وسعه عدم الرجوع ووصلت لنجوئلن فى منتصف الليل أو قبله بقليل وكان المطر متواليا عليها بما لم أعهده فى عمرى وأما البرد فيكفينى أن أقول انه أهدانى بالزكام مدة أربعة أيام وسمعت للمياه خريرا يشبه الهدير والزئير وكأنها متدفقة من صخور عالية متلاطمة على جنادل متوالية متساقطة فى جداول سافلة وبلغت النزل كالغريق لايخاف البلل فأوقدوا نارا حامية اصطليت بها واستأنست لها وماسمعت آذان الديكة فى الايكة وتسبيح الاطيار على أفنان الاشجار حتى وثبت الى الشباك وألقيت نظرا متسارعا الى ماأمامى من المناظر فاذا جبال شاهقة تكسوها خضرة رائقة تتخللها ازهار شائقة تكتنفها أشجار باسقة تنساب بينها مياه دافقة لونها ضارب الى الاصفرار والاحمرار مثل مياه النيل المبارك أيام الفيضان فانثلج فؤادى كما انثلج جسمى وقرت عينى بباهر هذه المناظر وجمال هذه الحال حتى عولت على اطالة الاقامة فى هذه المدينة الصغيرة التى يبلغ عدد سكانها ٣١٣٣ نسمة فأخلدت الى الراحة فيها وترويح البال بمرائيها بعد أن لاقيت من لغط المدائن الكبيرة وضجتها ومتناهى اضطرابها وحركتها ماجعلنى محتاجا لقليل من الراحة حتى يعود لى النشاط لموالاة السياحة

لنجوئلن ومناظرها

ومن الغرابة أنى علمت بعد مبارحتى اها بزمان ان أهل التجوال لا يحطون بها الرحال الا للاستراحة

* فانها مدينة صغيرة واقعة على نهر الدى (ومعنى دى باللغة عوميات على الغالية الاسود وبالانكليزية بلاك) وتسمى بلسان أهلها لنجوثلن وان كانوا يرسمون اسمها فى الكتابة هكذا (للنجوللن) وعلى نحو ميلين منها اطلال دارسة لدير قديم وهى أجمل مابقى من عمائر القدماء فى شمال هذه الاراضى وعلى ميل ونصف منها بقايا حصون منيعة قائمة بشكل مخروطى على تل مرتفع يطل على المدينة ويصد عنها المغيرين عليها وقد زرتهما بالتفصيل وشاهدت أعمال الحفر فيهما وكشف ما كان دارسا تحت الارض منهما وفيما وراء هذه الحصون يمتد النظر الى مسافة أربعة أميال تشغلها جبال طباشيرية وتتخللها مروج أريجة ومراع فسيحة ويحف بالمدينة من الشمال الى الجنوب واد بهى بهيج يبلغ طوله ٢٤ ميلا ينعش الفؤاد ويشجى النفس بنوره وزهره وخضرته وقد آثرت التوجه اليه على عربة فى طريق البر عن ركوب القطار حتى أتمتع باجتلاء محاسنه وتسريح الطرف فى مشاهده ورأيت ماأبقاه فيه الدهر من آثار القصور الدارسة التى تتعلق بما كان لها من المكانة فى الفخامة والجلال وتشهد بان الايام خلعت عليها ماعندها من الجمال

لنجوثلن

طباع أهل الغال

وقد تنقلت من هناك الى قرى كثيرة حول لنجوثلن وتحققت فى أهل الغال بشاشة وبشرا وائتناسا ويسرا مع الطباع الكريمة والاخلاق الفاضلة النبيلة ولهم بالغريب حفاوة وأى حفاوة فهم يتهالكون على خدمته والاجتهاد فى مرضاته من غير أن تكون لهم غاية مافى ديناره وخلاصة القول انى عهدت فيهم تلك السجايا البدوية العربيـة الفاضلة التى تتجلى مظاهرها فى الارياف والخلوات أكثر منها فى المدائن والامصار وهذا ماحدانى على إطالة المكث بلنجوثلن أكثر مما تستحق فى الحقيقه وخصوصا ان الفندق الذى نزلت فيه وهو (هاند هوتل Hand Hotel) قد قام أهله بخدمتى فوق اللازم ويسروا لى جميع المطالب بما كتب لهم على صحيفة فؤادى آيات من الشكر لايمحوها الدهر ولقد وطنت نفسى على الذهاب الى هذه المدينـة اذا ساعـدتنى العناية بالقدوم الى أوروبا مرة ثانية

نساء الغال

وقد رأيت النساء فى بلاد الغال يفـقن أضرابهن فى بلاد انجلترة الحقيقيـة فيما هو من مميزات الجنس اللطيف مع ماهن عليه من البساطة التى تستوجبها المعيشة الخلوية وبعـدهن عن التأنق الذى يضطر اليه أترابهن حينما يطلعن فى سماء الامصار وللسيدات فى لنجوثلن جمعية خاصة بهن فى دار هى فى الحقيقـة

تحفة للناظرين وطرفة للقادمين فقد حوت من آثار الصناعة وبدائع الاعمال مالا يمكنني المقام من استيفائه الآن فانها كلها من الخشب القديم المشغول شغلا دقيقا على يد أمهر الصناع وفيها طرائف قديمة ومجموعات نفيسة من حلى وجواهر ومتاع فاخر وصور ومناظر وأسلحة ونقوش وأشكال وأوانى يليق بها ان تعرض فى أهم المتاحف المعتبرة وفيها رجام قبر من الرخام مكتوب عليه عبارة باللغة التركية

معامل الصوف

وفى هذه المدينة الصغيرة أكثر من اثنى عشر معملا لغزل الصوف ونسجه يديرها التيار والبخار وقد تفرجت على بعضها ورأيت الصوف كيف يفرز ثم ينظف ثم يغزل ثم ينسج ثم يغسل ثم يكوى ثم يلف وكل ذلك بواسطة الآلات وتحت مراقبة شرذمة من الغلمان وثلة من البنات

منبع الدى

ولا أعلم كيف استولت على الرغبة فى التوجه الى منبع نهر الدى ورؤيته وهو يخرج من البحيرة التى تجتمع فيها المياه المتساقطة من الجبال فجهزنى أهل الفندق بما يلزم وأحضروا لى ترجمانا صاحبنى فى ذهابى بالسكة الحديدية الى مدينة بالا Bala وسرت مسافة ساعة حول بحيرتها ورأيت الجداول تنساب من قلل الصخور القريبة منها وتنهال فى حياضها ثم تجرى الى الوادى فيتكون منها نهر الدى

وصف مناجم الفحم الحجرى

كل ذلك والمطر متوال لا ينقطع الا مقدار خمس دقائق تطلع فيها الغزالة ثم لا تلبث ان تختبئ وراء حجاب السحاب يكتنفها قوس قزح مزدوجا بل قد لا تمهلها الامطار ريثما تختفى عن الانظار ولقد طاب لى المقام فى هذه المدينة الهادئة المطمئنة مع مافيها من التغيرات الجوية التى لا تخطر على بال من تعود اقليمنا ولكنى ماقدمت فى الحقيقة الى بلاد الغال الا طمعا فى رؤية مناجم الفحم الحجرى اس الصناعة وينبوع الثروة ومحور العمران فى هذا الزمان ذلك المعدن النفيس الذى يجدر بنا أن نسميه الحجر الكريم والاكسير الصحيح فانه فضلا عن فوائده المتعارفة قد استخرج منه علماء الكيمياء اصباغا باهية متنوعة واعطارا أذكى من جميع الاصناف المعروفة وسكرا يباع فى الصيدليات والدرهم منه يوازى أكثر من ثلاثين من أجود أنواع السكر المعتاد وقد أثبتوا أن حجر الماس من الكربون وبذلك يجوز لاهل البيان أن يقولوا ان الماس من الفحم فى الحقيقة والمجاز (وسبحان من يفتق النور من رتق الظلمات ويخرج الاحياء من الاموات) وفيه غير ذلك من الجواهر والمنافع والمزايا التى ربما أتعرض لشرحها عند الكلام على المنجم الذى زرته بالتدقيق والتفصيل فانى قمت من لنجوثلن يصحبنى ابن ربة النزل حتى وصلت الى مدينة شيرك Chirk

على طريق يشبه السكك الزراعية فى بلادنا وانعطفت منها الى منجم بقربها

وما تمكنت من زيارته الا بعد عناء شديد لان القوم حسبونى فى أول الامر رائدا من طرف أصحاب المناجم الالمانية جئت أسترق أسرارهم وأقف على طرائقهم الى غير ذلك مما يخشاه أهل الفن الواحد من بعضهم ولكن المدير لما عرف صفتى ووطنى واطلع على رقعة زيارتى فتح لى الابواب ومهد امامى الطرق وأتحفنى بكافة المعلومات وأعطانى نسخا من التقارير الرسمية والرسائل الفنية لاستعين بها على الاشباع فى هذا الموضوع ثم قام بنفسه وطاف معى جميع الاماكن وأحاطنى بكيفية العمل ثم أمر وكيله ان ينزل معى داخل المنجم بعد آن ألبسنى رداء قصيرا من الجوخ الغليظ الخشن وسلمنى هراوة أتوكأ عليها وأستعين بها على التلمس فى السير داخل هوة النفق الحالكة وأعطانى مصباحا من مصابيح الامان اهتدى به فى السير واستعين به على النظر ثم قدم لى شيأ من المرطبات وقال لى (قد صرت الآن من عمالنا فاخضع لنواميسنا فبادر بالعمل بلا مهل) فامتثلت وانحنيت مع الوكيل فى أحد الصناديق الموضوعة على المركبة المعدة

Digitized by Google

لاخراج الفحم من جوف الارض الى وجهها فهوت بنا المصعدة (Asceneur) وكان سطح الصندوق الاسفل يفر من تحت أقدامى بمناسبة سرعة الآلة فى النزول حتى رست بنا على بعد ثمانمائة متر عن سطح البسيطة فاستلمنا أحد العمال وفتش جيوبنا لئلا يكون معنا شيء من الدخان أو الكبريت أو المواد القابلة للانفجار ثم فحص المصباح الذى معنا (وكان الوكيل نفسه خاضعا قبلى لهذا الاختبار) وبعد ذلك سمح لنا فى المرور فسرنا من سرداب الى سرداب صاعدين هابطين مقبلين مدبرين بالتواء وانعطاف بحسب اتجاه عرق الفحم فى بطن الارض وكنا نمر على سكك حديدية عليها قطارات مختلفة الاتجاهات بحسب دفع البخار وجذبه بواسطة السلاسل الحديدية وفى الجهات المطمئنة رأينا خيولا تجر العربات مشحونة بالفحم وتتركها بجانب المصعدة فترفعها الى وجه الارض ولهذه الخيول التى لاتنقص عن الثلاثين اصطبلات فى السراديب فيها كل ماتحتاجه من المؤونة والراحة وفى السراديب حنفيات للمياه وتنانير للنيران وآلات للبخار وفوهة كبيرة عليها آلة عظيمة تدخل الهواء بكثرة زائدة الى هذه الهاويات العميقة وهذا المنجم مركب من دورين أحدهما فوق الآخر فالاول تحت سطح الارض بمسافة ثلثمائة متر والثانى تحته

بخمسمائة متر وقد طفت فيهما ثلاث ساعات ولم يتيسر لى أن أسلك فى كل طرقاتهما لان ذلك يستغرق يومين أو ثلاثة

ولكننى استعضت عن ذلك بالتوجه الى أقصى ناحية وصل اليها العمال واقتنعت بذلك ودخلت الى أبعد نقطة فى كليهما حيث رأيت العمال يقيمون الاخشاب لاسناد السقف حتى لاينهار عليهم و وقفت حينئذ معجبا باقتدار الانسان واذا بفكر مظلم تولانى فاقشعر منه جسدى ووقف له شعر رأسى اذ مرّ على ذاكرتى كالسهم الخاطف تاريخ تلك الكورات والقوارع الكثيرة الوقوع فى المناجم وتذكرت أحدثها وهو ما كنت قرأته بالجرائد الافرنكية فى مصرفى شهر مارس الماضى من الانفجار الذريع الذى حصل بأحد المعادن فى بلاد البلجيكا حتى انه لشدة الرجة التى أحدثها جعل أهل البلاد البعيدة عن موقع هذه الطامة بمسافة خمسة كيلومترات يتخيلون حصول زلزال عنيف ومالبث الخبر أن انتشر حتى توافد الناس أفواجا الى محل الوقعة الفظيعة وأخصهم أهالى العملة وعيالهم واشتغل أهل الاقدام والجراءة بترتيب وسائل استنقاذ الارواح من هذا الموت الزؤام ولكن اجتهادهم ذهب ادراج الرياح وضاعت مساعيهم سدى فقد كتب الله أن تكون هذه الطامة عامة فانهم شعروا بتزعزع جديد فى

Digitized by Google

بواطن الارض أعقبه صياح رنان (النار النار) وأبصروا الشرر
يتطاير فى الهواء من بئر التهوية يحيط به دخان كثيف كان يتسارع
الى وجه الارض نذيرا باعتراك العناصر فى احشائها واجتماعها
على اهلاك من فيها من العملة المساكين بشر أنواع العذاب المبين
ثم انهار أحد جدران بئر التهوية فساعد على اشتداد النيران وقطع
حبال الرجاء فى الانقاذ والفداء وكان الناس وهم فى حالة اليأس
يسمعون زئيرا شديدا يخرج من الاعماق و يشعرون باضطراب
وارتجاج وفى بعض الاحيان كانت تهب عليهم روائح خصوصية
وتهاجمهم أبخرة كبريتية فتعلمهم باشتداد الكرب وتوالى الخطب
وتنبئهم بان الحريق آخذ فى الازدياد وانه لا مطمع فى استخلاص
ضحايا النار حتى اصفرت الوجوه وذهبت العقول وضاع الصواب
فأقبل كثير من الحاضرين وفيهم جم غفير من النساء يترامون
على البئر وقد أحاط به الجند ولم ينجحوا فى صد المعتوهين عن
اللحوق بآبائهم وأزواجهم وأبنائهم وأقربائهم لانقاذهم من مخالب
النار الا بعد أن أشهروا السيف البتار وتكاثفت جموعهم
فزحزحوا الناس بقوة السلاح وهم ينظرون اليهم بعيون زائغة
تنظر ولا ترى وأفواه تصطك أسنانها وقد انعقد لسانها ووجوه تولاها
الذهول واعتراها الخبال فصاروا كالاشباح بلا أرواح ولا أتذكر

الآن بالضبط عدد الذين ذهبوا فريسة هذه القارعة ولكنى أذكر انه يبلغ المائتين وهذه حادثة واحدة من كثير دونها تاريخ المناجم وكنت أفتكر فيها كلها ولم يخرجنى من هذا الحال الاتناجى العمال بلسان الغال فاننى لو كنت من البارعين فى فن المفارقات لقلت انه يتركب بحسب هذا البيان (أى النسخة باعتبار بعض المصريين)

قيراط

٨ ألمانى

٢ انكليزى

١٠ لاوندى

٢ يونانى

١ سريانى

١ عربى وعبرى

٢٤ ممزوجة مع بعضها ينشأ عنها اللسان الغالى

وحينئذ بادرت بالخروج الى وجه الارض وشكرت افضال المدير وان ارتجف من هول الخطر الذى ألقيت بنفسى فى تهلكته ولكننى قلت فى نفسى ان الذى يجىء بلاد الانكليز ولايرى معادن الفحم الحجرى فلا يصح له أن يقول انه كان فى انجلتره أوزار هذه الجزيرة

ثم انطلقت من هذه المدينة (شيرك) الى مدينة أخرى

Digitized by Google

تفرجت فيها على معمل اصطناع الطوب المطبوخ (الآجر) بواسطة البخار وهو معمل كبير يأخذ الطين اللازم من تل كبير مجاور له ثم انتقلت الى مدينة أخرى قريبة منها ورأيت فيها العملة يلعبون بعد خروجهم من المعادن بالكرة بأقدامهم (الفوت بول) وهو لعب رياضي خاص بالانكليز ولهم فيه مهارة غريبة

ومن هنا ركبت القطار راجعا الى شستر وهي فيما بين بلاد الغال و بلاد الانكليز ولكنها تعتبر من الثانية ومع ذلك فأذكر عليها الآن تفصيلا قليلا

مدينة شستر هذه المدينة قديمة أسسها الرمانيون على مصب نهر الدى الذى يمر على لنجوثلن وعدد سكانها ٣٦٧٩٤ نفسا ولايزال فيها كثير من بقايا الرومان وأبراجهم وأسوارهم التى هى كشوارع معلقة فى المدينة اعتاد الاهالى على النزهة والرياضة فيها و يبلغ طولها ميلين ومن الامور التى انفردت بها ان برازيق الطريق يكون عليها حوانيت وخلفها مماشى فيها دكاكين أخرى وفوق الحوانيت الامامية يرتفع الدور الاول من المنازل فيكون الشارع عليه من الجانبين صفان من المخازن وخلف كل منهما ممشى فسيح مواز للشارع وعليه دكاكين أخرى وسقفه هو أرضية الطبقة الاولى من المساكن وفيها كنائس عتيقة بعضها مشيد بالطوب

Digitized by Google

الاحمر وفيها ميدان فسيح تتسابق فيه الخيول فى بعض أيام السنة وخلاصة القول أن لها منظرا انفردت به دون المدائن التى مررت عليها ببلاد المشرق وأوروبا وقد اشتهرت بصناعة الجبن وان لم يكن من طبيعـة أهلها فقد بيضوا صفحات تاريخهم بالذود عن حياضها أيام كانت بلاد الانكليز منقسمة الى ممالك صغيرة كثيرة فى عراك مستديم وحروب مستمرة

والى هنا أستوقف اليراع عن الافاضة فى شرح ماعندى من المعلقات والمفكرات فان ماذكرته عن بلاد الغال قليل فى جانب مااستحصلت عليه من الفوائد والمعلومات ولكن القليل دليل على الكثير

الرسالة الثالثة عشرة

العـودة الى لوندرة

(وفيها ايماء بايجاز الى نهر التيمس وقناطره والانفاق التى تحت الارض والحدائق والكنائس والقصور وبنك انجلتره ودار الضرب وبرج لوندرة ومحلات البر والاحسان ومؤنة المـدينة وميناها وتنويرها ومطافئها وشربها ومصارفها وضواحيها (رشمنـد ببساتينها ووندسور بقصر الملكة ورياضها) ومعرض « مصر القديمة » فى لوندرة والصناعة الشرقية العربية فيه واستنهاض الهمم اليها)

رجعت من بـلاد الغال الزاهرة التى هى فى انجلـترة بمثابة سويسرة بما يتجـلى فيهامن محاسـن الطبيعـة ونضرة الخـلوات ونزلت ثانيـة بعاصمة الانكليز ورأيت فيها مارأيت مماقصصت بعضـه فى رسالتى الاولى عليها وهى وان طالت بقـدر ماطالت فليست فى الحقيقة بالنسـبة لهذه المدينة الا كالبعوضة بجانب الطود الشامخ ولايطاوعـنى قلمى عـلى الانتقال منهـا الى غـيرها ولـكننى لايتسـنى لى بأى حال من الاحوال ان افيض فى شرح الكلام على التيمس وقناطره الاربعـة عشرة وأرصفته المنضودة الممـدودة على جانبيـه أوالانفاق التى تمـر تحت قاعـه كأن

الآلاف المؤلفة من العربات المختلفة الانواع وقطارات البخار والترامواى والزوارق التى تجرى على وجه النهر كعدد النمل كلها غير وافية بحاجات أهل هذه المدينة للانتقال من شاطئ الى شاطئ فقادهم ميلهم للاختصار وتوفير الزمن وتسهيل العمل الى احداث هذه الاعمال الشاقة فان أحدها (تيمس تونل) يبلغ طوله ٣٦٦ مترا وهو عبارة عن ممشيين معقودتين متصلتين ببواكى واساطين على مسافات متساوية ويمر تحت قاع الماء بخمسة أمتار وقد بلغت نفقاته ١٥,٣٥٠,٠٠٠ فرنك وكان فى أول الأمر مخصصا لافراد الناس ينزلون اليه من سلم مظلم منزلق ارتفاعه ١٩ مترا ولكنه لم يحز من الخلائق اقبالا مع كون أجرة المرور كانت زهيدة جدا وهى بنس واحد (٤ مليمات) فاشترته شركة خصوصية فى سنة ١٨٧٢ ومدت فيه خطوطا حديدية تجرى عليها القطارات وتتصل بسكة حديد العاصمة وقد كان انشاؤه فى سنة ١٨٢٥ وأما النفق الثانى فهو بجانب برج لوندرة واسمه (تور سبوى) وهو عبارة عن قناة من حديد الزهر قطرها متران وطولها ٣٧٥ مترا ينزل اليه من سلمين حلزونيين على ٩٦ درجة موضوعين على كل من ضفتى النهر (واجرة المرور نصف بنس أى مليمان) وكان البدء فيه فى شهر فبراير سنة

١٨٦٩ واتمامه فى شهر ابريل سنة ١٨٧٠ ولم تزد نفقاته عن ٤٥٠٫٠٠٠ فرنك

وأما الثالث فقد انشأته شركة السكة الحديدية الكهربائية وقد احتفل البرنس دوغال بافتتاحه فى ٤ نوفبر سنة ١٨٩٠

ثم انى خصصت هذه الرسالة لذكر بعض آثار لوندرة وعمائرها وقدمها وضواحيها ولكنى لا أجد متسعا للقول على حدائقها العشرة التى يضرب بها المثل فى العالم كله ولا على بستان البنات وما فيه من غرائب الحيوانات ولا على كنائسها المهمة مثل القديس بولس ودير وستمينستر والهيكل والكنائس الانكليزية والبيع المنشقة عنها والبيع الكاثوليكية والاجنبية فان عددها فى المدينة وارباضها يناهز الالف ونصف الالف ولليهود فيها ٦٠ كنيسا الى غير ذلك من أماكن العبادة العديدة التى أقامتها طوائف دينية لا يحصيها الا الله . وكيف يتسنى لى أو لغيرى تلخيص شئ وجيز فى مثل هذه العجالة عن قصور تلك المدينة مثل دار الندوة (البرلمان) وقصر سان جمس وقصر بوكنجم والويت هول (وقد كان فيه اعدام الملك تشارلس الاول) وقصر مارلبورو وقصر كنسنتن وقصر لمبث (وهو مقر رئيس أساقفة الكنيسة الانكليزية) وقد رأيت فيه مصحفا بخط أحد سلاطين مصر

Digitized by Google

موضوعا فى الكنيسة بجانب الانجيل وغير ذلك من قصور الملوك والامراء أو المخصصة للنوادى والاجتماعات وبمثل ذلك أعترف بانه ليس فى وسعى أن آتى بلمع يسيرة عن الأماكن المدنية والعمائر العمومية مثل جلد هول (الذى هو دار أمانة المدينة) وفى أحد قاعاتها تمثالان عظيمان من الخشب المجوف يمثلان يأجوج ومأجوج وتسع هذه القاعة ٧ آلاف نفس وفيها مكتبة حرة فيها سبعون ألف مجلد وفيها متحف للآثار والمخلفات الباقية من لوندرة القديمة وقد عرضوا فيها امضاء شاعرهم شكسبير على عقد مبايعة اشتروه للمتحف بمبلغ لا يقل عن ١٤٥ جنيها وفى الدار تلك العربة التى يركب عليها اللورد أمين المدينة فى التاسع من شهر نوفمبر يوم الاحتفال بتثبيته وتبلغ النفقات اللازمة لترميمها ٢٥٠ جنيها فى كل سنة منذ انشائها فى سنة ١٧٥٧ أو المنشن هوس (هو القصر الذى يسكن فيه اللورد أمين المدينة مدة سنة انتخابه) أو البنك (ويرد اليه فى كل يوم ٥٠ ألف ورقة قيمتها مليون جنيه فيمزقون أحد أطرافها و يحفظونها مدة ١٠ سنوات ويصدرون غيرها للتعامل وفيه مطابع كثيرة كلها واحدة تخرج فى اليوم الواحد ١٦ ألف ورقة مختلفة القيمة وقد بلغ عدد الورق الذى أرجع الى البنك فى يوم ٨ اكتوبر سنة ٩٢ ٦٧٤١٧ وقيمتها ٤٥٠٧٢٧٥

جنيها ورأيت فيه ورقة قيمتها مليون جنيه ولا ثانية لها ورأيت ورقة تداولتها الايدى مده ١١١ سنة وبلغت أرباحها المركبة ٦٠٠٠ جنيه وفيه ٤٩ مكتبا ويحفره بالليل قره قول فيه ٣٤ عسكريا وضابط واحد وهو غير قابل للاحتراق وفيه سبائك كثيرة من الذهب الابريز والفضة الخالصة وفيه آلة لوزن الجنيهات تلقى بالجنيهات الصحيحة فى مكان و بالتى نقصت بالمداولة والمعاملة فى مكان آخر وتزن فى الدقيقة الواحدة ٣٣ جنيها وفى كل يوم من ٦٠ ألف الى ٧٠ ألف جنيه وقد كان رأس مال البنك فى أول الامر ١٢٠٠٠٠٠ جنيه وصار الآن ١٤٥٥٣٠٠٠ جنيه انكليزى وقد بلغ عدد الورق الذى صدره البنك فى خمس سنوات ثم عاد اليه ودفع قيمته ٧٧٧٤٥٠٠٠ ورقه بنك نوت تملأ ١٣٤٠٠ علبة واذا وضعت هذه العلب بجانب بعضها بلغ طولها ميلين اثنين وثلث ميل ولو وضعت هذه الاوراق فوق بعضها لكان ارتفاعها خمسة أميال وثلثى ميل ولو صفت الى جانب بعضها طرفا لطرف لتكوّن منها شريط طوله ١٢٤٥٥ ولو حسبنا مسطحها لوجدناه يساوى مسطح حديقة الهايد بارك (ومعلوم ان سطحها ١٦٠ هيكتارا) وقد كانت قيمتها الاصلية عبارة عن ١٧٥٠٦٢٦٦٠٠ جنيها انكليزيا وثقلها ٩٠ طونولاطة وثلثا طونولاطة

ولاأذكر الآن شيأ عن البورصة وأعمالها ودار البوسطة والتلغراف والكمرك ودار الضرب (ويبلغ عدد العملة التى تصطنعها فى الاربعة وعشرين ساعة ٥٠٠٠٠ جنيه انكليزى) وكيف يتسنى لى التلميح بكلمتين الى برج لوندرة وما فيه من الاسلحة الفاخرة والحلى المجوهرة أو المتحف البريطانى وقد طار صيته فى الآفاق بكثرة مافيه من الذخائر والاعلاق وتنوع النفائس واختلاف المخلفات مما يجعله فى مقدمة متاحف الدنيا حتى ان غرفة المطالعة فيه لامثيل لها فى العالم كله بل ان مجرد المرور على مافيه من المحفوظات يستغرق نحو الاسبوع بالتمام بل ان برنامجاته وفهارسه هى عبارة عن مجلدات ضخام ويجىء بعده غيره من المتاحف الكثيرة المتنوعة ومعارض الصور والرسوم والفنون والعلوم

وماذا عسانى أقول الآن على نظام البلدية فى هذه المدينة الواسعة أو على ترتيب الشرطة الذين يزيد عددهم عن ١٤٩٠٠ رجل أو على محاكمها الكثيرة العدد المتنوعة الاختصاصات أو على مدارس الحقوق الاربعة أو على محلات البرّ والاحسان ودور النقاهة والجمعيات الخيرية المخصصة لتربية أبناء الفقراء فان عددها يتجاوز الالف ومقدار المبالغ التى تنفقها بمافيها التبرعات

والهبات (والنقوط التي تجمع فى الكنائس) تزيدعن سبعة ملايين من الجنيهات والمستشفيات فيها على أنواع فنها ماهو عمومى ومنها ماهو مخصص لبعض الامراض مثــل مداواة الطواعين والوقاية منها وعلل الصــدر والربو والرمد وادواء العــين وغــير ذلك من الآفات والعاهات ومنها ماهو للمجاذيب (وعددهم فى بعضها ٥٠٠ ولاغرابة) ومنها ماهو للاطفال أو للنساء أو للولادة هــذا بصرف النظر عن الاجزاخانات العديدة التي توزع الادوية احتسابا لوجه الله وعدد الاسرة فى هذه المستشفيات يزيد عن ٩٠٠٠ ويدخل بها فى السنة أكثر من ٨٠,٠٠٠ مريض وهى توزع الادوية مجانا على أكثر من ١,٢٣٠,٠٠٠ نفس وفى بعضها مــدارس للطب والتشريح أو الاقرباذين أو غــير ذلك مــن فروع الطب وفيها كتبخانات معتبرة ومتاحف متنوعة ومعامل كيماوية وغرف للطبيعة و بساتين للنبات ومجاميع باتولوجيــه وغــير ذلك وفيهــا مرابي للايتام قديزيد عددهم فى بعضها عن ٤٦٠ وقد كان أحد الماهرين فى صــناعة الموســيقى يجيء فيها ويقرع أرغنا فى غاية الاتقان أهداه له (وهو فيــه الى الآن) وكانت الخلائق تتهافت على هــذا المكان من كل فج لسماع هــذا المطرب الفريد وقد تحصل من أجرة دخولهم مبلغ يزيد على ١٠٠٠٠ جنيه خصصه

Digitized by Google

للمربى ومن فيه من الايتام ولم يأخذ منه بارة واحدة وفى لوندرة فضلا عن ذلك كثير من الاماكن الخيرية وجمعيات البرّ ومساعدة العملة والسعى فى نفع بنى الانسان وفيها كثير من التكايا التى يجبر المتكففون على الدخول فيها والاشتغال بما هم أهل له وفوق ذلك ترى هناك كثيرا من المستشفيات المختلفة الانواع لاجل الجنود البرية والبحرية الذين أصابتهم العاهات

وما ذا أقول على المؤنة فى مدينة يزيد عدد السكان فيها عن الخمسة ملايين ونصف مليون وكلهم لابد لهم من الطعام فيها أربع مرات تقريبا فى كل يوم حتى ان ماتستهلكه فى العام الواحد يبلغ هذه المقادير

٨٠٠,٠٠٠ ثور

٤٠٠,٠٠٠ رأس من الضأن والعجول والخنازير
(وقد أثبت علماء الاحصاء ان متوسط مايستهلكه النفر الواحد من سكانها فى اليوم الواحد يزيد عن ١٤٠ جراما من اللحم)

٩,٠٠٠,٠٠٠ من الطيور وحيوانات الصيد
(أما الاسماك مثل سمك المرجان المعروف فى كتب العرب باسم طرستوج وعند اليونان طريفلا وعند عوام

الاندلس المول . ثم السلباج المعروف بالمارماهيج وبالنون وبالانقليس وبثعبان البحر . ثم التن (واسمه كذلك فى كتب العربية) . ثم السردين واسمه عند العرب العرم .

ثم ومحصولات البحر من الحيوانات الرخوة مثل الجندفلى والقرقله والاستردبا والمحار بانواعه والسرطان الكبير وأبو جلمبو وأبو تككنى والبضالينس وبراغيث البحر و بلحه والحلزون والسرطان وقنفذ البحر المعروف عند أهل الاسكندرية الآن باسم رتسا ويسمى عندهم أيضا قنشد (ولاشك عندى ان هذه اللفظة محرفة عن كلمة قنفذ) وغير ذلك من الاصناف العديدة التى لاأعرف أسماءها فانها تنهال على المدينة بمقادير هائلة لايتصورها العقل يشهد لذلك ان هنالك آلافا وآلافا من الزوارق والقوارب لاحرفة لها سوى نقل هذه الحيوانات الرخوة القوقعية والروبيان هى المعروف عند الفرنساوية باسم هومار (Homard) وقال ابن البيطار (ان المصريين يسمونه فرندس وان أهل الاندلس كانوا يسمونه قرون)

١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ هيكتو لتر من اللبن

٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ بيضة

١٠٠٠٠٠٠٠٠ كيلوجرام من السمن والزبدة

٢٠٠٠٠٠٠٠ كيلوجرام من الجبن

٤٥٠٠٠٠ طونولاطه من أصناف الخضروات المهمة ومنها نبات الحرف فقط (وهو المعروف عند العرب أيضا بالرشاد وعند الفرنساوية بالكرسون (Cresson) مامقداره من ثمانمائة الى تسعمائة طونولاطة

٥٠٠٠٠ طونولاطه من أنواع الفاكهة

وغـــــيرذلك وغير ذلك وغير ذلك

أما السوائل التى يستهلكونها فلا تقل عن ذلك بل هى أيضا بنسبة هـذه المقادير الهائلة فانها تتجاوز ١٨٠ مليون لتر فى الاربعة آلاف خمارة والسبعمائة ألف بيت خصوصى ويمكن تقدير المشروبات الروحيـة بثمانية عشر مليونا من اللترات واذا قابلنا بين النبيذ وبين الجعة (البيرة) وجدناه شيأ لايذكر بجانبها اذ لايشربه الا الاواسط والاغنياء ومع ذلك فكمية استهلاكه فى العام الواحد لاتقل عن ٣١ مليونا من اللترات أما الفحم الحجرى فيجىء منه فى كل عام كميات تزيد على ١١ مليون طونولاطـة وثلاثة ارباع المقادير الجسيمة ترد عن طريق النهر والباقى فى السكة الحديدية

Digitized by Google

وأهم أسواقها (وهو سوق سميثفلد) يشغل مسطحا قدره ٣٧ ألف متر وفيها سوق آخر (اسمه سوق البهائم) قد يسع فى آن واحد ٧٠٠٠ ثور و ٢٠٠٠ عجل و ٣٥٠٠٠ شاة و ٤٠٠ خنزير وقد يكون فى بعض الايام مخصصا لبيع الخيول وفيها سوق آخر للسمك والقواقع ليس الا وآخر للاطيار فقط وآخر للخضار والاثمار والازهار دون ماعداها وآخر للخيل وحدها الى غير ذلك مما يطول شرحه

أما التجارة والصناعة والمينا وأحواضها ومخازنها فهى عالم كبير مستقل بنفسه ولا أعلم ماذا أقول عنها الآن بعد أن تحققت ان ميناءها هى أهم موانى العالم وأكثرها محطا للسفائن اذ أن متوسط مايرد عليها سنويا يبلغ ٧٠٠٠٠ سفينة مجموع حمولتها ١٢٠٠٠٠٠٠ طونولاطة وقيمة مافيها من البضائع والارزاق يزيد على مائة وعشرين مليونا من الجنيهات الانكليزية أما الاحواض ومخازن التجارة فمن أهم مناظر لوندرة وأبدعها تجعل للناظر (خصوصا اذا وقف على قنطرة لوندرة — لندن بريدج —) فكرة فى أهمية العاصمة الانكليزية وجسامتها واتساع نطاقها بما فيها من المراكب المتراكبة والبضائع المتراكمة والخلائق المتزاحمة ولا يسمح لى المقام بتفصيل قليل عن حركتها الهائلة

Digitized by Google

وفى المدينة ثلاث شركات متعهدة باضاءتها بالغاز وقد قدره أهل المعرفة بمبلغ ٥٦٠ مليونا من الامتار المربعة وتستهلك للحصول عليه مليونى طونولاطه من الفحم الحجرى وغازالاستصباح هذا يجرى فى قنوات مجموع طولها ٤ مليون كيلومتر وتزيد النفقات السنوية عن ٣٦٠٠٠٠٠ جنيه مع ان المبالغ اللازمة لسقى المدينة بالمياه لاتصل الى نصف هذا المبلغ الجسيم وهنالك شركات كثيرة تألفت للاضاءة بالنور الكهربائى وكان قبل هذه السنة قاصرا على منازل الافراد ومخازنهم ولكنه فى أول هذا العام صار استخدامه فى بعض الشوارع المهمة والميادين الاصلية

ويجرنى الكلام على النور الى الحديث على النار فقد كان رجال المطافئ قبل سنة ١٨٣٣ تحت ادارة شركات خصوصية تجارية أو تابعين لبعض فروع الادارة البلدية وكانت نتيجة هذا الافتراق وقوع أضرار بالغة لانهم فى أغلب الاحيان كانوا يتركون النار تفعل أفاعيلها وتلتهم المنازل التى لم تكن مؤمنة عندهم أو تابعة لهم ولكن هذه الشركات اجتمعت كلها فى تلك السنة واتحدت وامتزجت ببعضها فألفت شركة عمومية واحدة لمقاومة الحرائق واعلم ان لعمالها مهارة لايناظرهم فيها أحد فى الكون الا ماعلمته عن رجال المطافئ فى أمريكا ويستخدمون فى مصلحتهم

Digitized by Google

١٨ سلكا تلغرافيا و ٧٥ سلكا تلفونيا يجمع بينها وبين بعضها ٥٥ مكتبا اداريا فاذا شبت النار فى بعض المواضع تيسر لهم أن يستحضروا من الآلات والاجهزة كل مايلزم فى بضعة دقائق وتتصل مراكز رجال المطافى بدواوين النظارات والمصالح العمومية والمتاحف والمعارض وغير ذلك من المبانى الاميرية بواسطة ٣٨٥ منزولة استغاثة وعدد رجال المطافئ ٧٠٠ ولهم زى مخصوص معروف وعندهم ٤٧ طلمبة بخارية و ٩ طلمبات بخارية عوامة و ٢٢٤ سلم للاستنقاذ من مخالب الحريق وغير ذلك من الاجهزة الكثيرة المتفرقة فى كافة أنحاء المدينة وقد أطفؤا فى سنة ١٨٩٠ حرائق بلغ عددها ٢٥٥٥ منها ١٥٣ ذات أهمية عظيمة ومات فى هذه الحرائق ٤٤ شخصا

وبعد الكلام على النار يجىء بالطبع الكلام على الماء فاعلم ان المياه اللازمة للشرب فى لوندرة ليست من نهر التيمس بل قد تأسست شركات عديدة لجلبها من غدران ونهيرات أخرى فى قنوات هائلة مرفوعة على عمدان عظيمة وقباب جسيمة (مثل الدواميس المعروفة بالعيون التى كانت تستقى بها قلعة الجبل فى الزمان السابق ولاتزال آثارها باقية الى الآن) ثم تنصب المياه فى أحواض واسعة ثم ترشح من قاعها بمرورها على أحجار هشة

Digitized by Google

تعلوها طبقات من الرمل الغليظ والحصى الدقيق وتبلغ كمية المياه
الواردة الى المدينة فى كل يوم بالتعديل المتوسط ٦٧١,٠٠٠,٠٠٠
لترا منها ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ يستعملها الاهالى فى قضاء حوائجهم
ولوازم منازلهم فيكون متوسط مايستهلكه النفر الواحد من سكان
لوندرة ١١٧ لترا من الماء فى كل يوم

وأستطرد بهذه المناسبة الى الاشارة الى مصارف لوندرة وبالوعاتها
فقد كانت كلها تصب فى أول الامر فى نهر التيمس حتى جعلته
مقرا للاقذار ومنبعا للجراثيم القتالة وأصلا فى تسميم الهواء
وسببا فى ازدياد الامراض واتلاف صحة السكان وفتك الموت
بهم فتكاذريعا فان متوسط المواد العفنية التى كانت تنساق
اليه فى كل يوم يبلغ ٤٠٠,٠٠٠ متر مكعب وفى سنة ١٨٥٥ اجتهد
مجلس شورى العاصمة (البلدية) بدفع هذه المضار ودرس مشروعا
للمصارف يصرف عن المدينة هذه المخاوف ويلقى بهذه القاذورات
الى ماتحت لوندرة بستة وعشرين ميلا فى النهر الى البحر بواسطة
طلمبات بخارية قوتها ١٠٠٠ حصان بخارى ولكن هذه العملية
لاتحصل الا فى وقت الجزر أى عند نزول مياه النهر فى البحر
فيأخذ التيار هذه القاذورات وهذه العفونات بعيدا عن المدينة
ويذهب بأضرارها ادراج الرياح وتبلغ كمية المواد البرازية الملقاة
بهذه الكيفية فى النهر ٣٢٣٧٣٤ مترا مكعبا فى كل يوم

Digitized by Google

وليس هذا كله شيئاً فى جانب مايمكن أن يقال على لوندرة لكن لابد من الانتقال الى ذكر طرف وجيز على بعض ضواحيها مثل رشمند فانها مدينة صغيرة تختال فى حلل الجمال واقعة على الضفة اليمنى لنهر التيمس وعلى منحدر تلال بهيجة فيها غابات ومنازل خلوية تبتهج العين برؤيتها وفيها قنطرة بديعة وآثار قصر قديم وهى مشهورة بصناعة فطير بجبن يسمونه (بنات الشرف) لان وصائف مليكة الانكليز هن اللاتى اخترعنه وأشهر مافى هذه المدينة هو روضها الاريض الكائن على هضبة فسيحة وفى وسطه برك كثيرة تبدو منها للناظر مشاهد تروق النواظر ويخرج القوم الى هذا الروض للرياضة فى فصل الصيف واستنشاق النسيم الصحيح العليل وخلاصة القول ان وجودها على مقربة من لوندرة نعمة كبرى للنازلين بها والمقيمين فيها بل برهان جديد على ان الانكليز ينتقلون من الطرف الى الطرف ولايعرفون الوسط

وأما وندسور فهى مدينة تبعد عن لوندرة ٢٣ ميلا تقريبا وعدد سكانها ١٢٢٧٨ وأهم مافيها هو قصر الملكة المعروف باسمها وهو عبارة عن قلعة حصينة ولايشبه قصور الملوك الابما حواه من بعض الزخرفة والرسوم ولكنه فى نظرى لايضاهى أقل قصر من القصور الملوكية التى شاهدتها بايطاليا بل إن أفخم

مدخنة للاصطلاء فيه هى أقل من أقل مدخنة فى قصور الجيزة والجزيرة ونحوهما مع عدم لزومها فى بلادنا وشدة احتياجهم لها فى انجلترة وقد زرت الاصطبلات والعربخانات الملوكية ولكنى أستغرب كيف ان نفقاتها بلغت ٧٠٫٠٠٠ جنيه انكليزى ثم انهم لم يطلعونا على عربات التشريفة الخاصة بالملكة ولكن عربات معيتها وحاشيتها يمكننى أن أقول انها أقل من نظائرها فى المعية السنية وكذلك الخيول فانها وان كانت من الاصائل البالغة فى القوة والجمال ولكنى (وانلم أكن من أهل هذا الفن) أقدر أن أقول انها أقل من الجياد الاصائل التى عند سعادة على باشا شريف وأما بناء الاصطبلات نفسه فأقول ولا أخشى تكذيبا انه أقل زخرفة واتقانا من الاصطبل الجميل الجليل الذى ابتناه حضرة عزت بك القاضى بالمحكمة المختلطة فى سرايه التى بجانب السراى المنيرة وان كان هذا صغيرا جدا فى جانب جسامة تلك

أما الحدائق التى فى القصر وحواليه فهى من أبهى مايراه الانسان وأجمل منها تلك الغابة البعيدة عن مدينة وندسور قليلا المعروفة باسم (فرجينيا ووتر) والذى يزيد فى بهجتها انها كانت فى أول الامر عبارة عن مستنقعات تبعث بالعفونة الى الهواء وبجراثيم الامراض الى ماحولها من الجهات فحولوها ونظموها

ودبروا تصريف الماء منها واليها حتى أصبحت جنة تسر الناظرين وسبحان من يغير ولا يتغير تبارك الله رب العالمين

وقبل أن أختم هـذه الرسالة أرى من الواجب عليّ ذكر معرض أقامه بعض الافراد فى مدينة لوندرة وسماه (نياجارا هول) ولكنه يفرج الزائرين فيه الآن على مدينة منف عاصمة الفراعنة أيام مجدها وعظمتها ولا أقدر أن أوفى صانع الرسم حقه من المدح على تصوير القصور والاشجار والاصنام والمعابد والنيل والاهرام وأبى الهول والاسرائيليين حين خروجهم من مصر وغير ذلك فانه أبدع كل الابداع حتى ان الرائى يتخيلها مجسمة للعيان بعيدة عن بعضها كما فى الطبيعة بأحسن شكل وأكمل اسلوب وكل ذلك على قطعة كبيرة من القماش تحيط بالمكان الذى يقف فيه المتفرج معجبا بهـذه الدقة فى العمـل وهـذا التناهى فى الاتقان وسأشرح الكلام عليها فى الرحلة ان شاء الله فقد رحب بى صاحب المكان ترحيبا خصوصيا لكونى من المصريين ولكونه من اعضاء المؤتمر وأتحفنى بجميع الاستعلامات اللازمة وأطلعنى على جميع التفاصيل التى لا يطلع عليها الجمهور بما استوجب جزيل شكرانى وجليل امتنانى وأغرب ما رأيته فى ملحقات هذا المكان رجل من اخواننا أبناء الشرق واسمه المعلم الياس ليان حلوة قد برع فى أعمال

Digitized by Google

النقش على الخشب بالطرق الشرقية القديمة التى كادت تندثر فى هذا الزمان وقد رأيت له من الاعمال ما أدهشنى اتقانها ونظامها وتناسقها مما جعل أهل الفن من الاوروباويين الذين يقدمون الى هذا المكان يعترفون له بالبراعة والاقتدار وقال لى انه يعد جميع هذه المصنوعات لمعرض أمريكا القادم تشريفا للشرق وبنيه ورأيت فيه من العواطف القومية والاحساسات الوطنية ما زاد فى اعجابى به وفوق ذلك فهو خبير بلعب السيف والنقر على آلات الطرب وقد تأثرت حينما رأيته محافظا على محبة ملته ودولته وعادات أهله وبلدته ووددت لو أن أهل الشرق يلتفتون لصنائعهم ويشجعون القائمين بها لكيلا تزول وتصبح أثرا بعد عين خصوصا لما رأيت أمم الغرب يتفاخرون بصناعاتهم الخاصة بهم وبراعتهم فيها على من عداهم وحكوماتهم تساعدهم على الارتقاء والتفنن فيها حتى يفوقوا أمثالهم فتكتسب بذلك أوطانهم حسا ومعنى مكاسب لا تقدر ووددت أيضا لو كانت ظروف الاحوال تساعدنى على مساعدة هذا الرجل وأمثاله من أهل بلادنا حتى يكون لها بهم وبأمثالهم شأن رفيع فى سوق الحضارة ومعرض العمران الذى سيقوم فى شيكاجو وعسى أن يكون لهذا النداء صدى فى الاوطان لما وراءه من المنافع التى لا تنكر والله يهدى من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

الرسالة الرابعة عشرة

السفر من انجلتره الى فرنسا
عن طريق دوفر وكالة
وذكر اميان

مبارحة لوندرة

لقد احترت والله حينما اخترت الانتقال من الكلام على لوندرة بعد الاطالة فى الكتابة عليها والتوسع فى القول عنها بمقدار ماوصلت اليه يدى فى الرسالتين الخاصتين بها فانى لاأزال أجد للشرح مجالا يستغرق رسائل ضافية الذيول بل مجلدات تملأ المكاتب وتشحن الاذهان بالغرائب وتذكر من يتذكر بما يمكن الانسان أن يصل اليه بالاجتهاد بمفرده أو مع استعانته بابناء جنسه وتجلو على أبصار أولى البصائر بعض ماأودعته القدرة الالهية فى العوالم الطبيعية من القوى التى يتوصل العقل لاستكناه خباياها واستكشاف أسرارها ولكنى أرى بالرغم عنى وجوب الانتقال من هذا الموضوع مع ماأتيته فيه من التقصير مضافا الى مافى ذهنى من القصور

التعصب المطلق والتساهل المطلق

على أنى لاأرى لى مندوحة فى إغفال حادثة خطيرة وقعت بالمدينة قبيل مبارحتى لها فلا بد لى من ذكرها فى هذا المقام ولولتأييد ماقلته عن هذه الامة من ميلها للاطراف وغرامها بالتناقض فى كل الاحوال الادبية بل والمادية فقد سبق لى اثناء الكلام على دياناتهم

انهم يحترمون جميع المذاهب والعقائد ولكنهم يبغضون المذهب الكاثوليكي بغضا ليس له أول يعرف ولا آخر يوصف وانهم يكرهون البابا كراهة التحريم فاسمع الآن ماحصل اثناء انتخاب اللوردامين المدينة

اجتمع رؤساء الطوائف وأكابر التجار لانتخاب شيخ لهم فكان المختار هو المسترستوارت كيل فقام البرتستانت واعترضوا وصخبوا ولجوا بالسخط وهاجوا وماجوا وكتبوا استرحامات كثيرة وقع عليها الالوف والالوف من أهالى لوندرة يسألون فيها الملكة ان لاتوافق على هذا التعيين وتصدر أمرها باعادة الانتخاب فانعقدت جمعية لفصل الخلاف فقال قائل منهم مانالت لندرة حريتها وما تمتعت بامتيازاتها الا بعد ان أهرق البروتستانت دماءهم فى هذا السبيل فمن العار على العاصمة أن يكون شيخ مشائخها منتميا الى الكرسى البابوى وعضده فى هذا الرأى كثيرون من المجتمعين ولكن المعتدلين فازوا بالغلبة بعد أن طالت المشاحات وتعارضت المشاحنات فانهم قالوا قد امتازت انجلترة بحب الحرية فى العمل وان لوندرة مدينة الحرية الدينية وهذه المشاجرات لاتليق بامثالهم فقد سبق أن كان شيخ مشائخ لوندرة اسرائيليا فكيف يجوز ذلك ولايصح فى شرع المنصفين أن يكون كاثوليكيا فالزمتهم الحجة وتقررت الرئاسة للرجل ثم اذا نظرنا الى

Digitized by Google

المختار نفسه نراه أشد تعصبا من خصومه فقد قرر أنه لايعترف الا بالبابا ثم بالملكة وهى كلمة لم يجسر على التفوه بها من قبله انسان ولذلك رفض الحضور الى كثير من الاجتماعات الدينية جرت العادة بان يحضرها اللورد امين المدينة منذ القديم وقد أبى أن يذهب بموجب وظيفته الرسمية الى الكنيسة الفلانية والمعبد الفلانى وقد أصر فى عدم الذهاب بنفسه وفى ارسال مندوب من قبله فانه اشترط عليهم ان لايكون له معاون ينوب عنه فى هذه الامور الرسمية فهلا ترى من أغرب الغرائب شدة تمسك أولئك وعدم تنازل هذا الى هذه الدرجة حتى كان كل من الفريقين على طرفى نقيض بحيث يكاد الانسان يثبت الحق للبروتستانت فى اعتراضهم على نصب شيخ يأبى ان يسايرهم الى هذا الحد فى شعائرهم الدينية ولو حرمة للعادات القديمة والاصول المرعية

نفقات أمين مدينة لوندرة

ولما كنت فى باريس وافتنى الجرائد فى ١٠ نوفمبر منبئة بانه فى اليوم الماضى قد تم الاحتفال بتثبيت اللورد أمين المدينة فى هذه السنة ولكون الرجل من الكاثوليكيين وهذه أول مرة انتخب فيها كاثوليكى للقيام بهذه الوظيفة المهمة عقيب الانشقاق الذى جعل للمذهب البروتستانتى السيطرة فى انجلتره كان للاحتفال أهمية خصوصية وقد بلغت اكلافه ٢٥٠٠٠ فرنك وهذا

الرجل (سثوارت كيل) من الثروة والغنى والعلم بمكان ولكنه مهما كان ايراده لايمكنه أن يقوم بالمصاريف الباهظة التى يستوجبها مركزه اذا لم تساعده لجان الطوائف الحرفية والصناعية فى لوندرة والدليل على ذلك أن سلفه فى السنة الماضية صرف ٣٠٠٠٠ فرنك فى أمور متنوعة وقد بلغت ولائم الغداء والعشاء التى أقامها احتفالا باللجان الرئيسية لمدينة لوندرة ١٠٠٠٠٠ فرنك وبلغت نفقات الوليمة التى أعدها احياء لعيد الملكة ٣٧٥٠٠٠ فرنك وأما المأدبة التى أقامها ابتهاجا بنجاة البرنس دوغال من المرض فقد بلغت مبلغا يفوق حساب الحاسبين فانها أوجبت عليه صرف ٦٧٥٠٠٠ فرنك مع ان مرتب الوظيفة فى السنة هو ١٠,٠٠٠ جنيه انكليزى ليس الا

هذا وقد قمت من لوندرة فى مساء ١١ اكتوبر وركبت القطار بالليل كما جرت عادتى للاستكثار من الوقت وعدم ضياع الفرص هباء منثورا فوصلت مدينة دوفر فى منتصف الليل وكان فى امكانى ركوب متن البحار والتوجه توا الى فرنسا ولكننى آثرت رؤية دوفر وتمضية نصف نهار بها كى أودع فيها انجلترة بعد أن أشاهد ماخلفه الرومان فى هذه المدينة الساحلية من الآثار وما أحدثه الانكليز من موجبات التحصين والدفاع فعولت على النزول بها وما افتر ثغر الصباح حتى تجولت

Digitized by Google

فى المدينة وطفت انحاءها مع دليل من أهلها واليك ماوقفت عليه فيها بالاجمال

عموميات على دوفر

هذه المدينة لايزيد عدد سكانها عن ٣٠٢٧٠ من النفوس وهى ذات موقع معجب فى نهايته واد رائق وتعلوها أجراف عالية من الصخور تحيط بها من كل الجهات وكان أول شئ عنيت به بعد التجوال فى طرقاتها وميادينها انى صعدت على جبل عال فوقه قلعة حصينة ترتفع عن مستوى سطح البحر بثلاثة وتسعين مترا ورأيت فيها كثيرا من المبانى القديمة الرومانية ممتزجة بصروح أقامها الانكليز لتكميل وسائل الدفاع فى هذه النقطة الحربية المهمة وأقدم جزء فى هذه القلعة الممتدة بغير انتظام على مسافة ١٤ هيكتارا هو البرج الرومانى وارتفاعه ١٢ مترا وشكله ثمانى من الخارج مربع من الداخل وليس فيه سلالم تسمح بالصعود الى قمته وقد وضعوا فيه ناقوس الكنيسة العسكرية التى الى شرقيه وربما كان الرومان يستخدمونه فى ارسال النور الى المراكب القادمة بالليل وفى المخابرة معها برايات الاشارات حينما يكون قدومها بالنهار أما الكنيسة فان أساسها يدل على انها من صنع السكسونيين (قدماء الانجليز) وهى من أقدم العمائر

Digitized by Google

الدينية التى فى بلاد انجلتره وأما المبانى النورماندية فهى كثيرة جدا وأهمها صرح يرى على مسافة بعيدة فى البحر وقد كانت الشمس طالعة فتيسر لى رؤية شطوط فرنسا بارشاد الدليل قبل منتهى الافق بقليل وقد توجهت الى قشلاق هنالك ورأيت العساكر فى حالة التعلم والتمرن على الحركات ولم أستنكف من زيارة المطبخ بل انى عجبت بنظافته واتقانه وجودة المأكولات المخصصة للعساكر الانفار مما يغبطهم أو يحسدهم عليه آلاف وآلاف من أهل انجلتره الذين يموتون جوعا ثم زرت خزانة السلاح وما فيها من المخلفات الحربية والغنائم التى أخذها الانجليز من أعدائهم فى ساحات الوغى البرية والبحرية ورأيت فيما بين المدافع الكبيرة مدفعا طويلا أرسلته احدى ملكات هولاندة (الفلمنك) هدية لانكلترة وعليه أشعار منظومة على لسان حاله بمعنى انه يرسل القلل الى الاعداء فيردهم على أعقابهم خاسرين ويبعث بمقذوفاته الى القلاع والحصون فيتلقها عن آخرها ثم نزلت من طوابى هذه الروابى الى أهم ميدان فى المدينة فرأيت موسيقى تصدح فى ضحى النهار وعلمت أن مجلس البلدية هو القائم بنفقاتها لايجاد الطرب والانشراح فى المدينة على الدوام

حال المفارق وطنه والقادم عليه ومن لايزال بعيدا عنه

ولكننى لم يسمح لى وقتى بتشنيف آذانى الشرقية بنغماتها الغريبة لان القطار حضر من لوندرة وفيه جماعة المسافرين الى قارة أوروبا فلحقت بهم واتبعت خطواتهم حتى وصلنا السفينة وتبوأ القوم مقعدهم منها وأخذت أطوف جوانبها وأعلو ظهرها لرؤية المناظر وتعهد ماحولى من المعاهد وما هو الان أبحرت (أو أبخرت) حتى رأيت أغلب الحاضرين قد انقسموا قسمين بقى بعضهم فى مؤخرها وذهب الآخرون الى مقدمها وكان الفريق الاول يطيل النظر الى المدينة وأطرافها وابراجها والفريق الثانى يحدق النظر والنظارات الى الامام والى أقاصى الافق وبقيتُ أطوف ذات اليمين وذات اليسار وأدفع بخطواتى الى الامام ثم أكر راجعا الى الخلف الى أن أدركت بعد سماع تلاغى الفريقين ان أهل الخلف من أبناء الجزيرة يحيون بلادهم ويتزودون منها بنظرة أخيرة وان أهل الامام اشتد بهم الهيام للتعجيل برؤية بقاعهم ولكن الضباب يصحبه السحاب انتشر بأقرب من لمح البصر فكان يحول دون ادراكهم الوطر غير انه لم يثن عزيمتهم عن التكرار فى اطالة الانظار وانشاد الاغانى والاشعار والترنح لقرب الوصول من الديار واستمر الطرفان على هذا الشان حتى انتصف الطريق فتبدت صخور فرنسا

وشطوطها كأنها أشباح تتظاهر فى ظلال الجبال وحينئذ أخذ
الانكليز يقتربون من أواخر السفينة بقدر ما أمكنهم مستعينين
بآلات التقريب كأنهم يسألون تلك الجزيرة بل الام الحنونة
ان تبقى محافظة عليهم مراعية لهم فى غربتهم ناشرة لواء حمايتها
عليهم أينما حلوا وأينما ساروا وأما أنا فكنت فى هذه الحال
أرسل اشعة القلب وانظار الفؤاد الى ديار ألفتها وربوع نبت بها
وأقوام ترعرعت بينهم قد شبوا على المكرمات واستقوا من نيل
الكمالات فحييتهم على البعاد تحية ممزوجة بخالص الوداد والاخلاص
وكافت النسيم بالتسليم على خير أمة أخرجت للناس

منظر المطر فى البحر

ولما اقتربنا من شطوط فرانسا رأيت فى الافق شيأ يشبه
الاحبال والاسلاك قد وصلت بين الارض والسماء وبعد تحقيق
النظر علمت انه المطر فبقيت أتأمل فيه وأسبح مرسله ومنشيه
حتى ألقت السفينة مرساها وقد كان باسم الله مجراها ومرساها
فان البحر كان برا بنا ولم يمسسنا بأدنى أذى والحمد لله

دخول فرنسا

ولما نزلت بكاله فضلت التعريج على أميان على التوجه الى
باريس لكى أزور كنيستها الجامعة التى طارصيتها فى الآفاق
فأمضيت الليلة بها ولما جاءت كتائب النور برزت فى طليعتها

Digitized by Google

وطفت المدينة ومتاحفها ومكاتبها وآثارها مما لا أجد مندوحة
عن الاشارة اليه بالايجاز فى هذه الرسالة كما سيأتى

عموميات على أميان

هذه المدينة متقادمة فى العهد بحيث لايتيسر لاهل التاريخ
تعيين الوقت الذى ظهرت فيه ولا معرفة الذين وضعوا قواعدها
ورفعوا معالمها واهالى تاريخ فرانسا الحربى نخر أثيل وذكر جميل
وقد توجه أهلها فى الزمان العتيق لمحاربة انطيوخوس ملك الشام
ورجعوا حاملين ألوية التمدن مما اكتسبوه فى آسيا من العرفان -
وعدد سكانها الآن ٨٣٦٤٩ نفسا وفيها جمعية للفنون الادبية
وبستان للتجارب ومدرسة زراعية عملية وفيها ادارة تلتقط الاطفال
والايتام والمعتوهين الفقراء وتقوم بلوازمهـم وفيها برج قديم مظلم
اسمـه بفروا قد التهمته النيران فى كثير من الاحيان وهو حبس
للبلدية وفيه ربيئة يقيم به على الدوام للانذار بما يقع فى المدينة
من الحرائق فاذا رأى آثار النار فى احدى الديار دق جرسا زنته
١١٠٠ كيلو جرام فيبادر رجال المطافئ لاخماد أنفاسها وتلافى
اتلافها وهم يستخدمون هذا الجرس أيضا فى المواسم والاحتفالات
وفيه ساعة كبيرة جدا لتعيين الوقت بصفة رسمية وقد صعدت الى
قنته ولكن ظلمتـه الداخلية أحدثت فىّ انزعاجا لايمكننى أن أصفه
الآن مع ان شكله من الخارج أنيق ومنظر المدينة من أعلاه

رشيق فلله هذا البرج قد جمع بين الانذار بالشرور والتبشير بالسرور وجوفه مستودع للظلام وجسمه محفوف بالنور وأما المكتبة العمومية المعروفة بمكتبة الخط (بضم الخاء) فان أهميتها تزيد عن حاجات المدينة اذ فيها ٥٠٠ كتاب بخط اليد وأكثر من ٨٠٠٠ مجلد مطبوع ومما يستحق الذكر فيها ان أرملة الكونت روليسكاكير (وهو من أبناء المدينة) تبرعت للمكتبة بجميع الكتب التى خلفها زوجها (وقدرها ١٥٠٠٠ مجلد) مع مايتبعها من الدواليب والادراج والتحف القديمة والصور الثمينة وأغلبها له علاقة بالرموز النصرانية والمخلفات الدينية العتيقة والقسم المهم من هذه الكتب هو عبارة عن مجموعة للسياحات فى الارض المقدسة وفى الكتبخانة تماثيل كثيرة لأهم رجال المدينة الذين خدموها وأخص بالذكر منهم تمثال الموسيو بوفيلالى وسأتكلم عليه بعد قليل وقد رأيت فى الحديقة العمومية بهذه المدينة جذع شجرة نخرة عليها بعض أغصان نضرة وفيها تجاويف كما يشاهد فى الاشجار العتيقة التى نزل بها البلى وما زالت فيها قوة الحياة ولكن هذا الجذع وهذه الاغصان ليست الآمن الصاج والاسمنت اصطنعها بعض المتفننين بناء على اختبار جعلت له المدينة مكافأة عينتها وقد رأيت فى دار بعض الافراد تمثالا

Digitized by Google

نخيما من المرمر الناصع يمثل وجهاء المدينة وعظماءها الذين فاقوا غيرهم فى فنون الرسم والعمارة والتصوير اصطنعه ذلك الرجل على نفقته بقصد وضعه فى الميدان العام ولكن المجلس البلدى رأى من المحذورات مايمنعه عن قبول هذه الهدية النفيسة فوضعها الرجل فى داره بحيث يراها المارة

وقد رأيت فيها ملعبا للخيول والحيوانات المستأنسة (سيرك) وكان مبنى بالآجر ولكنه مكسو بطبقات من الاسمنت بحيث تمثل للناظر انه مشيد كله بأحجار النحت والدستور والرخام وهو من الاهمية بمكان عظيم ينطق بما لمهندسيه من المهارة والجراءة والاقدام فانهم نظموه بحيث يمكن بسهولة وقتية تحويله الى قاعة فسيحة مثل القاعات التى فى قهاوى الملاهى والمغانى وتسع ٣٥٠٠ متفرج وأما زخرفة الجدران فحدث عنها ولا حرج وأما تراكيب الحديد المستند عليها السقف من غير ارتكاز على الارض فى قاعة بهذا الاتساع فانها تدهش الناظر بل تخيفه وتلزمه الاقرار بابداع الصانع وهى مرتبة بحيث يمكن للجمهور الخروج منها فى برهة قصيرة اذا وقع اضطراب أو حدث طارئ وهى تضاء بالليل بالنور الكهربائى ترسله اليها آلات موضوعة تحت الارض فى غاية النظام والاحكام

Digitized by Google

ودخلت فى ملعب آخر أقامه بعض الافراد لعرض الحيوانات المفترسة وتسخيرها فى الالعاب امام الجمهور وانما أردت بهذه الاشارة تنبيه الاذهان الى صاحب هذا الملعب فانى سأشرح الكلام عليه فى الرحلة وأبين ماناله بالجد من المجد حتى صار شيأ مذكورا ونال الرعاية من الملوك والامراء بعد ان كان فقيرا معدما ويتيما مهملا

وقد استخدمت السكة الحديدية بعض الخنادق التى كانت حول المدينة لمسير قسم من طريق القطارات فيها والبعض الآخر نظموه سككا ودروبات سلطانية كما فى باريس وأغلب مدائن فرنسا

تجارة أميان وصناعتها

وتدور تجارة المدينة وصناعتها على الاقمشة من جميع الاشكال والانواع والقطيفة الخاصة باللباس وبالأثاث وغير ذلك وفيها مغازل للكتان يشتغل فيها نحو ٣٠٠٠٠ من العمال وأما مغازل الصوف فيشتغل فيها ١٢٠٠ عامل وفيها غير ذلك من أنواع التجارة وأصناف الصناعة مما لا حاجة لذكره

التعليم باميان

وفيها أماكن لتعليم الالمانية والانكليزية للرجال والنساء مجانا فى ساعات معينة وأيضا لتعليم الميكانيكا التطبيقية ورسم صور الآلات وقانون التجارة وفن التشريع الصناعى وفن امساك الدفاتر فى الصنائع والجغرافيا الصناعية والنسيج بالنظريات والنسيج العملى

Digitized by Google

وتطبيق الكيمياء على الصباغة وفن الصباغة ومعالجة الاصباغ والموسيقى وفن تفصيل القطيفة وغير ذلك مثل الرسم الابتدائى والتصوير بالجبس ونقش الاحجار والرسم التقليدى والتشريح وتاريخ الفنون والرسم العملى والرياضيات وفن الرسم (لاجل البنات) الخ وليس على الطالب الآن يشعر كاتب أسرار أمين المدينة لنوال تذكرة يكون دخوله بمقتضاها فى الاوقات المعينة - وفى المدينة مدارس منتظمة للعلمين والمدرسين (بدرجاتها الثلاث) وللفنون الصناعية والحرفية وفيها ١٦ مدرسة ابتدائية للصبيان و ١٧ للبنات و ١٠١ مدرسة للامهات ومدرسة لتعليم الصنائع الخاصة بالحديد والاخشاب وأخرى للطب والصيدلية وأخرى للموسيقى وأخرى للفنون المنزلية الخ

عموميات على أميان

وفى اميان كثير من التكايا المخصصة للطاعنين فى السن من الذكور والاناث والايتام والاطفال الذين يتركهم أهلهم بعد الولادة وللمصابين بالادواء العقيمة العضالة وللمعدمين من الجنسين وكفيفى البصر أو المصابين بأمراض فى عيونهم وغير ذلك

وفيها بستان للنبات يحتوى على قاعات للتاريخ الطبيعى وعنابر لتربية نباتات البلاد الحارة وتعطى فيه دروس عمومية فى علم النبات

Digitized by Google

وفى المدينة ٥ جرائد يومية و ٧ أسبوعية منها واحدة نصف أسبوعية وواحدة دينية وواحدة زراعية وفيها غير ذلك من المنشورات الدورية شئ كثير وفيها ثلاث متاحف أحدها عام للفنون والصنائع والثانى خاص بالاطيار والثالث للتاريخ الطبيعى وسأتكلم عليها فى الرحلة ان شاء الله

وفى المدينة خمسون قنطرة تصل أطرافها ببعضها لان نهر السوم يشقها من أولها لآخرها وأهمها سبعة

دار تكية المجاذيب والعميان

ومن أهم ماينبغى ذكره ورؤيته فى هذه المدينة دار تكية المجاذيب وتكية العميان فان المسيو بوفللى أوصى عند موته بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ فرنك لتشييد البيمارستان وبمثله لانشاء تكية للعميان يكون فيها أقسام للمتزوجين وأخرى للعزاب والارامل من الجنسين ومدرسة للبنات وأخرى للصبيان وقدزرت تكية العميان بنوع خصوصى لانتشار الرمد فى بلادنا وتفقدت كل مافيها من الترتيب والنظام بارشاد حضرة ناظرها فانهدش للقائى ورحب بى وقدم لى كل ماطلبته منه من البيانات ولكن لايسمح لى المقام بسردها الآن فادخرها الى مابعد وأتكلم على الكنيسة الجامعة وبها تكون خاتمة رسالتى هذه

Digitized by Google

الكنيسة الجامعة بأميان

أول من أدخل الديانة النصرانية الى هذه المدينة رجل اسمه القديس فيرمان فى سنة ٣٠١ ثم حكم عليه بضرب عنقه فى سنة ٣٠٣ فى قصر قديم من بناء الرومان وبعد ذلك دفنت جثته خارج المدينة وهو أول أساقفة أميان ثم توالت الايام وتناسى الناس خبر ذلك الذى جاء مبشرا بالانجيل حتى ظهرت كرامات على مايرويه القوم وتتناقله الافواه فاستدل بها الاسقف التاسع واسمه القديس سوق على قبر القديس فيرمان ولذلك تبرع أهل أميان والمدن المجاورة لها بهدايا كثيرة وتحف نفيسة لبناء كنيسة جامعة من الخشب داخل المدينة باسم القديس فيرمان فجاء النرمانديون (ويعرفون عند عرب الاندلس باسم المجوس) فى سنة ٨٨١ وأحرقوها فأعادها أهلها ثم التهمتها النيران واستمر الامر على هذا الحال من تعمير وتدمير حتى كانت سنة ١٢١٨ فاحترقت عن آخرها ولم يبق لها أثر فى الوجود فلم تمض سنتان حتى شرع القوم فى وضع الحجر الاول من الكنيسة الحالية وفى سنة ١٢٥٨ حصل حريق أتلف بعض أجزائها ووقعت الصاعقة فى سنة ١٥٢٧ على ناقوسها فحطمته تحطيما ولكن أهلها رمموا ذلك وأصلحوا ما أفسده الدهر ومسطح الارض التى تشغلها الآن عبارة عن ٨٠٠٠ متر وسهمها يرتفع عن أعلى نقطة من سطحها ٤٤ مترا ونصف متر وفوقه صليب من الحديد

Digitized by Google

ارتفاعه تسعة أمتار وفيها من الداخل ١٢٦ سارية تتكئ عليها قبابها وعقودها وأما شبابيك الزجاج ففيها تصاوير وألوان تدهش الانسان وكذلك الارغن والوردات الزجاجية الهائلة التى تمثل الفصول الاربعة وفيها كثير من قبور المشاهير وتماثيل القديسين وأما منبر الوعظ والخوروس فهما اعجوبة من أعاجيب الصناعة بما فيهما من التفنن فى النقش على الخشب فانهما يصوّران للناظر جميع ماجاء فى العهد العتيق من الحكايات والوقائع تمثيلا باتقان واحكام ومن أغرب مارأيته فى هذا الخشب الغريب ان النقاشين تركوا فيه بعض قطع طويلة متصلة به من الطرفين وهى فى هيئة الاوتار فاذا غمزها الانسان باصبعه أخرجت صوتا مطربا لطيفا واذا نقر عليها الماهر فى صناعة الموسيقى ربما أمكنه ابراز بعض الانغام بايقاع متناسق متناسب كما هو فى الآلات المعدة لذلك وكل هذا الخشب من الجودة والمتانة بمكان عظيم وقد كانت أجرة الصناع فيه من ٤ الى ٩ مليم فى اليوم الواحد ويخيل للناظر اليه أن الغبار مخيم عليه ولكنه بعيد من ذلك بل انه نظيف جدا واذا لمسه الانسان لايتلوّث أصبعه بشئ من السواد وقد قال لنا الخادم ان ذلك الشئ الشبيه بالغبار له سبب فى التاريخ وذلك انه لما وقعت احدى الثورات بفرنسا خشى أسقف الكنيسة

Digitized by Google

على هـذه المصنوعات الجميلة من أن تتطاول اليهـا أيدى العوام فيبددونها ويهشمونها فأحضر كثيرا من الهشيم والبرسيم وشحن به الكنيسة من أولها الى آخرها وبقيت مخزنا بهذه الكيفيـة مدة طويلة من الزمان أوجبت تداخـل الغبـار فى جزيئات الخشب واكتسابه هذا اللون الباهت الذى يشاهد عليها الآن وخلاصة القول ان هذه الكنيسة من أجل وأبدع وأكمل وأبرع مارأيته للآن فى سـياحتى بل هى فى هذه المدينة كدرة يتيمة تحسـدها عليها رومة وفى هذه الكلمة من مدحها مايفى بالمرام لمن شاهد أوعلم جمال الكنائس فى عاصمة النصرانية والسلام

الرسالة الخامسة عشرة

العودة الى باريس

من لى بباحث فى أخلاق الانسان يكون قد وقف نفسه على درس الحيرة والاضطراب وتحقيق تأثيرهما وتعرّف تنوّعاتهما وقد حضرنى حينما عوّلت على كتابة هذه الحروف وأعددت القلم والقرطاس واستفتحت بتحرير ديباجة العنوان ثم أبقيت يدى معلقة فى الفضاء والقلم بين أصابعى فى الهواء وأعينى شاخصة تنظر ولا ترى وأسنانى تصطك اصطكاكا متواترا وشفاهى يتلاعب بها الاختلاج من غير انتظام ثم تقع السفلى منها بين الاسنان فينبهنى الالم فأضع القلم وأرفع يدى الى جبينى كأنى أعصره عصرا لاستخرج التبيان منه قسرا ثم أسكن بها فكرى طورا وأرجع لحالتى الاولى من امساك اليراع وامساك الذهن حتى كدت أعافى نفسى من الخوض فى هذا الموضوع لولا سبوق الوعد فى الرسالة الثامنة بتلخيص وجيز على باريز يعرف القارئ بها ويصف له بعض أحوالها ويقص عليه شذورا من أنبائها

وما مصدر هذه الحيرة وحقك عجز عن التسطير أو احجام فى ميدان التحرير والتحبير ولكن هى المواضيع انهالت علىّ انهيالا

Digitized by Google

هالنى وتزاحمت تزاحما تراخت معه عزائمى حتى أشبهت (هى) أقواما احتشدوا فى دار شبت بها النار فطفقوا يتسارعون للخروج من باب ليس لهم سواه وصاروا يتدافعون ولا يعلمون انهم يتمانعون وأنهم عما قليل هالكون فقام فيهم شيخ فطين ونبههم الى هذا الخطر المبين وحثهم على التؤدة والسكينة للنجاة من هذه المصيبة العظيمة فأراعوه السمع وسلموا كلهم من الروع وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

فعن لى حينئذ أن أقتدى بهم وأذكر الحيرة فى الابتداء ثم التوصل للاهتداء بقسمة المواضيع الى مطالب أتكلم فيها على باريس من جملة وجوه بحسب ما وصل اليه جهدى ووقفت عليه بنفسى

كلمتان على باريس

يقول أهل هذه المدينة انها الآن وستكون على مدى الازمان حاضرة الحضارة والعمران ومدينة المدنية فى كل ميدان لا يضيرها اضطراب السياسة فيها أو انشقاق الاحزاب بين أهاليها وأن الاجانب يفدون اليها وسيتقاطرون عليها اذ ليس فى العالم الا باريس واحدة (وأنت تعلم أن فى احدى الواحات المصرية قرية حقيرة تسمى باريس - فيالله من هذا التناقض) وأن من

Digitized by Google

أقصى أمانى الاغراب ان يتمتعوا أنظارهم بمجالى محاسنها ولاسيما أهل الارياف والاقاليم فى فرنسا فانهم يرون وجوب المجىء اليها خصوصا بعد الزواج ليقضوا بها (هلال العسل) وليس ذلك الالانها تفردت عما سواها وفاقت على ماعداها بما جمعت من أسباب اللهو ووسائل الانشراح وازاحة الخاطر وتمضية اويقات الصفاء والهناء وخلاصة القول انها مركز للجذب العام وفتنة لجميع الانام

هذه المدينة يشقها نهر السين الى نصفين يكادان يكونان متعادلين وهى منقسمة الى ثمانين خطا (بضم الخاء) فى عشرين قسما على رأس كل قسم رئيس يعرف بامين المدينة (شيخ البلد) وثلاثة مساعدين وعلى رأس الجميع موظف عال لقبه مأمور ضبطية السين وعليه القيام بوظيفة الامين العام (شيخ عموم البلد)

وعدد سكانها ٢،٤٢٢،٦٦٩ نفسا ومسطح البقعة التى تشغلها من الارض فيما بين الحصون التى حولها عبارة عن ٨٠٠٠ هيكتار وطول محيطها ٣٤ كيلومترا والحصون عبارة دائرة مزدوجة طولها ٣٤ كيلومترا و ٥٣٠ مترا وفيها ٥٦ بابا للمدينة و ٩ معابر تمر منها السكة الحديدية ومعبران لنهر السين وآخران لترعتين . وطول الطرقات العمومية فيها هو ٨٨٨،٠٠٠ متر ومسطحها عبارة عن ١٥٣٢ هيكتارا وفيها

Digitized by Google

أكثر من ٨٢٫٠٠٠ دار . وميزانيتها فى السنة تبلغ ٢٨٠ مليونا من الفرنكات (١٧٦٩٣٨ جنيها مصريا تقريبا)

ولما كانت الكوليرة ضاربة اطنابها بها فى الصيف الماضى تكبدت المدينة نفقات باهظة فى رش السوائل المطهرة فى الطرق العمومية ولغسل أماكن القاذورات والمباول فى كل يوم من أيام الوباء حتى بلغت المصاريف ٤٫٣٠٠ فرنك فى اليوم الواحد وقد بلغت مصاريف التطهير وتنقية الهواء فى المدارس التابعة للمدينة ٨٫٠٠٠ فرنك وقد كان مجموع المصاريف التى أنفقت بهذا السبب فى فترة اجتماع المجلس البلدى ٥٧٫٠٤٦٫٦٧ من الفرنكات

متاحف باريس

أول شئ تنساق اليه اقدام السائح الذى يقصد الاطلاع على الغرائب ومشاهدة الطرائف انما هو المتاحف واحقها بالتقديم هو متحف اللوفر فانه يحتوى على أكمل مجموعة فى العالم من حيث الفنون الصناعية وقد كان انشاؤه فى قصر اللوفر فى سنة ١٧٩١ بأمر من الجمعية الاهلية فجعلوه مقرا لجميع الاعمال الغريبة التى كانت متفرقة فى قصور الملوك ثم جاء اساتذة الفنون المتقنين وحلوه

Digitized by Google

برسوماتهم ونقوشهم وكثر المتبرعون بفرائد الصور وذخائر الاشكال حتى أصبح من أكمل وأجمل متاحف الدنيا وانى أشير الآن بالاجمال الى ما فيه من الاقسام فان التفصيل يكاد يكون من المستحيل - فيه قسم للتماثيل والانصاب من الرخام (ومنها الزهرة إلهة الجمال لميلو ثمنها ٦٠٠ ألف فرنك) ومن النحاس من صنع الاقدمين أو محاكاة لهم وفيه نقوش دينية على المرمر وأبواب هياكل ومعابد ثم نقوش وكتابات رومانية بارزة وفى احدى قاعاته إناآن كل واحد منهما من حجر واحد ومتباعدين عن بعضهما نحو ٣٠ مترا واذا تكلم الانسان فى احدهما سمعه صاحبه من الثانى وهذا من غرائب الصدى وليس لهما من مثيل الا فى أمريكا وفيه قاعات لاوانى الفخار وللوح الرسم والتصوير مما وراء العقول ولا تسل الى الآن عما فيه من مخلفات قدماء المصريين والرومانيين والاشوريين والبابليين وغيرهم من أمم السلف وفيه متحف للجزائر وآسيا الصغرى وخلاصة القول انه فى باريس كالدرة اليتيمة فى القلادة الثمينة - وفى الدور الثانى منه متحف للبحرية فيه صور المراكب وجميع آلات البحر وادواته عند جميع الامم وفيه خريطة كبيرة مجسمة من الجبس تمثل قنال السويس وأعماله ومدائنه اهداها له دولسبس وفيه متحف

Digitized by Google

صينى - أما أثمان الاعمال التى فيه وزخرفة القصر فهى من قبيل ماورد فى ألف ليلة وليلة

أما متحف لكسمبرج فهو مخصص لحفظ رسوم المتفننين العصريين ونقوشهم وعلى بابه تمثال بهيئة فرنسا وهى تقدم أكاليل الفخار الى الهتى النقش والتصوير وفيه كثير من النقوش فى الحجر والرخام والرسوم على القماش مما يقضى بالعجب العجاب

أما متحف الحمامات ودار كلونى فيمتاز عن السابقين بانه مخصص لكثير من المجموعات المحتوية على آثار الاقدمين ومخلفاتهم النفيسة من كل نوع ومن أعمال أمم مختلفة - وقصر الحمامات هو أقدم العمائر فى هذه المدينة حتى اننى حينما شاهدته تنكرت اننى فى باريس وتصورت أننى فى رومة خصوصاً عندما دخلت فى قاعته الكبيرة الباقية الى الآن فى غاية الحفظ والصيانة تحت قبتها العتيقة الفسيحة ويقول بعض المؤرخين ان يوليان المرتد نودى به امبراطورا رومانيا فى هذه القاعة (سنة ٣٦٠ ق م) وفى المتحف الآن أكثر من ١٢٠٠٠ قطعة معروضة على الانظار وكلها من الفائدة والاهمية بمكان اذ تحتوى على كثير من أمتعة القدماء وأبسطتهم ومنسوجاتهم وعلى عربات مذهبة كان يستعملها الملوك فى القرون الوسطى وبعضها يجره الجياد وبعضها مما يحمله الرجال

Digitized by Google

على الاعناق ولا أظن ان فى متاحف المدائن الاخرى مجموعة تعادلها وفى الدور الاول من هذا المتحف مجموعة من الاسلحة والدروع والدرق والمجنات والخوذ للقاتلين وللخيول ومن الاوانى المعدنية ثم مجموعة من الاوانى الخزفية (وفيها مجموعة من صناعة رودس وأخرى أندلسية) والمينا والخشب المنقوش المحلى بالصور الباهية ومجموعة من الاقداح والاكواب والقازوزات والقارورات وفى هذا المتحف غرفة تحتوى على مجموعة من المصنوعات العبرانية أهدتها البارونة ناتالى دور وتشيلد من ضمن مافيها تمثال لتابوت العهد على هيئة دولاب وشمعدانات ذات سبعة فروع وثمانية وتسعة وكلها من الخشب المنقوش والفضة الخالصة والنحاس الصافى وفى المتحف خلاف ذلك من صناديق القدماء وأسرة الملوك والاوانى المتخذة من خشب الابنوس وسن الفيل ورقع الشطرنج والبلور الصخرى والساعات ومفارم الدخان والمفاتيح والسكردانات والمناقد وكرة أرضية من نحاس مذهب والاقفال والاغلاق والدرابيس والمصاغات مثل تيجان الملوك القوطيين وأكاليل الابريز الخالص الاصم المحلاة باحجار الصفير والدر العديم النظير ومذبح (من أقسام الكنيسة) من النضار الدقيق المطروق بصناعة واتقان والاساور

والخواتم و ورد من الذهب وغير ذلك مما يعجز القلم عن وصفه وتحار الافكار من مشاهدته منضودا محفوظا كما كان وكأحسن مايكون .

أما قصر الحمامات فقد كان بناؤه فى سنة ٣٠٠ ميلادية بامر الامبراطور الرومانى كونستانس كلود ثم اتخذه ملوك فرنسا فيما بعد سكنا لهم مدة من الزمان ولما تركوه اشترى أطلاله أحد القساوسة وبعد ذلك اشترته مدينة باريس واحاطته بحديقة لطيفة وجعلته مقرا للتماثيل الرخامية والحجرية التى أقيمت فى باريس فى العصر الذى شيد فيه القصر وأطلق عليه اسم قصر الحمامات إذ لم يبق من معالمه سوى قاعة الاستحمام وفى البستان كثير من الانصاب والعمدان أغلبها كانت فى القصر أيام كان يسكنه القسيسون ومن أهم مافيها صليب من الحديد انتزعه الفرنساوية من كنيسة سان والدمير بمدينة سبا ستبول وغير ذلك

وأما متحف الآلات والفنون الصناعية (ويسمى أيضا بالحفظ الاهلى للفنون والصنائع) فقد أقيم فى مكان كنيسة قديمة وأضيف اليها جملة قاعات كثيرة وعلى بوابته تمثالا العلم والصناعة وفيه مكتبة تحتوى على ٣٠٠٠٠ مجلد خاصة بتطبيق العلوم والفنون على الصناعة وفى احدى غرفه رسم بعض المجيدين فى

التصوير تماثيل الصناعة والرسم والتصوير من جهة والعلم والطبيعة والكيمياء من جهة أخرى وفيه معامل للكيمياء والطبيعة وتعطى فيه دروس ليلية فى العلوم وتطبيقها على الصنائع مجانا لكل طالب يقوم بها رجال من أشهر النابغين فى هذه الفروع

وهو يحتوى على جميع أصناف المحاريث وآلات متنوعة للتقطير وتكرير السكر ومثال معمل للعربات وأدوات الخراطة والخياطة والنسيج والغزل وبعض عينات من المنسوجات والآلات الخاصة بنظريات الحركة والانتقال وآلات تحويل الحركة وتوليدها وآلات العدد والتلغراف الكهربائى وغير الكهربائى والتلفون وآلات الصوت والجلوانوبلاستيا والموازين والاثقال وآلات علم الطبيعة وأدوات استخدام حرارة الشمس وجهازات كهربائية متنوعة وآلات علم الآثار العلوية وآلات تقييد الارصاد وآلات استخراج غاز الاستصباح وجهازات الاستضاءة وآلات الورق وآلات الطباعة والنقش والتصوير الشمسى ثم المتحصلات الكيماوية وآلات طبع الالوان والاصباغ على الاقمشة وتماثيل معامل حمض الكبريتيك ثم كيفيات اصطناع الخزف والفخار والمينا والزجاج والبلور وغير ذلك مما تتعذر الاحاطة به ويستدعى المشاهدة وتمضية الوقت النفيس وأهم ما استوقف انظارى تماثيل

Digitized by Google

استخراج الفحم الحجرى وأدواته وآلاته وجهازاته وآباره وسبر اغواره والمعادن التى تخرج معه والاصباغ والروائح والاعطار التى تستخرج منه وغير ذلك وقد رأيت فى نموذجات المنسوجات قطعة من شغل مصر اهداها الخديو الاسبق الى هذا المتحف وفيها اشعار عربية مكتوبة باحرف من القصب ومزركشة بذوق وحذق بحيث انها تجعل لصناعة بلادنا مقاما محمودا بين مايجاورها من منسوجات الامم الاخرى

وفى تياترو الاوبرا متحف ومكتبة للتشخيص والتمثيل والروايات وفن الالحان ولكن المتحف ليس من الاهمية بحسب مايتصوره الذى يسمع عنه و بعكس ذلك المكتبة

أما متحف فنون الزخرفة والتزويق فالغاية منه المساعدة على توسيع نطاق أعمال المشتغلين بتطبيق العلوم على الصنائع اذيرون فيها نموذجات لاتحصى من صنع الاقدمين والمحدثين فتتربى بذلك ملكتهم ويقتدرون على الاختراع والتنويع فانها تحتوى على مجاميع متعددة فيها تصاوير على القماش ونقوش على الاخشاب والاحجار والمعادن ومصنوعات شرقية مثل الانسجة والعاج والابسطة والخزف والزجاج من صنع فارس وغيرها وفيها أيضا تصاوير بالالوان وأقمشة قديمة وحديثة وأثاثات المنازل ثم طريق

التزويق بحسب العصور قديما وحديثا وغير ذلك مما يطول شرحه

أما متحف تطبيق فن النحت فهو فى قصر التروكاديرو ويحتوى على نموذجات بالجبس من أهم أعمال المبانى فى مشارق الارض ومغاربها فى العصور السالفة ومن بوّابات وعمدان وجدران وعقود وقبور ونقوش بارزة فى الحجر وغير ذلك مما يطلق عليه لفظة آثار وهى مرتبة بحسب تاريخ أوقاتها وبيان الاماكن التى فيها الآثار الاصلية وماهية الموضوع بالايجاز وأول مايراه الانسان فيها هو نقوش قدماء المصريين وغيرهم من الامم القديمة حتى ينتهى الى القرن الثامن عشر فيرى غرفة فيها أعمال من جميع الامم كأنها فهرست للغرف التى سبقتها أو بيان اجمالى لما رآه الانسان قبلها

وأما متحف طبائع الامم وأحوالها فهو فى الدور الاول من قصر التروكاديرو أيضا ويحتوى على ٤٠,٠٠٠ قطعة تمثل أصناف الامم وكيفية معيشتهم وتغذيتهم ولباسهم وسلاحهم بالاقدار الطبيعية التى تصورهم للانسان كانه يراهم كما هم بالتمام فى أقاليم استراليا والاوقيانوسية وغيرها مثل ملبوس الرؤساء وشباك الصيد فى البحر وحبائل القنص فى البر والمساكن وصورة المتوحشين وغير ذلك مما يتعلق بامم أفريقية وامريكا وأوروبا وآسيا ويرى الانسان فيها الزوارق

والنقوش والاكواخ والمنسوجات والاسلحة والمصنوعات الزجاجية والفخارية والاطلال الدارسة وسارية من حجر واحد تشبه شكل الآدمى فى تكوينها الطبيعى (واردة من بلاد المكسيك) والمحاريب والمعابد والهياكل وبعض موميات واردة من أمريكا وجهازات الجنائز والاحتفالات بالاموات وكل ذلك مما يتعلق بالقبائل المتوحشة والبدوية والمتمدنة والحضرية سواء كانت تسكن عند القطب الشمالى أو بجانب الخط الاستوائى أو فيما بينهما - وفيه غرفة مخصصة لبيان أهل فرنسا بحسب أقاليمها وتنوع معيشتهم ومساكنهم واخلاقهم وغير ذلك

أما متحف التربية فيحتوى على مكتبة مركزية خاصة بالتعليم الابتدائى فيها الكتب المؤلفة فى فن التربية واساليب التعليم ورسوم واشكال وخرائط ومجاميع وكتب مطالعة وغير ذلك مما يلزم الدارسين والمدرسين وفيه زيادة على ذلك مكتبة متنقلة تعير الكتب الى القائمين بوظائف التعليم فى سائر انحاء فرنسا وفيه آلات التعليم وأدواته وأجهزته وجملة مجاميع للتاريخ الطبيعى ولتعليم الرسم والتصوير فى المدارس الابتدائية والثانوية ومدارس المعلمين وفيه تماثيل للمبانى الدراسية لبيان أوفقها للصحة والتعليم من حيث التهوئة الاضاءة وغير ذلك من المرافق - وهذا

المتحف المفيد يحتوى على قاعة كبيرة فيها كلها خرائط جغرافية فقط وغرف أخرى للرسم ومعامل للكيمياء والطبيعة والاشغال اليدوية وأخرى تحتوى على أثاث المدارس وأدوات الدراسة ونموذجات تصور المدارس الغير فرنساوية وفى الدور الاول مكتبة التربية الفرنساوية والاجنبية وأهم قسم فيها هو مكتبة للموسيو رابو تحتوى على ٦٨٤٨ مجلدا خاصة بهذا الفرع من التعليم وقد اشترتها الدولة بعد وفاته باسم هذا المتحف وبعض الكتب الموجودة فى هذه المجموعة قد صارت الآن اندر من الكبريت الاحمر وفيها أيضا مجموعة تحتوى على كتب التعاليم فى القرن السادس عشر وفى الدور الاول مجموعة علمية ومعامل للعلوم الطبيعية وأثاثات مدرسية وشرائع فرنساوية وأجنبية خاصة بالمدارس — وقد ترتب على انشاء هذا المتحف فوائد كثيرة خصوصا المكتبة المتنقلة فانه قد يتفق وجود بعض من المترشحين لوظائف التدريس أوللترقى الى وظائف سامية ولايكون فى وسعهم الاستحصال على الكتب الدراسية اللازمة لبعدهم عن المدن الكبيرة ولضيق ذات يدهم فانشأت الدولة هذا المتحف ليعيرهم الكتب اللازمة بناء على طلبهم فيرسلها لهم خالصة أجرة البريد فى صناديق محكمة من الخشب مدة شهر أو شهرين

Digitized by Google

بحسب مايريدون ولهم الحق فى تمديد الاجل المحدود وسأشرح الكلام فى الرحلة على هذا المتحف بنوع خصوصى لماله من المزايا الكبيرة

أما متحف جيمى أو متحف الاديان الاهلى فانه يتضمن كل ماجمعه الموسيو اميل جيمى E. Guimet اثناء سياحاته فى بلاد المشرق ثم انه تبرع بهذه المجموعة النفيسة التى تبلغ قيمتها أكثر من ٤ ملايين من الفرنكات لمدينة باريس لاجل افادة ابناء وطنه والغاية منها درس الاديان القديمة وعقائد المشرق بحسب الرسوم الصحيحة والتماثيل والكتب والتصاوير الاصلية الصادرة عن نفس المتعبدين وهى مرتبة بحسب المذاهب والاعتقادات والاوقات ثم ان هذا الرجل الكريم فضلا عن هذه الهبة السنية تبرع بنصف المصاريف اللازمة لبناء دار المتحف وقد بلغنى من ثقة ان رجلا من اغنياء الانكليز عرض عليه مبلغا وافرا من النقود لمشترى جزء زهيد من المجموعة فأجابه بما معناه (انما تعبت وجمعت ماترى لافادة ابناء بلادى وللاعانة على رفع شأن وطنى وذلك أثمن وأغلى مما تعرضه على الآن بما لايقدر بأى حال) فهكذا تكون الشهامة والمروءة فى محبة الوطن والسعى فى اعلاء كلمته وتمجيد ذكره ومن أهم مافى هذا المتحف مكتبة تحتوى على

Digitized by Google

كتب كثيرة بخط اليد و ١٤٠٠٠ مجلد فى مواضيع متنوعة و ٧,٠٠٠ مجلد صيني وياباني ومصري قديم وهو يحتوى على مصنوعات من الخزف خاصة بديانة الصين واليابان وقدماء اليونان وايطاليا وفرنسا وقبائل افريقية والاوقيانوسية وآلهتهم وتعبداتهم وهياكلهم ومعابدهم وفيه هياكل كثيرة منها هيكل يسمى بالمندرة يحتوى على ١٩ إلها (والمندرة هى المعبد الذى يجتمع فيه جميع الالهة عند اليابان مثل البانتيون عند اليونان والكعبة عند الجاهلية وأقدم هذه المنادر هى مندرة سين جون وكان فيها ١,٠٦٠ إلها) وآلهة الهيكل المحفوظ بهذا المتحف تنقسم الى ثلاثة أقسام لتدبير الكون وهى الكمال فى الاعتقاد البوذى ثم التجسد لخلاص الارواح بطريق الاقناع ثم التحول لجذب النفوس بالوعيد والتهديد - وهنالك أيضا آثار كثيرة مما يتعلق بديانة الفراعنة وكيفية معيشتهم فى هذه الدنيا ونعيمهم فى الحياة الاخرى وفى ضمنها تماثيل آلهة وتمائم وأوراق بردى ومذابح وهياكل وأحجار مقدسة وغير ذلك - وفى هذا المتحف غرف للتدريس والعمل وجميع جدرانه مغشاة برسوم وأشكال تناسب الاشياء المعروضة فى كل غرفة أو تكملها بحيث ان الناظر الدقيق يقف تمام الوقوف على كيفية التعبد والتدين عند كل قبيلة

Digitized by Google

من هـذه القبائل - وقد رأيت فى فناء المتحف عنبرا لتربية النباتات المجلوبة الى فرنسا من البـلاد الحارة وفى أقصى الفناء قاعة يصعد اليها بسلم وفيها مجموعة من الاحجار المختلفة وشواهد القبور القـديمة عنى بجمعها اثناء سياحته فى آسيا جناب الموسيو دومرجان الذى هومدير المتحف المصرى الآن - وقد تقرر اثناء أقامتى فى باريس ان تلامذة المدارس العالية وتلامذة المدارس الحرفية فى هذه العاصمة يذهبون الى هـذا المتحف فى كل يومين مرة بالمناوبة مع بعضهما لاجـل الوقوف على كيفيات اصطناع الخزف والطقوس الدينية بارشاد الموكلين بحفظ المتحف أوالموسيو جيمى نفسه

أما متحف والنتـين هاوى فقد سمى باسم أول من أسس مدارس العميان وهو وان كان صغير الآن لكنه جدير بالنظر اذ يحتوى على الآلات والادوات الخاصة باعمال العميان وعلى كثير من مصنوعاتهم فى جميع البلاد وقد كان دليلى فيه أحدهم وهو الموسيو جيلبو أحـد اساتذة مدرسة العميـان وأطلعنى على جميع مافيـه قطعة قطعة بارشاد وثبات ومعرفـة بمواضع كل شئ حتى انبهرت من هذا الدليل المـاهر فانه له معرفة بالغزل والنسيج وكثير من الصنائع اليدوية وأخص معلوماته الجغرافية والتاريخ والفنون

الادبية وقد احتفى ببعض من مؤلفاته وفيها ديوان شعر يعبر فيه عن عواطف العميان وأحساساتهم وكيف يقدرون الاشياء وله كتب أخرى كثيرة تدل على فضله وسعة اطلاعه وهو الذى سعى فى تأسيس هذا المتحف على نفقته ثم أمدته الجمعيات والمدارس فى البلاد الاوروباوية والامريكانية بتحف أخرى ولايزال يدفع ايجار المنزل من ايراده

وفى باريس متاحف أخرى كثيرة لايجوز لى ان أتكلم عليها لانى لم أزرها وقد جرت عادتى انى لاأذكر الا ماعرفته بنفسى ولكنى أشير الى اسماء بعضها مثل متحف الطوبجية والاثاث الاهلى والطب ومقابلة التشريح والمعادن وآلات الموسيقى والرصدخانة والنقود والمحفوظات (الدفترخانة) والمتحف التاريخى لمدينة باريس (وبه مكتبة فيها نحو ٩٠٫٠٠٠ مجلد) ومتحف المجموعات الفنية لمدينة باريس ومتحف كاين وقد أسست زوجة كاين ومتحف جاليرا ومتحف الغشاشين (ويوجد له نظير فى كرك الاسكندرية) وفوق ذلك فان لاغلب المدارس والجمعيات العملية والفنية متاحف خاصة بها

قصور باريس

هذه بلد القصور حيثما قلب الانسان ناظره رأى قصرا شاهقا وبنيانا شامخا واتقانا زائدا ولكنى لاأتكلم الآن الا على بعض القصور المهمة واترك الباقى لفرصة أخرى

فمن أفخرها قصر التويلرى يدل على ذلك مابقى منه بعد الحريقة التى التهمته اثناء ثورة الكومون فى شهر مايو سنة ١٨٧١ كانت بنايته فى سنة ١٥٦٤ وقد أقيمت فى مكانه الآن حديقة أنيقة مزدانه بأنواع الازهار تتخللها تماثيل رمزية وفساقى تدفع الماء الى حيضان بهجة بكيفيات رشيقة تسر الناظرين

أما قصر اللوفر فقد شيد فى عام ١٥٤١ على اطلال قلعة عثر القوم على بعض بقاياها تحت الارض فى سنة ١٨٨٣ وسكنه كثير من ملوك فرنسا قبل أن يكمل تماما حتى جاء الامبراطور نابليون الاول فشدد الاوامر بانهائه ولكنه لم يساعده الزمان على بلوغ الغاية فى هذا الامر الجليل فلما كان الامبراطور نابليون الثالث أتمه على الوجه المرغوب واحتفل بافتتاحه فى سنة ١٨٥٧ وقد بلغت اكلافه ثلاثة ملايين من الجنيهات الاسترلينية (٧٥ مليون فرنك) وفيه رسوم ونقوش وتصاوير وتماثيل وزخرفة وتزويق فى الجبس والحجر والرخام والخشب وعلى وجهاته وعقوده وجدرانه

Digitized by Google

وسقوفه ونوافذه ومطلاته وافنائه ورحبانه تسلب العقول وتخلب الالباب وواجهته الاصلية مركبة من عمد مستنده على عمد تمثيلا لاجمل وأعظم هيأ كل العبادة عند قدماء اليونان وخلاصة القول انه اليوم تحفة حوت متاحف واعجوبة جمعت عجائب

ومما يلحق بهذا القصر ميدان الكاروسل وهو من أجمل ميادين باريس ويبتدئ بقوس فخار هائل تحيط به البساتين الناضرة ويحف به من اليمين والشمال تمثالان رمزان للحرية والشريعة ومن هذا المكان يمتد النظر الى بستان التويلرى والمسلة المصرية وقصر الشانزلزى وقوس فخار الكوكب وينتهى الميدان المذكور بحدائق اللوفر وفيه تجاه قوس فخار الكاروسل عمود أثرى أقيم لتخليد ذكر غامبتا المشهور وهذا العمود يتركب من كتلة حجرية عظيمة تحيط بها تماثيل من البرونز (الشبهان) تصور الحقيقة والقوة والحرية والمساواة وفوق هذه القاعدة منشور هرمى من الصوان يبرز منه تمثال الرجل واقفا ومائلا برأسه الى الخلف قليلا وباسطا ذراعه الايمن بشهامة وهو يرشد أبناء وطنه الى الواجب والشرف وتحت أقدامه الذائدون عن حياض الوطن يرعاهم ملاك فرنسا وقد ارتفع بأجنحته الى عنان السماء فقاموا من سقطتهم ونفضوا ماعليهم من الغبار وجمعوا أسلحتهم المتكسرة وعلى الواجهات

الاخرى من المنشور جمل مقتطفة من المقالات الرنانة التى ألقاها هذا الخطيب على قومه يدعوهم الى الدفاع عن بلادهم الى آخر نقطة من حياتهم وغير ذلك وفوق قمة هذا الاثر تمثال رمزى للديمقراطية (أى حكومة الاهالى بأنفسهم) وقد فازت وعلت كلمتها فامتطت صهوة غضنفر ذى أجنحة ـ وقد أقيم هذا التمثال فى ١٣ يوليو سنة ١٨٨٨ بنقود جمعها القوم من اكتتاب عام اشترك فيه أبناء فرنسا المقيمين فى حومتها والبعيدين عنها

وأما قصر البورصة فهو على شكل معبد يونانى بمافى واجهته وحوله وفى داخله من السوارى والاساطين وطوله ٦٩ متراوعرضه ٤١ وفى أركانه من الخارج تماثيل أربعة للتجارة والعدالة القنصلية والصناعة والزراعة وفى داخله قاعة كبيرة للعمليات المالية تسع ألفى شخص وعلى جدرانها تصاوير بالغة فى الاتقان بحيث يخالها الناظر نقوشا بارزة وهى عبارة عن الاحتفال بافتتاح البورصة على يد شارل التاسع وفرنسا وهى تستقبل الاتاوة من أقسام الدنيا الخمسة واتحاد التجارة والعلوم والصنائع وأهم المدائن فى فرنسا ـ وقد زرت هذا القصر ولكننى أعترف بأنى لم يتيسر لى أن أدرك شيأ من أحواله أو أقف على نزر من تفاصيل ماجرياته حتى كنت أتحف بها القراء وغاية مارأيته فيه جلبة

وضوضاء وصياح وصخاب وتماوج وتدافع وأيدى ترفع وأرجل تهرول وأقوام يخرجون و آخرون يدخلون وفى يد كل واحد قرطاس وقلم من الرصاص وصكوك مختلفة الالوان ولا أدرى كيف يتفاهمون فى بابلهم هذه وان كانوا كلهم بلغة واحدة يتخاطبون - وفى هذا القصر مكتب للتلغراف وآخر للتلفون وبارومتر كبير وسكردان يتناولون فيه غداءهم من غير أن يبتعدوا عن الميدان

أما قصر الانواليد (لعساكر السقط) فقد شاده الملك لويز الرابع عشر فى سنة ١٦٧٠ فان هذا الملك العظيم أراد أن يضمن حياة طيبة للعساكر الذين تبتر بعض أعضائهم أو تصيبهم بعض العاهات ولا يكون لهم وسيلة للتعيش بعد ان وخط الشيب رؤسهم وهم فى سلك النظام ولكن الذى نظم هذا القصر حقيقة وأجاد ترتيبه انما هو نابليون - ومسطح الارض التى يشغلها هذا القصر عبارة عن ١٢٦٩٨٥ مترا مربعا وهو معد فى الاصل لسكن ٥٠٠٠ نفس ولكنه اليوم لا يحتوى الا على ربع خمس هذا العدد لان قدماء الجهادية فى هذا الزمان يفضلون تمضية ما بقى من عمرهم فى استقلال وحرية وانفاق المعاش الذى يخوله لهم القانون بحسب ما يريدون - أما النازلون به فتعتنى الدولة عناية تامة

Digitized by Google

بمسكنهم ومطعمهم وملبسهم وتدفئتهم وكل مايلزم لهم

وامام هذا القصر رحبة فسيحة طولها ٥٠٠ متر وعرضها ٢٥٠ وفيها صنوف كثيرة من الاشجار

وبعـد هذه الرحبة فناء خارجي تحف به الخنادق من كل جانب ويحدق به من اليمين والشمال بطارية مدافع اغتنمها الجيش الفرنساوى فى حروبه وهى التى تستخدم فى انباء الباريسيين بالحوادث الكبيرة مثـل الانتصارات والمواسم وغـير ذلك وحول هذه المدافع مدافع أخرى من طرازات متنوعة وعيارات مختلفة وفى خـلال صـفوفها مماشى يتنزه فيها قـدماء الجنود النازلين بالقصر - أما واجهة هـذه البناء الفخيم فتحـدث فى النفس جـلالة وفى الفكر اجـلالا وطولها ٢١٠ أمتار وفيها ١٣٣ شباكا وعلى يمين الباب تمثال إله الحرب وعلى يساره إله الحكمة وفى الدهاليز تمثيل بعض الوقائع التى انتصرفيها الفرنساويون وفى الفناء الداخلى تماثيل كثيرمن قوادهم وشجعانهم وأهم مااستوقف انظارى فى نفس القصر هو المكتبة التى أسسها نابليـون وهى تحتوى على ٣٠ ألف مجلـد تقريبا ولايجوز الدخول والشـغل فيها الا للعساكر السـقط ومن ملحقاتها قاعـة تحتوى على صور جميع مارشالات فرنسا ومديرى هذا القصر وتصـغير يمثل للرائى

عمود وندوم المشهور والقنبلة التى قتلت تورين فى سنة ١٦٧٥ وهو من أفرس ابطالهم ومثال من الجبس لتمثاله فوق فرسه وبعض المخلفات التى تركها نابليون فى جزيرة سنت هيلانة منفاة جمعها بعض المغرمين بجده مثل اغصان من الشجرة التى كان يستظل بها وقطرات من الينبوع الذى كان يستقى منه وقبضه من التراب الذى وطئه بقدمه وقصة من شعره وقطعة من ورقه وما أشبه ذلك وضعها بعض المجيدين فى لوحة تأخذ بالابصار لما أودعه فيها من الابداع وهنالك أيضا أشياء كثيرة من التى كان يستخدمها الامبراطور فى منفاه

وفى هذا القصر كنيسة باسم القديس سان لويس وليست ذات أهمية بالنسبة لبنائها بل لانها مخصصة لدفن المارشالات ومديرى القصر ولانها تحتوى على كثير من الآثار التى تحيي ذكر ابطالهم المعدودين وفى قبتها كثير من الرايات التى اغتنمها القوم فى مواقع القتال فى افريقية والقريم وايطاليا والصين والمكسيك والتونكين وفى احدى جهاتها صورة لسيدنا عيسى عليه السلام مرسومة على القماش ولكن الناظر اليها يخال انها مجسمة بكل انتظام

Digitized by Google

وخلف هذه الكنيسة قبر الامبراطور فى قبة هى أجمل أثر دينى مصنوع فى فرنسا بحسب الطرز اليونانى ولا يدخل القوم اليها الا بعد ان يرفعوا قبعاتهم تعظيما وتفخيما وفيها بيعة تحتوى على بقايا جيروم شقيق الامبراطور وبقايا ابنه البكرى وبيعة أخرى فيها قبر تورين ذلك البطل العظيم وامامها بيعة فيها اعظام ووبان Vauban وبجانبها ناووس فاخر يحتوى على بقايا شقيق آخر للامبراطور

أما قبر الامبراطور نفسه فهو فى ناووس من الصوان الاحمر لم ير الراؤون مثله فى البهجة والفخامة وهو فى وسط القبة فى حفرة عميقة مكشوفة للانظار ومبلطة بالفسيفساء وهنالك من التصاوير الهائلة وقبور المخلصين لهذا الرجل وتماثيل انتصاراته وغير ذلك مما يدهش الابصار ويقضى على الانسان بالاعظام والاكبار ويجعل خطواته مقرونة بالتحسب والهوينا ويذكره بان هذا العالم مصيره الفناء وان نهايات المجد الزوال ويتذكر قول القائل ﴿ألا كل شئ ما خلا الله باطل﴾ خصوصا عند ما يقرأ هذه العبارة التى أوصى بها نابليون (أتمنى أن تدفن عظامى على ضفاف نهر السين فى وسط هذه الامة التى أحببتها حبا جما) فيخرج المتفرج وهو يقول الملك لله والدوام لله سبحان الحى الذى لا يموت انا لله وانا اليه راجعون

وأما قصر الفنون المستظرفة - فقد أقيم على اطلال دير وتم تشييده فى سنة ١٨٣٩ وفيه مدرسة لتعليم الرسم والنحت والعمارة والنقش بانواعه وذلك التعليم نظرى وعملى ولهذا القصر فناآن وضعت فى أولهما أبواب قصور قديمة وأعمدة متقنة باشكال مختلفة وتماثيل للماهرين من الصانعين وغير ذلك وفى وسطه عمود من المرمر الاحمر مشوب بالشب وفوقه تمثال الخصب وأما الفناء الثانى ففيه مجاميع من تماثيل وقطع تماثيل من أيام القرون المتوسطة الى عصرنا هذا وفى وسطه فسقية من قطعة واحدة من الحجر كانت امام قاعة الطعام فى أحد الديور لاجل غسل الايدى وعلى الواجهة الاصلية لهذا القصر هذه الكلمات الثلاث (رسم عمارة نحت) منقوشة بعناية واتقان وتفنن وابداع وعلى اليمين والشمال اسماء الاساتذة الذين نبغوا فى هذه الفنون وفى دهاليز القصر وغرفه أمثلة لتماثيل قديمة ومعابد وثنية ومصنوعات فى النحاس وتصاوير رفائيل فى قصر الفاتيكان وأشهر العمائر فى فرنسا وغيرها وصور أعضاء جمعية الرسم والنحت وبعض أساتذة المدرسة وفيها مكتبة تحتوى على ١٢ ألف مجلد ونحو مليون من النقوش وفيه مجموعة للصور التى تحوز الطبقة الاولى فى امتحان رومة وهى أعلى درجة يمكن للمصور الماهر أن يتوصل اليها

Digitized by Google

وخلاصة القول انها حوت من طرائف الفنون ما يثبت فى تلامذتها قوة التصور وابراز الافكار على القرطاس أو الاحجار .

أما قصر لكسمبورج - فهو الآن مستقر لمجلس السناتو (شيوخ فرنسا) وقد زرته أربعة مرات بواسطة حضرة الفاضل الكامل الموسيو پوليا (M. Pauliat) أحد اعضائه الموفرين وهو قد وقف نفســه على خدمة ابناء العرب فى الجزائر وتونس والذب عن حقوقهم ورفع الاذى عنهم وللمسلمين فى قلبه محبــة شديدة و بواسطته تمكنت من الحضور فى الجلسات أربع مرات ووقفت عــلى اساليب المذاكرة والمــداولة والمناظرة والمناضــلة ولو شئت حضور الجلسات أكثر من ذلك لتمكنت بواسطته جزاه الله خيرا - هذا القصر أمرت بتشييده مارى دومدسيس زوجة هنرى الرابع على مثال القصر الذى تربت فيــه فى فلورانسة ثم تقلبت عليــه الاحوال فبعد ان كان سكنا للملوك أصبح سجنا فى أيام الثورة الفرنساوية ثم مقرا لمجلس المشــيخة ثم للقنصلية ثم للسناتو ثم لنبلاء فرنسا ثم لمحافظة السين (دار أمانة المدينة) ثم للسناتو فى هذا الزمان وفيه مكتبة تحتوى على أكثر من ٥٠٠٠٠ مجلد وفوقها قبــة مغشاة باشكال ناضرة فاخرة - وفى القصر تماثيل نصفية لبارات فرنسا (Pair de France) وشيوخها قديما

وهو من أجمل القصور وأكثرها زخرفة وتزويقا وقاعة الجلسات فيه
عبارة عن نصفي دائرة متقابلين يجلس الاعضاء باحزابهم وانشقاقاتهم
وتنوعاتهم في النصف الاكبر وأما الرئيس واعضاء الادارة ففي
النصف الآخر وعند ماتفتح الجلسة لايتم الانتظام بل يستمر
الاعضاء الذين يدخلون على التسامر فيما بينهم وعدم الالتفات
للخطباء ولا للرئيس وترى الموكلين بالخدمة يتصايحون بهذه
العبارة (صه ايها السادات) ويردونها جملة مرات فتذهب في
الهواء تتردد من جدار يدفعها الى جدار من غير أن يكون لها
تأثير على الحضار وترى بعض القوم يخرجون وآخرون يدخلون
والرئيس يدق الجرس في كل نفس فلا يؤثر أكثر من صياح
الحرس حتى اذا جاءت مواضيع المذاكرة الحقيقية وقام الخطيب
الذي عليه الدور أخذ الانتظام حده وصار القوم يرمقونه
ويتفهمون كلامه ومنهم من يجيبه بالتفنيد وآخر يؤيده بالتأكيد
وفريق يصفق له استحسانا وآخرون يهزون الاكتاف استهجانا
وبعضهم يقاطعه في الكلام وغيرهم يساعده على الاتمام
والرئيس يدعو الجميع الى ملازمة النظام وهكذا حتى ينتهي
الخطيب مما ندب نفسه اليه فيحتل مكانه أحد المتحزبين له
أو عليه ويصعد الوزير لتأييد سياسة الحكومة وتزكية مساعيها

Digitized by Google

اولبيان مايطلبه الاعضاء من الافصاح عن حالة البلاد فى الداخل أوالخارج ولايزال القوم فى أخذ وعطاء و بيع وشراء واستفهام عن ابهام وافصاح بقول صراح حتى تنفض الجلسة ويفيض الاعضاء من حيث أفاض الناس ولا يصبح الصباح الاوقد طبعت أعمال الجلسة وماقيل فيها كلمة كلمة وحرفا حرفا بالتمام والكمال اذفى خدمة المجلس كتاب مختزلون Sténographes ينقلون بالاشارات المختصرة كل مايلقيه الخطيب من البيانات أويرد عليه من الاعتراضات أو يقع من الاضطرابات أويظهر من الاشارات ثم يرسلونها للمطبعة بعد كل عشرة دقائق وهنالك يصير نقلها أوترجمتها للكتابة العادية وجمعها واعدادها للطبع فلا يجىء نصف الليل الا وقد تم طبع الجريدة الرسمية وفيها حوادث الجلسة بالتفصيل الذى ليس بعده تفصيل مع ان الجلسة لاتفتح الا فى الساعة الثالثة ونصف من بعد الظهر وقد تنتهى فيما بين الساعة الخامسة والسادسة أوبعد هذه بقليل

وأما قصر بوربون - فهو مقر مجلس النواب وله واجهتان احداهما تطل على نهر السين والاخرى على ميدان باسم القصر والاولى هى الواجهة الاصلية وفوق عمدانها نقوش ورسوم تمثل فرنسا وفى يدها الدستور وحواليها تماثيل الحرية والسلام والحرب والفنون

والفصاحة والصناعة والتجارة وقاعة الجلسات كلها من المرمر وحولها عمدان منضودة وهى على شكل نصف دائرة تسع ٥٨٤ نائبا ونظام الجلسات فيها يشبهه فى السناتو سوى ان اللغط فيها أكثر والعراك أظهر والخصام أقرب من حبل الوريد والدعوة الى المبارزة ليست بالامر الجديد بل قد تحصل فى كل لحظة عقيب أقل لفظة وقد رأيت فى كلا المجلسين ان بعض الخطباء لايوفق الى نوال القبول من عموم الحاضرين فيعطف بمناسبة حيثما اتفق الى ذكر الوطن وشرفه ومجده وفخره ووجوب التفانى فى اعلاء مقامه وبذل المهج لاعزازه ثم يحيى القائمين بنصرته الذائدين عن حومته ويترحم على وفاة من وفاه حقه وعرف واجبه وهكذا من الاساليب الخطابية فيخلب الالباب ويسحر العقول ويستجذب القبول فيجاوبه السامعون بالتصفيق وعلامات الاستحسان وكلمات الاعجاب خصوصا اذا كان قوالا سيالا وخطيبا مصقعا يعرف كيف يقرن الاشارات بالكلمات وكيف يكون توقيع الالفاظ ليكون لها وقع فى الفؤاد — وقد اتفق فى الجلسة التى حضرتها فى مجلس النواب حصول مطر بغير سحاب استبدلت فيه الامواه بالاوراق فكانت تتناثر على الاعضاء من غير افتراق وذلك ان رجلا اسمه الكساندر هوليه تربص فرصة مناسبة فقذف عليهم

بكراريس مطبوعة عنوانها (هتك ستر الطرارين) ولكن الجنود قبضوا عليه في الحال وأودعوه السجن تحت المحاكمة وقد قالت بعض الجرائد انه يعني بذلك مسألة بناما فكتب الرجل الى الجرائد انه لم يحم حول هذا المقصد ولا أعلم الآن ماذا تم في أمره

وأما قصر الصناعة ــ فهو معد للمعارض السنوية والجزئية وقد أقيم في سنة ١٨٥٥ بمناسبة المعرض العام من مال شركة مؤلفة من كثير من المساهمين ثم اشترته الدولة وله فناء مستطيل طوله ٢٥٠ مترا وعرضه ١١٠ أمتار ومسطحه ٣٢٠٠٠ متر وعلى بابه تمثال كبير يمثل فرنسا وهي توزع أكاليل الفخار من الذهب النضار على الصناعة والفنون وهما جالستان تحت اقدامها وعلى الجدران المحيطة بالقصر أسماء الذين برعوا في العلوم والفنون والصناعة مرقومة بحروف من الابريز وقد جعلوه بعد سنة ١٨٥٥ مقرا للمعارض السنوية للرسم والنحت والعمل والصناعة وفن الحدائق ومعارض الخيول والحيوانات والاطيار الخ وقد كان فيه اثناء مقامي بباريس معرض اشغال النساء فكان فيه جميع أصناف ملبوساتهن بحسب الازياء وتنوعها في كل عصر وعند كل أمة قديمة أو حديثة نسقوها على شكل معجب مطرب وخصوصا قبعاتهن وأشكالها المختلفة وتفننهن فيها بما يجذب

Digitized by Google

الابصار ويسلب الالباب وليس هذا مقام الشرح عليها فاترك وصفها الى فرصة أخرى

وخلف هذا القصر بناء من الحديد واللبن يسمى كشك مدينة باريس وهو معد لجملة معارض متنوعة وكان به أيام مقامى فى هذا البلد معرض الصنائع المتعلقة بلحم الخنزير وكانت الدولة ترسل اليه الموسيقى العسكرية تصدح فيه بالحانها الشجية

واختم الكلام فى هذا الموضوع الطويل العريض بخلاصة قصيرة على قصر التروكاديرو فقد بنى على رابية بمناسبة المعرض العام الذى أقيم فى سنة ١٨٧٨ وقد اشتركت فيه حكومتنا المصرية وأصابت حظا وافرا من الفضل والفخار وهو يشتمل على أحاسن أساليب البناء وطرازات العمارة وفوقه تمثال الشهرة وفى فيها بوق تنفخ فيه وفيه قاعة المواسم والاحتفالات مزخرفة بنقوش وتصاوير وفى هذه القاعة مكان للموسيقيين يسع ٤٠٠ نفر منهم بآلاتهم وأما القاعة نفسها فيمكن ان يجلس بها ٥٠٠٠ متفرج بالراحة وتحته حربي لاسماك المياه العذبة موضوعة فى مغارات فسيحة تتجدد فيها المياه على الدوام ومنظر هذا القصر وعمدانه وابراجه وأروقته وأجنحته وحديقته وفسقيته مما يفتن العقول ويستغرق الزمان فى التأمل والامعان

Digitized by Google

وفى باريس غير ذلك عدد كثير من القصور العمومية والخصوصية ولا أتكلم عليها لانى لم أدخلها

معامل باريس

مثل هذه المدينة العظيمة لايخلو من المعامل المتناهية فى الاتقان ولكنى لاأتكلم الآن الاعلى معامل الجبلين (بضم الجيم وسكون الباء وكسر اللام) ومعامل الدخان

فأما الاول فقد كان انشاؤه فى سنة ١٦٠٣ على يد الملك هنرى الرابع وبعد أن دار الشغل فيه نحو خمسين عاما اشتراه لويز الرابع عشر وجعله معملا للامتعة والاثاثات الملوكية بناء على اشارة وزيره كولبير فكان يشتغل العمال فيه بالطنافس والستائر المشهورة التى لانظير لها فى الكون وباشغال الفص والفسيفساء وبتلقيم العاج وتطعيم الابنوس وبصياغة الحلى والجواهر وباصطناع التماثيل المخصصة لقصر فرساى وبعد حكم هذا الملك اقتصر المعمل على اصطناع الطنافس والستائر وفى ٢٥ مايو سنة ١٨٧١ أحرق ثوار الكومون بفرنسا جزأ منه فالتهمت النار كثيرا من نفائس الطنافس وسائر الستائر وقد أبدع هذا المعمل فى تقليد الرسم وألوانه بالنسيج فى انواله على منواله مع الدقة والرقة

Digitized by Google

حتى ان الملوك والامراء يزخرفون قصورهم ومتاحفهم بمصنوعاته التي سارت بحسنها الركبان وفيه متحف حوى شيأ كثيرا من غرائب منسوجاته ومنسوجات الامم الاخرى وقد رأيت قباطى مصر المشهورة فى كتب العرب مع انى من بلادها ولم أرها فيها وربما تكلمت على هذا المعمل الجليل بما يستحقه من التفصيل اذا ساعدت العناية فى فرصة أخرى

وأما المعمل الثانى أى معمل الدخان فهو فى بناء كبير يبلغ مسطحه هكتاران ونصف وله خمسة أدوار ويشتغل فيه ١٩٠٠ عامل أكثرهم من النساء وقد رأيت فيه من جميع أصناف الدخان وكيفية تهيئته بعد عرضه لعمليات متعددة واعداده سجاير سائغة للشاربين ويبلغ مقدار الدخان الذى يبيعه فى السنة الواحدة ٧,٦٥٠,٠٠٠ كيلوجراما وقد علمت من مديره ان قيمة الربح الصافى الذى يصيب الخزينة من معامل الدخان فى السنة هو ٣٥٠ مليون فرنك (١٤ مليون جنيه انكليزى) مع ان جميع المستخدمين به لهم معاش كامل من غير ان يخصم منهم يوم احتياطى

ولوجود هذه المعامل فى كل أوربا منفعة أخرى أعم وأهم وهى ان الذين يشربون الدخان فى هذه البلاد موقنون بجودة الصنف

Digitized by Google

وانه ليس مشوبا بورق الخس والقلقاس وخوص النخل وغير ذلك مما تتولد منه بعض الامراض الصدرية التى لا يشفى منها صاحبها كما انه يتعذر أو يتعسر شفاؤه من معاقرة هذا النوع من الشراب ولما كانت هذه المسئلة ذات أهمية عمومية عظيمة فقد اتفقت مع حضرة المدير المشار اليه على ان يتحفنى بما يلزم من المعلومات والبيانات لانشرها بين قومى عسى أن يكون لها بعض الفائدة وقد بلغ مجموع استهلاك الدخان فى فرنسا فى سنة ١٨٩١ ٣٥٨١٣٨٥٤ كيلوجراما منها ٢٩١١٠٠٩٢ كيلوجراما من الدخان المعد للتدخين و ٥٤٥٧٤١٣ من الدخان المعد للنشوق و ١٢٤٦٣٤٩ من الدخان المعد للمضغ واليك جدول الاستهلاك بالكيلوجرام فى جملة سنين لمعرفة زيادة انتشار هذه العادة أو الآفة

سنة	دخان التدخين	دخان النشوق	دخان المضغ	مجموع الكميات المباعة
١٨٦٩	٢٢٦١٩٠٧٩	٨١٦٨٤٥٠	١٢٤٥٢٢٩	٣٢٠٣٢٧٥٨
١٨٧٤	٢١٣٤٨٣٢٢	٦٥٧٣٦٤٤	٠٩٦٦٢٥٩٥	٢٨٨٨٤٥٦١
١٨٧٩	٢٤٣٠٣٩٤٢	٦٨٢٧٦١٤	١١٦٥٦٨٢	٣٢٢٩٧٢٣٨
١٨٨٤	٢٨٠٥١٠٩٩	٦٧٠٢٦٥٩	١١٨٠٩٥٧	٣٥٩٣٤٧١٥
١٨٨٩	٢٨٧٨٤٦٦٠	٥٨٣٤٣٩٠	١٢٠٠٢٦٢	٣٥٨١٩٣١٢
١٨٩١	٢٩١١٠٠٩٢	٥٤٥٧٤١٣	١٢٤٦٣٤٩	٣٥٨١٣٨٥٤

Digitized by Google

ولاجل أن تكون المقارنة صحيحة ينبغي التنبيه على وجوب تنزيل نحو مليونى كيلوجرام من المقادير الخاصة بسنة ١٨٦٩ وذلك فى نظير استهلاك أهل مقاطعتى الالزاس واللورين فانهما انفصلتا من فرنسا بعد حرب السبعين ومن هذا الجدول يتضح ان مجموع استهلاك الدخان لم يتغير تغيرا محسوسا منذ سنة ١٨٨٤ وان استهلاك دخان التدخين قد ازداد بالتدريج بنحو مليون من الكيلوجرامات ومثله دخان المضغ ولكن النشوق أخذ فى النزول بنسبة ٢٠ فى المائة

وقد بلغت كميات الدخان المستهلك فى مقاطعة السين وحدها (وهى التى بندرها باريس) فى سنة ١٨٩١ نحو ٤,١٦٤,٧٩٠ كيلوجراما (منها ٣,٥٣٧,٧٧٨ للتدخين و ٣٧,١٥٧ للنشوق و ٨٩,٨٥٥ للمضغ) يقابلها فى سنة ١٨٦٩ ٣,٦٩٨,٠٠٠ (منها ٢,٨٥٠,٣٧٧ للتدخين و ٧٥٣,٠٢٨ للنشوق و ٩٤,٨٣٥ للمضغ)

خزائن الكتب بباريس

اشتهرت هذه المدينة بالفوقان على غيرها فى ميدان الخلاعة والجد فانها مقر الملاهى والبدع والمبتدعات ومركز المعارف والمعالى والمخترعات فلا يخلو أقل بيت فيها من خزانة كتب بحسب

Digitized by Google

حالة صاحبه وذوقه فكل أهاليها يقرؤن و يكتبون حتى ان سائق العربة بل والكناس اذالم يكونا مشغولين بالسوق والكناسة يكونان منكبين على القراءة والدراسة وبهذه النسبة يقاس ولوع القوم بتثقيف العقول وتنوير الاذهان كلما صعدنا فى سلم الارتقاء الى أعلى الطبقات ولا أدعى الاقتدار على استيفاء الكلام فى هذا المطلب على خزائن الكتب فى باريس ولكنى أذكر لمعا يسيرة عنها بغاية الايجاز حتى يتصور القارئ ماهيتها فيتمكن من الحكم عليها

فان وجود الكتبخانات من اسمى الدلائل على ارتقاء المدنية وضخامة العمران ومن أوجب الاعمال لتخليد الذكر وحسن الاحدوثة حتى لقد سعى الملوك فى جميع الاعصار فى جمع الكتب والعناية بها لينوه التاريخ بذكرهم فى جملة المساعدين على نشر المعارف وتوسيع دائرة العلوم أما الآن وقد اتسع نطاق العرفان وساغت موارد التعليم للطالبين فقد صارت العناية بالكتب فرض عين على جميع الحكومات المتمدنة

المكتبة الاهلية ـ هذه المكتبة يكاد لايكون لها مثيل فى العالم وأول من عنى بتأسيسها شارل الخامس ملك فرنسا فى

Digitized by Google

سنة ١٣٧٥ فانه جمع ١٢ ألف مجلد وجعلها بقصر اللوفر ثم انها نقلت منه فيما بعد الى جهات أخرى

ولما جاء الملك فرنسوا الاول اهتم بها اهتماما خصوصيا وزاد فى عددها لغرامه بالمعارف وولوعه بالعلوم حتى انه نقلها الى قصره فى فونتنبلو لتكون على مقربة منه ثم ان الملك شارل التاسع أعادها الى باريس ولكن ازديادها فى كل يوم كان يوجب نقلها من مكان الى آخر على انها مع كل هذه العناية لم تزد عن خمسة آلاف مجلد فى أول عهد الملك لويز الرابع عشر فاهتم حينئذ وزيراه كولبير ولوفوا بشأنها وتقدمها اهتماما لايزال مستمرا الى يومنا هذا ثم توالت عليها الهدايا والوصايا من كتب بخط اليد ومداليات وأحجار منقوشة ونقود ومبصومات وغير ذلك ولقد بلغت المطبوعات فيها فى سنة ١٧٨٩ ثلاثمائة ألف مجلد (٣٠٠٠٠٠) ثم ازداد هذا العدد زيادة كلية فى أيام الثورة الفرنساوية بما توارد عليها من الكتب التى انتزعت من الاديرة ومن قصور المهاجرين حتى انه صار من المستحيل عمل فهرست أو برنامج للمكتبة واكتفى القوم بوضع الكتب المستجدة فى أقسامها الخاصة بها باعتبار الحروف الهجائية لاسم المؤلف

ومما يستحق الذكر انها صارت فى دفعتين عرضة لمصيبة

Digitized by Google

من أعظم المصائب ولم تنج منها الا بما بذله مستخدموها من شدة العناية وصادق الاخلاص فان البروسيانيين لما حاضروا باريس فى سنة ١٨٧٠ كانت المكتبة مهددة بالحريق فى كل لحظة اذلو وقعت عليها قنبلة لكانت أعدمت هذه الكنوز الثمينة الى أبد الآبدين فلذلك كان أغلب مستخدميها يذهبون بالنهار الى الحصون والقلاع للدفاع عن المدينة ومتى جن الليل يرجعون الى المكتبة ويطوفون حوالها خفراء عليها وبعضهم يصعد على أسطحتها للوقاية من هذا العدوّ المبين وهو النار ولما دخل البروسيانيون باريس اجتهد عمال المكتبة فى اخفاء أهم مافيها من الكتب التى بخط اليد حتى لاتطمح اليها أنظار الفاتحين

ولما تم عقد الصلح وعادت السكينة الى ربوع فرنسا جاء خطر جديد لم يكن فى الحسبان وهو ثورة الكومون وذلك انه لما زحف الثائرون من فرساى على باريس ودخلوها كانت النار تهدد الكتبخانة من كل جانب ولكن الله سلم

ولما عادت المياه الى مجاريها واشتغل الناس بالعلوم والمعارف اكتسبت المكتبة أهمية فوق العادة حتى لقد بلغ عدد الكتب التى وردت اليها فى سنة ١٨٩٠ وحدها ٧٠٠٠٠ مجلد

وعدد مافيها من الكتب الآن يبلغ مليونين ونصف مليون

Digitized by Google

واذا أضفنا الى ذلك العدد ما هنالك من المجاميع والكتب المكررة لبلغ العدد ثلاثة ملايين بالتقريب

ولا شك ان هذه الكنوز المتعددة تستوجب تحرير فهرست واف ببيان محتوياتها وقد راعت ذلك الجمعية التشريعية فأصدرت بهذا المعنى أمرا عاليا فى ٢ يناير سنة ١٧٩٢

ولكن كثرة الوارد حالت دون كل نظام غير ان عمالها قد ابتدؤا فى سنة ١٨٥٢ بتحرير أوراق منعزلة بالبيان الكافى عن كل كتاب ورد للكتبخانة وقد كاد الفهرست العمومى يتم اليوم واعلم ان المبلغ المخصص للطبع هو قليل جدا بالنسبة لجسامة العمل فانه عبارة عن ١٠ آلاف أو ١٢ ألف فرنك فقط مع ان المتحف البريطانى بلوندرة ينفق فى مثل هذا السبيل ٢٠٦١٢٥ فرنكا وفى غرفة المطالعة ٧٥٠٠٠ مجلد ويقابلها فى مثلها فى المتحف البريطانى ٥٠٠٠٠ ولكن المانع الوحيد هو ضيق المحل فى باريس

وكانت متصلة بعمائر ومساكن لبعض الافراد فقرر البرلمان مبلغ ١٦٦٥٠٠٠٠ فرنك لعزلها عنها فاجتهدت الدولة حينئذ حتى اشترت هذه المبانى واضافتها الى المكتبة لتوسيع نطاقها وعزلها عما يجاورها بحيث أصبحت فى سنة ١٨٨٢ كجزيرة تحيط بها شوارع أربعة

Digitized by Google

من الجهات الاربع وتلك العناية بقصد الوقاية من اتصال الحريق اليها مما يجاورها وفيها مركز لرجال المطافئ وهي على أربعة أقسام أولها قسم المطبوعات والخرائط والمجموعات الجغرافية وثانيها قسم الكتب المخطوطة (التي بخط اليد) والنظامات السياسية والاجازات أي الدپلومات وثالثها قسم الميداليات والاحجار المنقوشة والقديمة ورابعها قسم المبصومات . وفي الخزانة غرفة للمطالعة تفتح في كل يوم من الاسبوع حتى في أيام الاحد من الساعة التاسعة صباحا الى الساعة الرابعة والخامسة أو السادسة الافرنكية من المساء بحسب اختلاف الفصول وفيها غرفة أخرى للاشتغال بالكتب ومراجعتها

فأما قسم المطبوعات فهو فريد في أوروبا يزيد على جميع مكاتبها بكثرة ما فيه من الكتب النادرة المعدومة فانه وحده يحتوى على ٢,٥٠٠,٠٠٠ مجلد من ضمنها الكتب التي ظهرت أيام نشأة المطبعة أو التي طبعت في أشهر المطابع القديمة

وأما غرفة المطالعة ففيها طاولات عظيمة يجلس حواليها ١٠٠ مطالع بالراحة. وفيها نحو ٢٥,٠٠٠ مجلد من مجموعات دورية وعلمية وموسوعات ومعاجم وأشهر الكتب المتداولة في الآداب والعلوم والصنائع وغير ذلك وعلى عقود هذه الغرفة اسماء أشهر الطباعين والمشتغلين بفن الكتب

وأما غرفة الشغل فمساحتها ١١٥٥ مترا مربعا ويمكن أن يجلس فيها ٣٤٤ شخصا بكمال السعة والراحة وسقفها عبارة عن ٩ قباب مغشاة من الداخل بالقيشانى ومتكئة على أساتيد مقربصة من الحديد قائمة على ١٦ عمودا من الزهر ارتفاع كل عمود منها ١٠ أمتار وحوالى هذه الغرفة دواليب فيها نحو ١٠٫٠٠٠ مجلد من معاجم ومجاميع وغير ذلك وهى متصلة بخزانة الكتب الخاصة بها وفيها أكثر من ١٫٢٠٠٫٠٠٠ مجلد ويتصل بهذا القسم المجموعة الجغرافية ولانظير لها فى أوربا كلها اذ جمعت فيها الدولة الفرنساوية خرائط جغرافية للممالك والبقاع والبلدان وأغلبها مصنوع بالجبس وفيه خرائط فرنساوية وأجنبية من جميع اللغات ويبلغ عددها ٢٥٠٫٠٠٠ خرطة

أما القسم الثانى ففيه أوراق وكتب من جميع اللغات ومجموعها ٩٠٫١١٩ مجلد منها نحو ٨٫٠٠٠ مزينة باشكال وتصاوير وحروف مذهبة ومزوقة ويتبعه مجموعة من أوراق البردى المصرى والاغريقى واللطينى وتعليمات شارلمان والعهود والعقود من سنة ١٢٠٠ الى سنة ١٤٣٥ ومنشورين من البابا على ورق من البردى تاريخه سنة ٩٩٩ وغيرذلك وفيه حجرة قد وضعت فيها جميع مؤلفات ڤولتير فيلسوفهم وشاعرهم وأديبهم ومؤرخهم المشهور وفيه أيضا صناديق مغطاة بالواح من الزجاج

Digitized by Google

تحتوى على أندر ما يوجد من المطبوعات والمخطوطات ذات القيمة الغالية تدل على أصول المطبعة والتجليد وغير ذلك وفيها كتب بخط اليد يونانية وشرقية وأمريكانية وكتب كانت ملكا للملوك والسلاطين وتجليد عجيب بالعاج والباغة وأوراق بردى ورق غزال وغيره وخطوط بعض المشاهير

أما القسم الثالث فأول من أسسه لويز الرابع عشر وهو من أهم المجموعات المماثلة له فى العالم فانه يحتوى على أكثر من ٢٠٠،٠٠٠ ميدالية وفى الدهليز الموصل اليه منطقة فلك البروج التى كانت بدندرة ومجلس أجداد تحوتمس الثالث وكلاهما أتى بهما الفرنساوية من مدينة طيبة بالصعيد ويوجد به أيضاً ألواح قديمة من أحجار متنوعة عليها نقوش بلغات شتى مهجورة وفيها أحجار دقيقة كريمة منقوشة أو محفورة بالتجويف أو بالتبريز ونقود اسلامية وغير اسلامية وغير ذلك مما يطول شرحه

وأما القسم الرابع ففيه أكثر من ٢،٢٠٠،٠٠٠ قطعة مجموعة فى ١٤٠٠٠ مجلد و ٤٠٠ لوح من الورق المتين المعروف بالكرتون وفيها مبصومات تدل على تاريخ الفنون فى فرنسا من ابتداء القرن الخامس عشر الى عصرنا هذا وغير ذلك

﴿ ونعنى بالمبصومات تلك الرسوم المصنوعة بالريشة أو بالقلم

Digitized by Google

الرصاص لكي تكون قاعدة في الطبع وهي بالنسبة لالواح الصور الزيتية كالترجمة للاصل

ولنتكلم الآن على ميزانيتها اظهارا لمزيد أهميتها فقد كانت في سنة ٩٢ ٧٨٨٠٠٠ فرنك منها ٤٣٦ ألف للمستخدمين و ٢٧٢ ألف للادوات والمهمات و ٨٠٠٠٠ للفهرست والمخصص للمشترى من هذه المبالغ هو ٨٠ ألف فرنك وللتجليد ٢٥٠٠٠ فرنك

أما ميزانية المتحف البريطاني فانها تزيد على ٥٠ ألف جنيه أى ٢٥٠،٠٠٠ فرنك نصفها للماهيات والنصف الآخر لمشترى الكتب وتجليدها وغير ذلك نعم ان المتحف البريطاني فيه كثير من المجاميع العلمية غير الكتب والآثار والمخلفات القديمة ولذلك ينبغي لنا المقابلة بين قسم المطبوعات في كل منهما

ففي باريس ٦٠ مستخدم وعامل وفي مثله في لوندرة ١٢٢ مستخدما وعاملا مرتبهم ٤٩٦٠٥٠ فرنكا وهذا جدول مقابلة الماهيات

(مكتبة باريس)

العدد	الوظيفة	المبلغ	
١	مدير عام	١٥٠٠٠	فرنك
١	سكرتر وصراف	٧٠٠٠	«
٤	امناء	١٠٠٠٠	«
٦	مساعدو أمناء	٧٠٠٠	«
٥٠	كتبخانجي ووكلاء وتحت التمرين	١٨٠٠ الى ٦٠٠٠	«

وغيرهم من أصحاب اليومية والكتبة

Digitized by Google

(المتحف البريطاني)

حافظ		١٨٧٥٠		فرنك
٤ مساعدون	من	١٢٥٠٠	الى	١٥٠٠٠
١٣ معاون درجة أولى	«	٦٢٥٠	«	١١٢٥٠
٢٢ « « ثانية	«	٣٧٥٠	«	١٠٢٥٠
٣٦ « « ثالثة	«	٢٧٥٠	«	٣٠٠٠
٤٦ فراش	«	١٠٠٠	«	٢٥٠٠

وكانت ميزانية المكتبة الاهلية فى أيام لويز الخامس عشر عبارة عن ٦٨٠٠٠ ليرة أى فرنك منها ٤٦٤٦٩ للمستخدمين و ٢١٥٣١ لمشترى الكتب والادوات وفى سنة ١٧٧٨ بلغت ٧٣٠٠٠ ليره ثم ازدادت فى أواخر حكم الملك لويز السادس عشر مبلغا جسيما جدا بالنسبة لذلك الوقت وهو ١٦٩٢٢٠ ليره وعشرة صلدى منها ٦٣٠٠٠ للمشتروات

كتبخانة سنت جنفياف (بفاين فارسيتين) - تحتوى على ٢٠٠ ألف مجلد منها أربعة آلاف بخط اليد وفيها زيادة على ذلك ٢٥ ألف لوحة مزدانة بنقوش بديعة وفيها خرائط قديمة كثيرة ومبصومات وفيها غرفة مطالعة خصوصية تحتوى على أغرب

مافيها من مجاميع وكتب بخط اليد ومطبوعة ونقوش وفيها تمثال أرلرمش چيرنج أول من أدخل فن الطباعة الى باريس فى سنة ١٤٧٠ وغيره من المشاهير وفيها غرفة مطالعة عمومية تسع ٤٢٠ شخصا وحواليها ستائر من صنع الجُبلين تمثل المطالعة وقد دهمها الليل وهو رمز الى الشغل النهارى والليلى فى هذه الغرفة

كتبخانة مازارين - وهى فى جمعية المعارف وفيها ٢٥٠ ألف مجلد منها ٦ آلاف بخط اليد

هذه هى أشهر المكاتب العمومية وفى المدينة مما يقاربها مكتبة متحف الفنون والصنائع وقد قلنا انها تحتوى على ٣٠ ألف مجلد ومكتبة مدرسة فرنسا الجامعة وفيها ٤٣ ألف مجلد ومكتبة مدرسة الفنون المستظرفة وقد قلنا ان عدد كتبها ١٢ ألف ومكتبة المجموعات التاريخية لمدينة باريس وفيها ٩٠ ألف مجلد و ٧٠ ألف مبصوم ومكتبة مدرسة المعادن وفيها ٦ آلاف مجلد ومكتبة بستان النبات وفيها ٨٠٠٠ مجلد ومكتبة الاوبرا وفيها ١٥ ألف مجلد وكراسة و ٦٠ ألف مبصوم وفيها كثير من الرسوم والتصاوير والتماثيل الخاصة بفن التشخيص والموسيقى

والقيان والقينات وقد ذكرنا كتبخانات أخرى فى الفصل المتقدم

واعلم ان لكل جمعية مهما كانت غايتها ومذهبها ومشربها فى السياسة والصناعة والعلوم مكتبة خاصة بها تعد المجلدات فيها بالالوف وعشرات الالوف وكذلك الشركات والمدارس والمكاتب العمومية ولاغلب الكتبخانات فترة معينة فى السنة تقفل فيها

العمائر الدينية فى باريس

يوجد بهذه المدينة ٧٠ كنيسة (ذات أبرشية) غير البيع الصغيرة التى قد لايخلو بعضها من الاهمية والسائح الذى يريد أن يقف على الدقائق ويكون له بعض احاطة عمومية باحوال البلاد التى يجوبها لايصح له أن يغض الطرف عنها ولكنى أقتصر فى هذه الخلاصة على بعض اشارات خفيفة وأقوال وجيزة

كنيسة نوتردام — كان البدء فى بنايتها سنة ١١٦٥ ثم توالى عليها التدمير والترميم والتكميل والتحويل والتبديل حتى استقرت على ماهى عليه الآن منذ سنة ١٨٤٥ وطولها ١٣٣ مترا

Digitized by Google

وعرضها ٤٨ وارتفاعها ٣٣٫٧٧ مترا فى المتوسط ولم يحصل
تكريسها الا فى سنة ١٨٦٤ وهى من أجل العمائر التى فى فرنسا
على الطرز القوطى المتفرد بالشكل البيضاوى ويحف بواجهتها
برجان ضخمان وفيها كثير من تماثيل القديسين والقديسات
وغيرهم وملوك وأمراء وفيها جرس زنته ١٣ ألف كيلوجرام وجرس
مأخوذ من سباستبول حينما تحالف الفرنساوية والانكليز
وسرادنيا مع الدولة العلية أيدها الله على الروسية ولم يغلبوا
الروس الا على سباستبول وفيها وردة من الزجاج عرضها ٩ أمتار
و ٦٠ سنتى تمثل باشكالها وألوانها الحواريين الاثنى عشروهم
مجتمعون فى مكان واحد وفوقها سهم من خشب البلوط مغشى
بالرصاص مركب من ثلاثة أدوار أفرغ صانعه جهده فى تنسقيها
وتزويقها وهذه الادوار على شكل هرمى ويرتفع السهم عن الارض
بخمسة وتسعين مترا وثقله ٧٥٫٠٠٠ كيلوجرام منها ٥٠٠٫٠٠٠
من الخشب و ٢٥٠٫٠٠٠ من الرصاص وفى داخل الكنيسة
٣٧ بيعة ومنابر متناهية فى الجمال يعظ فيها القساوسة الناس
وفى الخوروس أشغال فى الخشب تبهر الانظار خصوصا التراكيب
والترابيع المعروفة بالعربية التى هى عبارة عن خطوط متشابكة
متلابكة متداخلة فى بعضها على طريقة أهل المشرق والاندلس

Digitized by Google

وفيها أرغن من أكبر أمثاله فى فرنسا وأكلها يحتوى على ٦٫٠٠٠ قصبة لاخراج الهواء وتوقيع الانغام ـ وأهم ما فيها بصرف النظر عن ضخامة البناء واتساع الارجاء وانتظام العقود وارتفاع القباب انما هو خزينة الذخائر فانها تحتوى على مخلفات ثمينة مصنوعة من الفضة الخالصة والذهب الصافى ومرصعة بالاحجار الكريمة وأوانى مقدسة ومباخر والعباءة التى تردى بها نابليون حينما كرسه البابا امبراطورا على فرنسا والتحف النفيسة التى أهداها الامبراطرة والملوك والملكة مارية انطوانيت وتمثال من الفضة للسيدة مريم عليها السلام وصور وتماثيل رؤساء الاساقفة فى باريس ومجموعة من الاحجار الكريمة محفورا فيها صور جميع الباباوات الماضين وجملة صلبان وكؤس وجامات وشمعدانات وغير ذلك من الحلى والملابس المزركشة المرصعة التى تستخدم فى الاحتفالات الدينية الكبيرة وفى بعض الايام يعرضون على الجماعات المتقاطرة الى الكنيسة صندوقا فيه اكليل الشوك وبعض المسامير التى يقال انها استخدمت فى صلب كلمة الله (عليه السلام) ويعرضون قطعة من خشب الصليب أحضرها هى والاكاليل والمسامير القديس لويس من بلاد المشرق أيام الحروب الصليبية

وخلف هذه الكنيسة منتزه بديع يفضى الى مكان مربع

تنقبض له النفوس وتصم من ذكره الآذان وهو المعروف عندهم بالمورج تعرض الحكومة فيه الاموات الذين لا يعرف أهلهم حتى اذا استدل عليهم أحد من العموم أرشد جهات الادارة عنهم وقد زرته ورأيتهم يحفظون الغرقى والمقتولين والمشنوقين وغيرهم مع العناية المتناهيـة والاحتراسات الواقية فلا تخرج منهم رائحـة مطلقا وليس منظرهم بشعا مشوها بل تراهم كانهم نيام لابسـين ملابس لائقة ولا يظهر منهم الا وجوههم

البيعة المقدسة — بنيت فى سنة ١٢٤٢ وتمت بعد ذلك بخمس سـنين وهى فى باريس كالدرة اليتيمة فى العقد النفيس خصوصا سهمها الذى لم ير الراؤن أبدع منه فى الحسن والجمال وهى أقدم وأجل مافى باريس من العمائر القوطية بناها الملك لويس التاسع القديس ليضع بها الاكليـل الشوكى والمسامير وقطعة الخشب التى سبق لنا الكلام عليها بعد أن اشـتراها من بودوين الثانى ملك القسطنطينية وقـد اسـتخدمت حينا من الدهر كمسـتودع للمحفوظات القضائيـة ولكنهـم رمموها الآن كما ينبغى واقتضت العمارة فيها ثلاثين سـنة من الزمان وبظاهر وجهتها تمثال الملك لويس وشـقيقه لويس الاسـقف وفوقهما تمثال العـذراء عليها السلام والبيعة من الداخل تتلألأ بالزخرفة الفاتنـة والنقوش

المذهبـة وهى على شكل بيعتـين احـداهما فوق الاخرى فأما السفلى فلا تستعمل الآن فى تعبداتهم الدينية وأما العليا فيحصل فيها القداس فى يوم ١٦ اكتوبر وقد كان القضاة بالمحاكم ملزمين بحضوره قبـل هـذا الزمان و بجانب سواريها تماثيل الحواريين الاثنى عشر وفيها من الشبابيك مايبهر الابصار وتحار فيه الافكار من انسجام ألوان الزجاج وتناهى بهائه وصفائه مع الاحكام فى التنسيق والاجادة فى التزويق وفوق البوابة وردة من قطع الزجاج تقر لرؤيتها العيون وتعترف بجمالها العقول

كنيسة سنت أوستاش ـ أحسـن الاوقات لزيارة هـذه الكنيسة المتناهيـة فى الضخامة يوم الاحـد اذ يكون فيها تلحين الآلات الموسيقية وتوقيع النغمات الصوتيـة بكيفية تطرب لها الاسماع وهى شبيهة ببعض القصور العربية من ان خارجها لاينبئ بشئ عما فى داخلها من الزخرفة والاتقان فان واجهتها وجهاتها من الخارج حقيرة بالنسبة لما يكنه داخلها من متانة الصناعة وجسامة المقادير وضخامة الاحجار وارتفاع العقود ارتفاعا متطاولا واتساع الاقواس اتساعا هائـلا حتى ان الانسان ليخال له انها أعدت للتحصن والاعتقال وكان البدء فى تشييدها فى سنة ١٥٣٢ وتمت فى سنة ١٦٤١ ولذلك فهى ليست على مثال واحد أومن

Digitized by Google

طرز متجانس من الطرازات المتعارفـة فى فن العمارة ولكنها من أجمل كنائس باريس وأكثرها زخرفة وتزويقا وطالما مررت عليها ولم تكن نفسى تحدثنى بضياع الوقت فى الدخول اليها ولما شاهدتها رأيت أنها بعكس خضراء الدمن ظاهر قبيح وباطن مليح ولا أرى من حاجة للكلام الآن على مافيها من المصنوعات والتحف والنقوش فى الرخام والمعادن والاحجار أو البيع الكثيرة المشحونة بالزخارف والطرائف أو زجاج الشبابيك أومنابر الوعظ أومفاتيح العقود التى تربط الاقواس والحنايا ولكنى أقول ان الضياء فيها أكثر منه فى أمثالها كما أن هواءها أجود وأخف على الروح وقد دفن بها كثير من مشاهير الفرنساوية مثل كولبير وزير لويز الرابع عشر والقصصى لافونتين الطائر الصيت المخلد الذكر وغيرهما من كبراء رجال السيف والقلم والحل والعقد والادب والحسب

كنيسة سنت جرمان لوكسروا - هى فى ميدان اللوفر بنيت فى القرن السادس للميلاد وكان ملوك فرنسا يحضرون القداس فيها ثم توالت عليها الايام واتفق ان النورمانديين اعتقلوا بها فى سنة ٨٨٥ ثم جعلوا عاليها سافلها فأقام القوم بناءها فى أوائل القرن الحادى عشر ثم شرعوا فى تجديد معالمها وتغيير أوضاعها ولم يتم

تشييدها في هذه المرة الثالثة الا بعد مضى ثلاثة قرون من الزمان وانما ذكرت هذه الكنيسة لشهرتها في التاريخ اذ انه في ليلة ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ (وهو اليوم المشهور بواقعة سنت بارتلمي التي قتل فيها الكاثوليكيون البروتستانتيين قتلا ذريعا) اتفق المتحالفون المتمالئون على ان يبتدؤا في العمل حينما يدق ناقوس هذه الكنيسة للايذان بقداس الصباح وفي يوم ١٣ فبراير سنة ١٨٣١ أقيم فيها احتفال جنائزي عن نفس دوك دوبري ولكن احزاب الثورة التي حصلت في يوليو أوّلوا هذا الاحتفال تأويلا فاسدا واتخذوا ذلك ذريعة للتشنيع على الكنيسة فباغتها العوام والطغام ونهبوا كل مافيها من النفائس والاعلاق ثم أقفلت الكنيسة وجعلت مقرا لدار أمانة المدينة مدة سبع سنين فانها في ١٣ مايو سنة ١٨٣٧ أعيدت الى وظيفتها الاولى

أما داخلها وبيعها فمثل الكنائس الاخرى ولكن احدى هذه البيع تمتاز بكثرة الزخرفة على الطراز القوطي وفيها بيعة أخرى تحاكي برسومها وزجاجها البيعة المقدسة التي ذكرناها

كنيسة سان سولپيس - هي عبارة عن عمارة بالغة في الجمال متناهية في الاتساع كان وضع الحجر الاول فيها بحضور

Digitized by Google

الملكة انه دوتريش Anne d'Autriche فى سنة ١٦٤٦ وواجهتها عبارة عن سوارى قائمة على بعضها بشكل يروق الانظار فيما بين البرجين الشامخين وفى دائرها من الداخل بواكى واسعة تعلوها أساطين متقنة وبيع متعددة تزيد فى بهجتها وفوقها قبة مزخرفة بصور ونقوش من صنع بعض الماهرين فى هذه الفنون وفى وسط صحنها مسلة من المرمر يمر عليها خط من النحاس للدلالة على الاتجاه الشمالى وفيها منبر للوعظ فى غاية مايكون من الحسن أمر بصنعه المارشال ريشليو وفيها عدا ذلك أشياء كثيرة لاتستحق الذكر الآن سوى الارغن فانه من أكمل وأجل مايوجد من هذا القبيل والقوقعتان العظيمتان اللتان يوضع فيهما الماء المقدس وهما هدية من جمهورية البندقيــة الى فرانسوا الاول وسبيل فاخر محاط بتماثيل بوسوييه وفنلون وماسيليون وفليشيه وهم من أهم وعاظ الكنيسة وادباء الفرنساوية فى عصر لويز الرابع عشر

البانتيون - مجرد ذكر هذا الاسم يشعر بالعظمة والجلال و يبعث فى النفس هيبة ووقارا وفى الفؤاد اجلالا واكبارا كيف لاوهو مستودع لبقايا الذين خدموا العلوم والفنون وسعوا فى تعزيز وطنهم وترقية بلادهم حتى جعلوا لهاتين الامم مقاما محمودا وفضلا مشهودا ولا يدخله انسان الا وتداخله السكينة والتؤدة فيسير

Digitized by Google

فيه على أطراف الاقدام ملازما الصمت التام بل تكاد تخرج من فيه ألفاظ التحية والسلام على عظام هؤلاء العظام (والپانتيون كلمة يونانية من پاس أى جميع وثيوس أى اله ومعناها المعبد المخصص لجميع الآلهة مثل الكعبة فى أيام الجاهلية وكثيرا ماتستعمل للدلالة على التعظيم والاجلال اللذين يقوم بهما الخلق فى حق المشاهير وأهل الفضل فيقولون ان فلانا له مقام معين فى پانتيون التاريخ وهكذا)

بنى هذا المكان فى سنة ١٧٦٤ وجعل كنيسة باسم القديسة سنت جنڤياف (بجيم وفاء بين فارسيتين) راعية باريس وحاميتها ثم جاءت الحكومة الاتفاقية فى سنة ١٧٩١ فغيرت ماوضع له ومنعت العبادة منه وأطلقت عليه اسم الپانتيون وكتبت على واجهته هذه العبارة الوجيزة فى الكلمات البليغة فى المعانى والدلالات

(لعظماء الرجال شكر الاوطان)

(Auxgrands hommes,lapatrie reconnaissante.)

فلما آل الامر والسلطان لعائلة بوربون ورجعت الحكومة الملوكية أعيد الپانتيون الى أصله حتى كانت الثورة فى سنة ١٨٣٠ فسمى الپانتيون مرة ثانية واستمر كذلك مدة ٣١ سنة الى أن جاء الامبراطور نابليون الثالث فاصدر تقليدا ملوكيا يقضى باعادته للديانة باسم سنت

جنڤياف ولكن الحكومة الجمهورية الحالية أصدرت أمرا عاليا في يوم ٢٣ مايو سنة ١٨٨٥ عقيب وفاة ڤيكتور هوجو مباشرة باعادة اسم الپانتيون للمرة الثالثة وبعد صدور هذا الامر بأيام قليلة احتفل الفرنساويون قاطبة بنقل جثة هذا الشاعر العظيم الى الپانتيون ودفنوها بجانب مقبرة چان چاك روسو وفولتير وميرابو وكان هذا الاحتفال بالغا في العظمة بحيث لم يسبق له مثال وقد اشتركت فيه الدولة بصفة رسمية والامة باجمعها ممن في فرنسا وفي الخارج واعلم ان واجهة هذا الهيكل قائمة على اثنتين وعشرين اسطوانة وفوقها نقوش بارزة تمثل الوطن واقفا بين الحرية والتاريخ وهو يوزع أكاليل المجد وشارات الفخار على عظماء الرجال مثل بونابرت من جهة اليمين ومن جهة اليسار روسو وفولتير وميرابو وداڤيد وغيرهم من رجال فرنسا المعدودين

وطول هذه العمارة الفخيمة ١١٣ مترا وعرضها ٨٥ مترا وفوقها قبة (قطرها ٨٣ مترا)

أما داخله ففيه كثير من التماثيل والصور الدينية والتاريخية التي لها علاقة بالمدينة ولا حاجة لتفصيلها الآن أما القبة فهي عبارة عن ثلاثة قباب فوق بعضها وفيها كلها نقوش لا يستحق

Digitized by Google

الذكر منها الا مايستجلب الانظار فى القبة الثانية من الرسوم التى تصور الموت والوطن والعدل والمجد وعلى العمدان التى تستند عليها القبة يرى الانسان ألواحا مزدانة باسماء أبناء الوطن الذين ماتوا فى سبيل الدفاع عن القوانين والحرية فى ٢٧ و٢٨ و٢٩ يوليو سنة ١٨٣١ وسأتكلم عليهم بمناسبة العمود الذى أقيم لاحياء ذكرهم ومما ينبغى تنبيه الشرقى اليه من الرسوم الكثيرة المزدانة بها جدران هذا الهيكل الصورة التى تمثل الامبراطور شارلمان وهو يعيد العلوم والآداب بعد اندراسها ويفتح المدارس ويؤسس المكاتب ويستقبل وفود الخليفة هارون الرشيد ومعهم من قبل أمير المؤمنين مفاتيح القبر المقدس هدية منه لهذا الملك العظيم الشأن وهناك طنفسان من ستائر الجبلين قيمتهما ١٠٠,٠٠٠ فرنك (أربعة آلاف جنيه انكليزى تقريبا).

ومن صعد الى أعلى قمة القبة رأى أبهج المناظر وأحسن المرائى اذ يكون مشرفا على باريس وطرقاتها وقصورها وحركتها

أما الدور الذى تحت الارض فهو عبارة عن جملة مغائر منقسمة الى أروقة منتظمة يتردد فيها الصدى بكيفية تقرب مما رأيته بل سمعته فى رومة وبيشة وكنيسة القديس بولس بلوندرة واللوفر ومحفظ الفنون والصنائع بباريس وغير ذلك وفيه

Digitized by Google

قبور كثير من عظماء فرنسا الذين يتفاخر بهم ابناؤها اذا جمعتهم المحافل .

وقد كان رجوعى الى باريس عقيب وفاة رنان ببضعة أيام وكانت الجرائد ورجال السياسة مشتغلين بمسئلة نقله الى البانتيون وكثر حديث القوم بهذا الشأن الى درجة لا يمكن تصورها وجرت مسئلة رنان الى التحدث بنقل غيره من مشاهيرهم أيضا فقدم وزير المعارف مشروع قانون لمجلس النواب لكى يصادق عليه حتى يكون نقل بقايا رنان بمقتضاه وقد قال الوزير فى تقريره ما معناه (ان حكومة الجمهورية تقترح على المجلس اشراك ميشليه وكينيه مع رنان فى هذا الاجلال والتعظيم فانهم وان اختلفت ملكاتهم وتباينت أفكارهم ومصنفاتهم فلا تزال بينهم رابطة لا يمحوها مرور الزمان اذ كانوا كلهم اساتذة فى مدرسة فرنسا وقد أنشأها مؤسسها لخدمة المعارف الحرة وهم كلهم قد جاهدوا لتأييد الاستقلال فيما يتعلق بابداء الافكار وكلهم احتملوا الشدائد وقاسوا المصاعب فى هذا السبيل)

ولكن الجرائد وبعض اعضاء مجلس النواب شطوا فى الطلب وتغالوا فى نقل عظام بعض المشاهير الى البانتيون وكثير منهم أخذ فى التهزيء والتهكم وفريق آخر فى نحت كلمات مستنفرة

Digitized by Google

من لفظة بانتيون وهكذا مما هو شأن الجرائد فى هـذه البـلاد عند حلول أى حادث يستلفت الانظار فقام جماعة بطلب نقل عظام بعض البارعين فى توقيع الانغام وآخرون منتصرون لنقل بعض المؤرخين أو رجال السياسة أو المعارف أو النظم أو الادب أو التصوير أو الطب أو نشر الكتب أو الكيمياء أو الاقتصاد أو اللغات أو أعضاء مجلس النواب أو غـير ذلك وقام بعض النواب يطلب نقل بقايا تيارس المشهور فردت عليه أخت زوجته بكتاب أرسلته الى كافة الجرائد ترجوه فيه العدول عن هذا الطلب لان زوج شـقيقتها كان على الدوام يعرب عن رغبتـه فى أن تدفن عظامه بجانب أهـله وقالت له فى ختامه (انى أسألك ان تتكرم بالكف عن اقـتراحك وأن تترك الموسـيو تيارس بعيدا عن اضطرابات السياسة فى مكان الراحة والسلام الذى اختـاره أهله له) وبمثل ذلك أجاب بعض ورثة الشاعر المشهور لامرتين والمؤرخ ميشليه برفض نقلهما الى البانتيون وغيرهما وغيرهما ورأيت كثيرا من الجرائد المعتـبرة والثانوية اتخذت هـذه الحوادث فرصـة لاستعمال الفاظ الطيش والخفة فيقولون

❊ عقود البانتيون الباردة ـ خباياه المظلمة ـ زواياه المحزنة ـ هيكل الملل ـ مدفن عظماء الرجال الذين يؤدى لهم الوطن

ماعليه من دين الشكران بشح وتقتير — ان هذه العمارة التى اجترمتها يدافلان (كان انشاءهذا البانتيون جريمة لاتغتفر) اراها لاتحتوى على شئ من الاجلال الذى يتصور القوم اتحاف عظام العظماء به بعد وفاتهم — ان دانت الشاعر الطليانى الذى كتب على الجحيم لواطلع على هذه الاروقة الصاقعة لجملها فى سقر وبئس المستقر» وأمثال ذلك من عبارات السخرية التى لاأتذكرها

وبمناسبة هذا البانتيون أذكر خلاصة موجزة على العمائر المشاكلة له فى بعض البلاد التى مررت عليها فاننى رأيت فى معظم الكنائس التى تفرجت عليها ان لم أقل كلها قبورا لمشاهير أبناء الوطن ومن أهم مايستوقف أنظار المتسوح فى أوروبا عند قدومه الى ايطاليا البانتيون الرومانى القديم وفيه الآن قبر الطيب الذكر فكتور عمانويل وفى كل سنة يتقاطر الطليانيون الذين تشربت قلوبهم بحب الوطن الى هذا المكان ويزورون هذا القبر بغاية التبجيل والتوقير وبجانب الملك قبر رفائيل الرسام المشهور وغيره من النابغين فى الفنون المستظرفة وفى فلورانسة مكان يسمى سنتا كروتشى (الصليب المقدس) ويسمى بانتيون ايطاليا لانه يحتوى على كثير من تماثيل عظمائها فى كل فن ونوع من التصوير والادب والفلسفة والموسيقى والنحت والنقش والسياسة والدولة

Digitized by Google

والعلم الطبيعي وبعض أعضاء العائلة الملوكية وغيرهم ممن كان يندرس ذكرهم لولم يكن اسمهم منقوشا على الرخام ومعروضا لانظار العامة والخاصة على الدوام ولا أطيل الكلام بذكر مافى المدائن الاخرى وأذكر مافى لوندرة فكل الصيد فى جوف الفرى فان دير ويستمينستر هو أحق هذه العمائر باسم البانتيون أى الاثر الذى يقيمه الوطن الشاكر لابنائه فضلهم العارف لهم حق خدمتهم وذلك لان من يريد أن يقف حقيقة على عظمة الامة الانجليزية ومجدها فى التاريخ ينبغي له أن يذهب الى هذا الدير الذى يحتوى على أكثر من ثلاثمائة أثر أقامها الوطن لعظماء الرجال فى السياسة والعلوم والموسيقى والفلسفة والشعر والسياحة والملاحة والاستكشاف والاستنباط وتشخيص الروايات وأعضاء العائلة الملوكية وكل من عاون على اعزاز انجلتره ورفع منارها باية كيفية من الكيفيات ولاشك ان الرجل من أبناء بريطانيا العظمى حينما يدخل الى هذا المكان ويطوفه ويقرأ مافيه من الاسماء يكبر فى عين نفسه ويرى من الواجب عليه ان يبذل كل جهده ليكون جديرا بالانتساب الى هؤلاء الاجداد ولا يكتفى بان يقول كان أبى أوصنع قومى

جبانات باريس

كانت المدافن فى هذه المدينة بجوار الكنائس فأقصتها الدولة الى ما وراء المساكن حفظا للصحة وتوسيعا لنطاق البلد ويبلغ عددها الآن ٥٩ جبانة منها ١٣ داخلة فى حومة باريس والباقى خارجها وأجدرها بزيارة الغريب ثلاثة فقط وأهمها وأكبرها مقبرة الأب لاشيز ولذلك توجهت اليها ثلاث مرات فى ثلاثة أيام لانتظامها واحتوائها على كثير من عظماء الرجال

هذه المقبرة كائنة على رابية ذات انحدار خفيف ويبلغ مسطحها ١٣ هيكتارا وكانت ملكا لرجل من اليسوعيين اسمه الاب لاشيز (كان أمين سر الاعتراف للملك لويز الرابع عشر)

ولهذه المقبرة ذكر متواتر فى روايات الفرنساوية وأقاصيصهم مما يتعلق بالغرام ولكن أشهر ما وقع فيها انما هو المقاتلة العنيفة بل المذبحة الشنيعة التى حصلت فى ثورة الكومون

كان انشاء هذه الجبانة وهندزتها فى سنة ١٨٠٤ ثم أخذت بعد ذلك فى الاتساع والامتداد من جهة المشرق حتى أصبحت الآن عبارة عن ٤٣ هيكتارا أو ٩٤٠٠٠ متر وعدد سكانها وحدها ٣ مليون أى أكثر من الاحياء فى باريس كلها وفيها

Digitized by Google

١٥٠ طريقا ويمر تحتها نَفَق لسكة حديد الحزام التى تمر حول المدينة فيكون الاحياء تحت الاموات وفوقهم وليس فيها شيء مما يقبض النفوس ويزعج الناظرين بل يعتبرها كل من زارها كأنها من أحد المنتزهات البديعة وخصوصا حينما يتجوّل فيها الانسان تاركا نفسه مع تيار الافكار متأملا فى هذه الحياة الدنيا ثم يقف من غير قصد فيقرأ الاسماء التى على القبور ويرى بينها بالصدفة اسم رجل عظيم أفاد الوطن أو الانسانيــة بكتاباته أو أعماله فانى كنت فى هذه الحالة يحصل لى انشراح عظيم كأنى أكتشف أمرا جليلا أو وقفت على سر نافع وتعرفت بالرجل ذاتيا خصوصا وان قبور العظماء ليست كلها على حافة الطرقات أو فى المواضع التى تستوقف الانظار فترى العالم بجانب الزارع وبعدهما صانع يخلفه شاعر يتلوه مؤرخ فتاجر فرجل حيثما اتفق فقائد كبير أو أمير شهير أو فيلسوف نابغ أو محسن فاضل الى غير ذلك من جميع أصناف الناس وطبقاتهم وأذكر الآن بعض الذين وقفت أمام قبورهم وتذكرت أعمالهم وما استفدته من تأليفهم أو الذين سمعت بشهرتهم مكتفيا بذكر الاسماء لعدم الاطالة واعدا نفسى بالاشارة فى الرحلة الى أعمالهم مثال ذلك فيكوندى وروسينى والفريدوميسيه ولونوار وڤافين ومادام بلان وإرّازو وڤولپينى وڤيرون وأورنانو ومادام هوارد

ومادام مارى روبر ومورل ووالسكى ولازارجو ورنياتللى والاثر المقام للعساكر الفرنساوية الذين قتلوا فى الدفاع عن وطنهم فى حرب سنة ١٨٧٠ المشهورة والأثر المقام للحرس الأهلى الذين قتلوا فى الحرب المذكورة وقبر بيشليه وآدم والكونتس داجولت ودوسيز وسولينيه وكاموس وبرجيه والاثر المقام لتيارس المشهور ومنه يرى الناظر أمامه قبة البانتيون ثم قبر بلانكى وبيار ومد موازل الوتر ومدموازل دوجنليس ولابلاس وغرسية ومولير بجانب لافونتين وجى لوساك ومقبرة لهوجو سان سيمون ووبنجامين كونستان وماكدونلد والجنرال فواوبيرانجيه وبومارشيه وسكريب وفولنى وجرامون ولوبل والمقبرة التى أعدتها سارة برنار لنفسها وهى تتعهدها فى أوقات كثيرة وقبر أبادى والمقبرة المخصصة للمسلمين الذين يتوفاهم الله فى باريس وقبر مدموازل دوشسنوا وتاليران ولافيت ومقبرة لدولسس وأندريو ورسپاى وموبخ وكازمير پيرپيه وفونتان وديدو ومقبرة الاسرائيليين وفيها ميشل ليفى (لاوى) وروتشلد وما دام فولد وراشل (راحيل) المشخصة المشهورة وغيرهم ثم قبور پاجيس وجيريكو وبلليني ودنون ودلامبر ورأيت أثرا يشبه ضريحا مكتوب عليه ماهذه ترجمة (مقبرة الاب الابدى) وأقول انهم يعنون بالاب الابدى المولى الواحد الاحد الذى لم يلد ولم يولد تعالى الله عما يصفون

Digitized by Google

وانما ذكرت هـذه العبارة من باب الغرابة والعلم بالشئ وناقل الكفر ليس بكافر وبعدان استغفرت الله تنزهت صفاته وتقدست اسماؤه مررت كعادتى فرأيت قبر شينيية وكوفييه ومنتون ولدرورولين وكوسين ومالهرب وأوبير وأراجو ومدموازل لونورمان الكاهنة العرافة المعروفة التى انبأت نابليون بجميع وقائعه فى المستقبل بواسطة ورق الكتشينة بغاية الضبط وتمام التدقيق وكان كما قالت من غير تحريف أو تبديل وقد اتفق انها حوكمت جملة مرار وكانت على الدوام تقول للقضاة انكم انما تتعبون أنفسكم سدا وتضيعون أوقاتكم عبثا فانى لاأموت الا بعد سبعين سنة (أوعدد آخرلا اتذكره الآن) وبالفعل كانت وفاتها فى الوقت الذى أخبرت به وقبور پول بودرى ولويس داڤيد وكسافييه بيشا ولاڤوازييه وبرناردان دوسان پيير وشيروبينى المارشال ڤيكتور والاثر المقام للذين ذهبوا فريسة الحوادث فى شهر يونيو سنة ١٨٣٢ وقبرنيلاتون وشامپوليون وكللرمان وجوفوا وسان سير والجزال جوبير ودوپويترن ولاڤاليت وسوشيه وداڤيد دانجيه وبود والمارشال لوفڤر وماسينا وبيسكو والمارشال مورتييه والمارشال نى والمارشال لوبو وراسين وجوفروا سنت هيلير ورميدوف وپراديه ودزوجييه واللان كاردك والمشخصة

دجازت وبالزاك وأوجين دولا كروا وقبر العلامتين كروسى سبينالى وسيفل وقدماتا شهيدين فى سبيل المعارف حينما صعدا فى الجو بالقبة الطيارة الى طبقة عالية جدا وحققا أمورا كثيرة مفيدة ثم سقطت بهما فلم تقم لهما بعدها قائمة وقبر الكونتس داجو صاحبة التآليف المشهورة التى أخفت فيها اسمها حيث اتسمت بدانييل سترن وغيرهم من المشاهير الذين يطول ذكرهم فى هذه الورقات وهنا انبه القارئ الى أن بعض الاكابر الذين ذكرت اسماءهم يوجدون مدفونين فى جهات أخرى من باريس أو فى مدائن غيرها ولكن الحكومة جعلت لهم قبورا فى هذه الجبانة احياء لذكرهم وتنشيطا للاقتداء بهم وليس فى هذا شئ من الغرابة بالنسبة لعناية هذه البلاد بعظمائها بل الاغرب والاعجب انى رأيت ضريحا فخيما عليه تمثال رجل وامرأة بجانب بعضهما وفوقهما قبة لطيفة على عمد رشيقة تحف بهما أشجار صغيرة وأزهار نضيرة وقرأت عليهما هذين الاسمين (هيلوييس وأبيلار) وصار اسمهما علما على المحبة الزوجية الصادقة الحقيقية وقد أحضر هذان التمثالان الى باريس وعنيت الدولة بوضعهما فى هذه المقبرة فى مكان لطيف وقد علمت انه متى اصطحب فتى بفتاة وتبادلا عهود المودة الحقة والالفة الصادقة وشرعا فى عقد الزواج يأتيان

Digitized by Google

فى كثير من الاحيان فى أوقات خلو المقبرة من الناس ويضعان الازهار والاكاليل على هـذا الضريح تيمنا بثبات الوداد وتفاؤلا بتبادل الصـداقة من الطرفين وقـد رأيت أيضا عمودا أقامتـه الحكومة كأنه قبر لكل من يموت غريقا فيعتبره أهل الميت قبراله ولذلك تتراكم عليـه الاكاليل فى بعض المواسم بما يفوق العـد والوصف

وقد وافق وقوع مولد جميع القديسين أيام مقامى بباريس فاغتنمت هذه الفرصـة وتوجهت لهذه المقبرة لكى أقابل ماأراه فيها بما هو جار عندنا وهذا اليوم يسمونه عيد الاموات وقد نزل المطر رذاذا طول النهار ولكنه لم يمنع أهل باريس من التوجه الى مقابر أهليهم وذويهم ووضع الاكاليل والازهار عليها كما هى عادة الافرنج ولاأذكر شيأ عن تزاحم الجماهير فى هذه المقبرة التى زرتها حينئذ وأكتفى بذكر العدد وقدره ٤٨,٣١٠ ومع ذلك فقد قال لى الثقاة ان الازدحام كان أقل مما فى الاعوام الماضية وقد بلغ عدد الذين توجهوا الى جميع الجبانات (بما فيها الاب لاشيز) ٢٦٧,١٩١ ولوفرضنا ان نصف هذا العدد كان حاملا لازهار ثمنها فى المتوسط فرنك واحد لتحصل عنـدنا ٥٣,٤٢٤ جنيها انكليزيا (منها نحو ٢,٠٠٠ لعمود الغرقى الذى ذكرته) وهو أقل مايمكن تقديره لان

الفقير منهم يقتر على نفسه ويقتصد من مأكله ومشربه عند اقتراب هذا الموسم لكى يتمكن من شراء اكليل يهديه الى فقيده العزيز المحبوب فان عادة اهداء الاكاليل متمكنة عندهم الى درجة لا يتصورها العقل بل انه كثيرا ما يتفق ان الرجل أو المرأة يموت جوعا واذا طلب من أصحابه وأصدقائه شيأ يستعين به على سد رمقه أجابوه بالرفض فاذا مات عصارى النهار أو فى اليوم الثانى بادرت الجماعة التى ينتمى اليها (مصورين حدادين نجارين طحانين أو أعلى أو أدنى من ذلك) بفتح قائمة قد تبلغ قيمتها مئات من الفرنكات فيشترون بها رخاما يضعونه على قبره و إكليلا يحتفلون بايداعه عقيب دفنه

وأذكر بمناسبة الاحتفال بالاموات ان الفرنساوية أشد الامم الذين رأيتهم اعتبارا للميت حتى انه متى مر سرير الجنازة يبادر الرفيع قبل الوضيع برفع قبعته اجلالا واعظاما مهما كانت درجة الذى فارق الحياة الدنيا

وقد قرأت فى الجرائد بمناسبة عيد الاموات ان جميع الفرنساوية الذين فى برلين توجهوا بصحبة أعضاء جمعية محبة الانسانية وموظفى سفارة الحكومة الجمهورية الى قبر العساكر الفرنساوية الذين قتلوا فى برلين اثناء حرب سنة ١٨٧٠ وان وفدا حضر من فرنسا الى

Digitized by Google

هذه العاصمة لهذه الغاية وكذلك جرت جماعة الفرنساوية المتوطنين في بروسل عاصمة البلجيكا على عادتهم فتوجهوا في احتفال عظيم الى الاثر المقام لاحياء ذكر الجنود الذين ماتوا في خدمة وطنهم وكان السابق في هذه المظاهرة الملية القومية اعضاء غرفة التجارة فانهم وضعوا على الاثر اكليلا جميلا عليه هذه العبارة (من اعضاء غرفة التجارة الفرنساوية ببروسل الى مواطنيهم الذين ماتوا في سبيل الوطن - أول نوفمبر سنة ١٨٩٢) ثم جاءت جمعية التعاون الفرنساوية ووضعت اكليلا في غاية الاتقان مصنوعا من الحديد المطروق وعليه هذه الكلمات (الى الجنود الفرنساوية الذين ماتوا لاجل الوطن في سنة ١٨٧٩ وسنة ١٨٧١ - من جمعية التعاون الفرنساوية ببروسل سنة ١٨٩٢) ثم وقف الرئيس على سطح الاثر والقى خطابا لابأس من تعريبه في هذا المقام وهو

أقيمت الآثار وشيدت الانصاب في كل مكان سقطت فيه العساكر اثناء دفاعها عن الوطن في سنتي ٧٠ و ٧١ فسواء في ذلك المدائن الكبيرة والكفور الحقيرة

وقد اختار النزلاء الفرنساويون منذ بضعة سنين هذا اليوم أول نوفمبر لتمجيد سيرة أولئك الشجعان الذين أثخنتهم الجراح وفقدوا بعض الاطراف والاعضاء فلاذوا بهذه الارض أرض بلجيكا لتقضية مابقي من أيامهم فيها

ومن الامور المستعذبة الموجبة للتسلية الباعثة على العزاء أنهم مع بعدهم عن مسقط رأسهم وأرض اجدادهم قد صادفوا هنا عناية أخوية جديرة بالمدح والثناء - ان بلجيكا كرمت مثواهم وعاملتهم بالحسنى - فهذه العبارة الجميلة المنقوشة بحروف من الذهب على هذا القبر العام الذى ضم بقاياهم يكون فيها ذكرى للاجيال الحاضرة والآتية بما اصطنعته بلجيكا من العمل الممدوح المحمود واليد المشكورة المبرورة

ولنا الهناء نحن اعضاء جمعية التعاون الفرنساوية على مجيئنا الى هذا المكان ننشر فيه على قبور هؤلاء العزاز تلك الراية المثلثة التى كانوا يسيرون تحت ظلها فى ميادين القتال - فلتحى بلجيكا ولتحى فرنسا اه

وقد أصغى جميع الحاضرين الى هذا المقال بغاية الرعاية والاجلال وعند ما أتم الرئيس كلامه أبدوا كلهم علائم الاقرار والاستحسان

بعض الاعمدة والبوابات
والفساقى وبرج ايفل

ان الاعمدة الاثرية فى باريس هى ثلاثة أولها وأقلها أهمية عمود سواسون وهو الاثر الوحيد الذى بقى من القصر المعروف بهذا

الاسم وارتفاعه ٣٠ مترا ويقال انه كان مرصدا لمنجم الملكة كاترينة دومدسيس كان يراقب فيه حركات الإفلاك واقتران الكواكب ليتمكن من اخبارها بالكائنات قبل كينونتها وفى داخله سلم يوصل الى قمته وفى أعلاه مزولة شمسية

والثانى هو عمود ڤاندوم فى الميدان الجميل البهيج المعروف بهذا الاسم وهو مسبوك من برونز ١٢٠٠ مدفع اغتنمتها الجيوش الفرنساوية فى الوقائع الحربية وتمت اقامته فى سنة ١٨١٠ وارتفاعه ٤٤ مترا و ٢٠ سنتيمترا وقطره ٤ أمتار وفى منتهاه تمثال نابليون متشحا بملابس امبراطور رومانى وعلى هذا العمود نقوش وكتابات تخلد انتصارات الفرنساوية فى أوائل هذا القرن

والعمود الثالث هو المعروف بعمود يوليو وهو فى وسط ميدان الباستيل أقيم تخليدا لذكر الحرية فى نفس المكان الذى كانت فيه قلعة الباستيل معدن الجور والحيف والاستبداد وعليه بحروف من الذهب اسماء الذين استماتوا فى اعلاء كلمة الحرية ونشر رايتها على ديار فرنسا فى سنة ١٧٨٩ وفى سنة ١٨٣٠ وفى أسفله مقابر أولئك الابطال محطا للاعجاب والاجلال ومن صعد الى قمة هذا العمود الذى يبلغ ارتفاعه ٤٧ مترا رأى باريس كلها تحت أقدامه وأمتع ناظريه بمرأى جميل معجب وفوق هذا

Digitized by Google

العمود تمثال من البرونز المذهب يمثل ملاك الحرية وفى يده مصباح يرسل النور منه الى جميع أطراف العالم

وبمناسبة العمدان نذكر المسلة المصرية المعروفة بمسلة كيلوبطرة التى هى أجمل حلية فى أجمل ميدان فى أجمل مدينة قد أهداها المخلد الذكر محيي مصر المغفور له أفندينا الكبير الحاج محمد على باشا الى فرنسا فوضعتها فى ميدان الكونكورد الذى تحف به تماثيل كثيرة تمثل مدائن فرنسا التى خدمت الوطن برجالها وأعمالها وهذه المسلة من حجر واحد من الصوان الوردى وعليها كثير من النقوش البربائية وطولها ٢٢ مترا و ٨٣ سنتيمترا ووزنها ٢٥٠٠٠٠ كيلوجرام وفى أسفلها ترى نقوش بالذهب تمثل كيفية اقامتها ورفعها بمقتضى علم الاثقال وكان ذلك فى سنة ١٨٣١ على يد المهندس الماهر الموسيو لبا

أما البوابات والاقواس فهى كثيرة نذكر منها باب القديس دنيس (وهو الذى بعد أن قطعت رأسه فى أيام الاضطهاد رفعه من الارض بين يديه وهو مضرج بالدماء) وهو أثر جميل قد توالت عليه العمارة والترميم وكانت اقامته فى سنة ١٦٧٢ تمجيدا

Digitized by Google

لذكر لويز الرابع عشر وتذكارا لفتوحاته فى بلاد الالمان

وكذلك باب القديس مارتين على مقربة من الباب السابق تذكارا لفتح اقاليم فرانش كونتى وهزيمة الالمان على يد لويز الرابع عشر وفيه نقوش بارزة متقنة

وقوس الكوكب وهو أكبر بوابات الفوز والانتصار الموجودة فى باريس فان مجموع ارتفاعه ٤٥ مترا و ٣٣ سنتيمترا وعرضه ٤٤٫٨٢ مترا وأول من ابتدأ فى تشييده هو نابليون فى سنة ١٨٠٦ لاجل تخليد فتوحات الجيوش الفرنساوية واحياء مآثرها ولكنه لم يتم الا فى عهد الملك لويز فيلب

وقد بلغت نفقاته ٩٫٠٥١٫١١٥ من الفرنكات (قريبا من ٣٦١٣٢١ جنيها)

وهو كله مغشى بنقوش فى الحجر مناسبة لمقتضى الحال وحول أركانه الاربع تماثيل ضخمة تصور هيئة السفر والفوز والمقاومة وعقد الصلح وفى بعض أعاليه رسوم بعضها يصور واقعة أبى قير وأخرى تمثل استيلاء الفرنساوية على الاسكندرية - وقد تقصده ثوار الكومون فى سنة ١٨٧١ فوجهوا قنابلهم نحوه ووالوا اطلاق المدافع عليه ثلاثة أسابيع متوالية كان عدد المقذوفات التى أصابته فى كل يوم بالمتوسط ٩٠ فيكون مجموع ماأصابه

Digitized by Google

من القليل ٠٠٠ر٢ بالتمام ولكن القوم أعادوا ترميمه واصلاحه بعد أن انطفأت نار هذه الثورة الشنيعة

وفي يوم ٣١ مايو سنة ١٨٨٥ عرضت الدولة الفرنساوية تحت هذا القوس التابوت المحتوى على جسد الطبيب الذكر فيكتور هوجو باحتفال جليل استمر ٢٤ ساعة

وقد صعدت الى أعلى هذا القوس فاستغرق ذلك من وقتي ٨ دقائق و رأيت من فوقه منظرا بهيجا جدا اذ انى كنت في ميدان يصب فيه ١٢ دربا سلطانيا محتوية على صفين من الاشجار وخلفها المباني الفخيمة أو البساتين البديعة

وقد سبق لى كلام وجيز على قوس فخار الكاروسل فلا موجب لاعادته في هذا المقام وانما أستعيضه بذكر برج القديس جاك فانه في وسط حديقة أنيقة في مركز ميدان الشاتلية

وهو من أظرف الآثار القديمة الباقية في باريس وفي أسفله جملة عمدان في وسطها تمثال العلامة المحقق باسكال وفي قمته تمثال القديس المذكور - وارتفاع هذا البرج ٥٢ مترا وفيه بعض آلات فلكية خاصة بعلوم الآثار العلوية وفيه غرفة يحضر اليها التلامذة لتعلم الرصد وما يتعلق به وقد تناقل القوم

Digitized by Google

ان العلومة باسكال جدد فيه تجاربه المتعلقة بمعرفة مقادير ضغط الهواء على البارومتر

وأما الفساقى فهى كثيرة فى باريس منها فسقية كوفييه العالم بالتاريخ الطبيعى صاحب الاكتشافات الكثيرة ومخترع علم الكائنات الحفرية وفوق هذه الفسقية تمثال من الحجر للتاريخ الطبيعى ثم فسقية الشاتليه فى مكان سجن كان هنالك قديما وهى فى وسط الميدان المعروف بهذا الاسم الآن وعليها تماثيل للامانة والقوة والقانون والتيقظ ويندفع الماء الى حوضها من أفواه أسفنكسات (أبو الهول) وفوق الفسقية تمثال الانتصار وفى يده أكاليل الفخار ثم فسقية جرينل وفيها تمثال باريس وهى جالسة فى سفينة وتحت قدميها نهرا السين والمارن وحولها تماثيل الفصول الاربعة والسفينتان اللتان هما شعار لها ثم فسقية الابرياء تحيط بها حديقة زهرية وهى من أجل الآثار التى يقصدها الزوار وعليها نقوش تمثل جنيات الماء فى غاية الابداع وقد كانت أولا فى سوق الفواكه ثم نقلوها الى محلها الآن حجرا حجرا ثم فسقية لوفوا وهى بناء أنيق أمام المكتبة الاهلية وتحتوى على تماثيل متقنة تمثل الانهار الاربعة التى فى

فرنسا تحمل الحوض العلوى الذى ينحدر منه الماء فى الفسقية ثم فسقية موليير من الرخام الناصع أقيمت بواسطة اكتتاب أهلى وفى أعلاها تمثال هذا الشاعر المجيد وعلى يمينه ويساره تمثال الكوميدية الجدية والكوميدية الهزلية ومعنى الكوميدية التشخيص المضحك وهذه الفسقية أقيمت أمام البيت الذى مات فيه الرجل وفسقية الرصدخانة وهى عبارة عن حوض فيه ثمانية أفراس بحرية وكلها من البرونز وفى وسطها تمثال أقسام الدنيا الاربعة تعلوه كرة أرضية ثم فسقية القديس جرجس وفيها تمثال الايمان والرجاء والاحسان فى المرمر ثم فسقية سان سولبيس فى وسط الميدان الكائن امام الكنيسة المعروفة بهذا الاسم وحول هذه الفسقية تماثيل بوسوييه وفنلون وماسيلون وفليشييه وهم من أكبر وعاظ الكنيسة وأشهر كتاب الفرنساوية ثم فسقية الانتصار مزدانة بتماثيل الايمان والتيقظ والقانون والقوة وفوق الجميع تمثال الانتصار مموه بماء الذهب - وفى باريس فساق أخرى مثل اللتين يزدان بهما ميدان الكونكورد (الائتلاف) واحداهما رمز للملاحة فى النهر والثانية للملاحة فى البحر ومثل اللتين فى ميدان التياترو الفرنساوى وفسقية مدسيس ونوتردام والقديس ميشل (وقد كانت العمارة جارية فيها أثناء وجودى بباريس)

Digitized by Google

أما برج ايفل فقد طار خبره وعرف أمره وقدره بحيث كان الواجب أن اهمل ذكره ولكنني أتحف القارئ بمعلومات جديدة وأقص عليه شيأ من التأثير الذى حصل لى أثناء ارتقائه فى المصعدة والنزول منه على درج السلالم ولا حاجة للاحاطة بانه أعلى جميع الآثار التى شاهدها الانسان فى جميع الازمان فوق سطح هذه الكرة الارضية وانه يخترق كبد السحاب (من غير مجاز) بارتفاعه البالغ ٣٠٠ متر وطالما كان المطر يتهاطل على أسافله وحواليه من غير أن يصيب الذين قد ارتقوا الى ذروته بحيث انه لو كان فيهم ممدوح لصح لشاعره أنه يقول انه علا حقيقة على السحاب مثل ذلك الذى قيل فيه انه علا فى الحياة وفى الممات وعدوا له ذلك من المعجزات

وفوق قمة هذا البرج قبة عليها فنار يبعث الضياء فيبدد حجب الظلام بما يرسله من مختلف الالوان بحسب ألواح الزجاج ويمتد شعاع النور الى مسافة قاصية وبعرض واسع وأول مارأيته وأنا فوق احدى قناطر السين رأيت مناشيره أشبه شئ باجنحة طاحونة عظيمة يديرها الهواء بسرعة وأما البرج فهو أشبه شئ بشمعدان هائل خصوصا مع وجود النور فى أعلاه وهذا الشمعدان مرتكز على أربع قوائم مسافة الانفراج بين كل قائمة والثانية عند القاعدة

Digitized by Google

١٠٠ متر وكنت أثناء اقامتى بباريس أتربص فى كل صباح فرصة الصعود الى هذا البرج الفريد لأتمتع بما حوله من المناظر الرائقة ولكن توالى احتجاب الشمس فى أغلب الايام كان يحول دون هذا المرام حتى خشيت تعذر الحصول على هذه الامنية لاقتراب ميعاد اقفاله ولكن الله يسر لى يوما طلعت فيه الشمس ببهجتها وأرسلت صافى أشعتها فبادرت اليه مسرعا وأنا لا أصدق نفسى من شدة الفرح وكنت كلما صعدت فى طبقات أرى المدينة تنضم الى بعضها وتتقارب أبعادها وتتصاغر مسافاتها وتتلاقى أطرافها فتبدو بكمال جمالها فرجة للناظرين وبينها نهر السين كقناة طويلة يتصور الانسان أنه يكفيه أقل وثوب للانتقال من أحد شطيها الى الآخر وعليها القناطر العديدة أشبه بخطوط كثيرة مستطيلة كأنها شريط رفيع من البناء أو سلك رقيق من الحديد وكانت برك الماء كدموع من مآقى المشتاق وبعض بنى الانسان أشبه بالازهار أو بتلك العرائس الصغيرة التى يتلاعب بها الصبايا والبعض الآخر كأنهم من قوم يأجوج ومأجوج أو من أولئك الاقزام العائشين فى أواسط افريقية وباريس بازدحامها كقرية النمل أو خلاية النحل وكنت كلما ارتقيت ازدادت أمامى بهجة الرياض الانيقة والقصور الرشيقة المجاورة للبرج مثل قصر

Digitized by Google

الترو كاديرو وحديقة الشان دومارس وفسقيته البديعة وقبة القصر المركزى وفوقها تمثال الشهرة ثم قبة رواق الآلات وقبة الانفاليد والبانتيون ثم تياتر و الاوبرا وقصر الصناعة وعمود فاندوم و برج كنيسة نوتردام وفى اثناء ذلك كنت أسمع اعتراك الرياح فى الصبا والجنوب وتضارب تياراتها فى القبول والدبور فتحدث لها قرقعة كأشد مايكون من تلاطم الامواج فى البحر العجاج و بينما أنا غارق فى هذه الاحوال نبهنى بعض الذين صعدوا الى صفحة يكتب عليها الزائر اسمه أو أى عبارة تخطر بباله فأخذت القلم ورقمت ماأملت به علىّ القريحة لله درك يا ايفل لقد برعت فيما أبدعت ونبغت بما اخترعت فعلوت بعقلك على سائر أبناء عصرك كما ارتفع برجك الى عنان السماء فانقاد جميع الآثار الشماء مفصحا بكل لسان عن فضل الامة الفرنساوية فى ميدان العرفان

ثم نزلت متمهلا متأملا وقد كبر الرجل فى عينى أكثر مما كنت تصورته خصوصا بعد أن علمت ان الموسيو ايفل اذا جلس على كرسيه امام مكتبته يكون ضغطه على الارض أكثر من ضغط هذا البرج الهائل وذلك أن قوة الضغط التى تحدث على

الارض اذا جلس على الكرسى (هو أو أى انسان آخر) تكون باعتبار ثلاثة أو أربعة كيلوجرامات بالاقل عن كل سنتيمتر مربع بخلاف البرج فان تأثيره على الارض هو باعتبار كيلوجرامين اثنين فقط مع ان ثقل البوية التى على جدرانه قد قدرها العلماء بنحو ٣٠ طونولاطة وقرروا أن مجموع وزنه (من غير البوية) يعادل ٧ مليون كيلوجرام وقالوا ان الهواء الموجود فى قصر الآلات يزن ربع هذا المقدار مع لطافته فيا للعجب العجاب من غرائب الاحصاء والحساب

ومما يجمل بنا ذكره فى هذا المقام أنهم استخدموا هذا البرج لامور كثيرة مثل الاكل والشرب والتصوير والبيع ونحو ذلك وانهم وضعوا فيه منذ سنة ١٨٩١ مانومترا زئبقيا لقياس تمدد البخار هو أكبر وأجسم ماظهر فى الوجود الى هذا الزمان وقد أعدوا فى الصيف الماضى تياترو فى احدى طبقات هذا البرج وكانوا يشخصون فيه رواية عنوانها (باريس فى الهواء) وقد جرت عادة الافرنج أنهم يرفعون قبعاتهم أثناء التشخيص ولكنه اتفق فى بعض المرات وجود رجل لم يتبع هذه السنة بل أبقى عُمارته على رأسه فتذمر الحاضرون واعتبروا ذلك اهانة منه وخروجا عن حد الادب ثم

Digitized by Google

طالبوه برفع القبعة فأبى فجاء اليه مدير التياترو وأظهر له وجوب الامتثال فما ازداد الرجل الا عنادا واصرارا بحيث لم يكن للمدير من واسطة سوى استدعاء رجال الشرطة واخراج الرجل بالقوة ولكنه تدبر وتمهل ثم ذهب بجانب رئيس الموسيقى فهمس فى اذنه بكلمة واحدة أجابه عليها صاحبه بعلامات الامتثال ثم رفع عصاه فلحنت جوقة الموسيقى السلام الروسى فكان الرجل أول من وقف ورفع قبعته اجلالا وتعظيما ثم قال (ان هذا خبث منك وكيد عظيم . انى أخشى تيار الهواء فى مثل هذا المكان وأفضل الانصراف على هذا الاضطرار) ثم خرج وشكر الناس حذق المدير وفطانته فى صرف هذا الحادث الذى أوجب لغطا كثيرا واضطرابا شديدا وذلك لان التقرب فى هذه الايام شديد وثيق فيما بين فرنسا والروسية ومتى سمع أحد الفرنساويين النشيد الروسى الوطنى قابله بالاجلال فى الحال وكذلك الروس يكشفون الرؤس عندما يسمعون النشيد الفرنساوى حتى ان رجلا من محررى الجرائد فى بطرسبرج واسمه بروتوف حضر الى باريس أثناء اقامتى بها ساعيا على أقدامه ليس الا فى كل هذه المسافة التى يبلغ طولها ٩٫٥٠٠ كيلومتر فقط وكان يمشى فى اليوم الواحد ٣٠ أو ٤٠ كيلومترا وقد استغرقت هذه النزهة

Digitized by Google

منه نحو ٨ شهور ونصف ولما حل بباريس كان آلاف كثيرة من الناس فى انتظاره فحياهم وحيوه ورحبوا به كثيرا وأطنبت الجرائد فى مدحه

وقد ظهرت فى هذه الايام الاخيرة جريدة اسمها (برج ايفل)

بستان النباتات

كان تأسيس هذا البستان فى سنة ١٦٢٦ وافتتاحه للجمهور فى عام ١٦٥٠ وهو ينقسم الى أربعة أقسام أولها البستان وثانيها مربى الحيوانات وثالثها متحف التاريخ الطبيعى ورابعها العنابر الزجاجية المعدة لتربية نباتات البلاد الحارة ومما يليق ذكره أن الانسان اذا دخل من أكبر أبواب هذا البستان يرى امامه ممشيين من الصفصاف غرسهما العلامة بوفون المشهور وفى منتهى البستان توجد الدار التى مات فيها الرجل المذكور فى يوم ١٦ ابريل سنة ١٧٨٨ وفى هذا البستان مدرسة لشجيرات الزخرفة ومدرستان لاشجار الفاكهة احداهما مخصصة للفاكهة ذات النواة وأما الثانية فلاشجار الفاكهة ذات البزر وفيها ١٨٠٠ نوع من أشجار الكمثرى وهنالك مجموعة أشجار مثمرة تحت الدرس

Digitized by Google

والمطالعة ومدرسة لعلم النبات تحتوى على أكثر من ١٣٫٠٠٠ نوع من النبات

وأما مربى الحيوانات ففيه ٢٢ مقصورة عليها أبواب من قضبان الحديد تسرح فيها الحيوانات الضارية والوحوش الكاسرة والطيور الجارحة كالأسد والفهد والببر والنمر والدب والنسر والعقاب والرخ والكندور وغير ذلك وفيها أصناف لاتحصى من الحيوانات المعروفة فى بلادنا والمجهولة لنا مثل الايايل والوعول وتيوس الجبل والأثوار والابقار والاغنام والماعز والجاموس ذى السنام والكنجورو والذئاب والضباع والحلاليف وبنات آوى والعقبان والنسور وغير ذلك مما لا تمكن الاحاطة به مع تعدد أصناف النوع الواحد وهنالك قطعة مستديرة مغشاة باسلاك الحديد تسمى قصر القردة فيه منها أجناس كثيرة بين كبيرة وصغيرة وامام هذا القصر مستدير كبير ترى فيه الافيال وأفراس البحر والكركدن وأصناف الهجين وهنالك تمر قناة من الماء تسبح فيها خلائق كثيرة من الطيور المائية وبالقرب منها ترى حيوانات بحرية تسمى آساد الماء وبجانبها أبراج لانواع كثيرة من الطيور ومرابى لاطيار الصيد المرغوبة مثل الصقور والبواشق والشواهين وغير ذلك وهنالك أصناف من الايايل الخنزيرية التى توجد فى بلاد

Digitized by Google

الهند وبالقرب من هذا المكان مربى أطيار الدج والقطا والحجل والفواخت والورق والورشان والشفانين والطياهيج وغيرها والطيور المغردة وأنواع الببغاء والطواويس - وقد رأيت فى كشك الزواحف أصنافا كثيرة من الثعابين السامة وغير السامة وعدد عظيم من السلاحف والضفادع والعلاجيم وأصناف التمساح التى اشتهر بها نيلنا السعيد وحرم من رؤيتها المصريون فلابد لهم من المجىء الى باريس لرؤية هذا الحيوان المشهور حيا يرزق لا معلقا على بعض البيوت لفائدة لم أقف عليها مع كثرة السؤال عنها وفى هذا الكشك أيضا أصناف كثيرة من أسماك المياه العذبة

ولابد لنا من ذكر كلمتين أيضا على رواق تطبيق التشريح وعلم الانسان (الانترو بولوجيا) فانه يحتوى على ٢٤٠٠٠ تجهيز وأكثر من ١٣٠٠٠ نموذج يختص أكثرها بدرس السلائل البشرية القديمة والحالية و ٣٫٠٠٠ جمجمة و ٢٠٠ هيكل عظمى وجملة قطع تتعلق بالانسان الحفرى (الذى وجد فى الكائنات الحفرية) وفى الدور الاول من هذا الرواق مجموعة وافرة من هياكل جميع الحيوانات وغرف كثيرة مخصصة لدرس التشريح الانسانى وفيها صور جميع الاجناس بحيث يتمكن من مقابلتها ببعضها وهنالك مجموعة كاملة من رؤس مصنوعة

Digitized by Google

من الجبس يمكن لاهل علم الفراسة أن يطابقوا معارفهم عليها أو يزيدوا فى معلوماتهم بواسطتها وخصوصا ان القوم اعتنوا بتمثيل رؤس بعض المشاهير فى ارتكاب الجرائم واقتراف الجنايات وامام باب هذا الرواق حوت هائل طوله أربعة عشر مترا (من الصنف المعروف بالهائشة) وهيكل عظمى وجماجم من أفراد هذا النوع وسمعت أنه يوجد متحف لما قبل الطوفان غير أنى لم يتيسر لى رؤيته مع كونى توجهت الى هذا البستان ثلاث مرات فى ثلاثة أيام ولكن اتساعه وكثرة مافيه من الغرائب حال بينى وبين رؤيته بجميع أجزائه وتفاصيله وقد رأيت هنالك شيوخ البحر تسبح فى برك من الماء ولها صيحة مزعجة ورأيت أشجارا لاتفارقها الخضرة على الدوام ولا حاجة لذكر العناية الزائدة التى تلاقيها نباتات البلاد الحارة فى عنابر هذا البستان فانها فوق الوصف ولكن القوم لم يتمكنوا الى الآن من تربية النخل المثمر وان كانوا توصلوا الى حفظ كثير من أصناف النخيل الخاصة ببلاد الهند وأواسط افريقيا وأما متحف التاريخ الطبيعى فيحتوى على شئ جسيم وعدد عظيم من الحيوانات الثديية الكبيرة وهياكل الحيتان (الهوائش) والآساد والانمار والدباب والقراد والزواحف والطيور والاسماك والحيوانات الرخوة والحشرات كل ذلك

بهندام ونظام لايمكنى أن أصوّره للقارئ باى حال فان وصف مافى هذا المتحف يستغرق مجلدات كثيرة وحياة علماء عديدين قد وقف كل واحد منهم نفسه على درس فرع صغير من فروع هذه الفنون

وهنالك أيضا رواق كبير فيه مجموعات مشتبكة من الاحجار الضالة والنيازك والشهب الساقطة من السماء ومجموعة فيها أنواع الاراضى التى تتركب منها قشرة الكرة الارضية وصخور ومعادن وأحجار كريمة ثم رواق النباتات وفيه تماثيل الفطر والكمأة (بنات الرعد) بالجبس ومجموعة من الفواكه الجافة والفواكه اللحمية والازهار محفوظة فى الكول ومن النباتات ٢٠٠،٠٠٠ نوع وأكثر من ٥٠٠،٠٠٠ عينة وكثير من أصناف النباتات الخضرية

المدارس والمحلات الخيرية والاعانات

رأيت كثيرا من المدارس ووقفت على بعض أساليب التعليم وأحطت بوسائل التقديم وأرى الآن وجوب الاكتفاء بالكلام على مدرسة النظامات السياسية ومدرسة العميان ومدرسة الخرس عسى أن يكون لشرحى فائدة فى بلادى

Digitized by Google

أما مدرسة النظامات السياسية فيتلقى الطلبة فيها كثيرا من الفنون أخصها علم أصول اللغة الرومانية واشتقاقاتها وعلم الكتب وتنظيم خزائنها وعلم السياسة وتاريخ النظامات السياسية والترتيبات الادارية والقضائية فى ديار فرنسا ثم عيون التاريخ الفرنساوى وفن تنظيم أوراق المحفوظات وتاريخ القانون المدنى والكنائسى فى القرون الوسطى وعلم الآثار (الاركيولوچيا) فى القرون الوسطى وتفتح قاعات الدروس للطلبة من الساعة التاسعة الافرنكية صباحا الى الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر بحسب اختلاف الفصول ولا يتجاوز عددهم فى السنة الواحدة ٣٠ تلميذا وينبغى أن يكونوا من الفرنساويين الحائزين على شهادة البكالورية فى العلوم البالغين من العمر ٢٥ سنة كاملة بالاقل ويلزم امتحانهم فى الترجمة من والى اللغة اللاتينية من غير استعانة باى معجم أو قاموس وفى تاريخ فرنسا وجغرافيتها قبل أول القرن التاسع عشر ومن يكون منهم عارفا بالالمانية أو الانجليزية أو الاسبانية أو الطليانية يكون له فضل السبق على غيره عند تساوى الدرجات وقد ترتب على احداث هذه المدرسة فوائد جمة أؤجل تفصيلها الى الرحلة ان شاء الله

Digitized by Google

أما مدرسة العميان فنظرا لفوائدها الجمة خصوصا فى قطرنا المصري يجب على أن أتوسع فى القول عليها قليلا مدخرا الاشباع الى الرحلة

يوجد فى فرنسا ٣٢،٠٠٠ أعمى لهم من المدارس الخاصة بهم نحو ٦٠ مدرسة وأهم هذه المدارس وأكملها مدرسة شبان العميان الاهليـة الكائنة فى باريس بدرب الانفاليـد وقد كان تأسيسها على يد الفرنساوى فالنتين هاوى فى سنة ١٧٨٤ وهى أول مدرسـة ظهرت فى الوجود من هـذا القبيل وربما كانت أفضل من كافة المدارس المماثلة لها وأحسنها نظاما وترتيبا وفيها الآن ١٥٥ غـلاما و ٨٠ فتاة ومدة التدريس عشر سنوات تكون بين سـن ١٠ و ٢١ سـنة ويتلقون فيهـا علوما عقلية وفنونا حرفية

فأما التعليم العقلى فهو ابتدائى وعال وقاعدة القراءة والكتابة فيها جارية على الاسـلوب الذى ابتدعه الاعمى الفرنساوى براى فى سنة ١٨٢٦ وهو عبارة عن رسم الحروف بنقط بارزة لا تزيد عن ستة عن أى حرف

وأما التعليم الحرفى فيشمل الغزل والخراطة وعمل الكراسى

Digitized by Google

واشغال الابرة والنسيج والموسيقى والالحان (وهذان الفنان قد بلغا الدرجة القصوى والمكانة العظمى حتى لقد فاق تلميذان وتلميذة من المتخرجين فى هذه المدرسة فى امتحانات عمومية على كثيرين من المتمتعين بنور الباصرة)

ومساحة الارض التى تشغلها هذه المدرسة هى ١١٫٨٠٠ متر منها ٣٫٥٠٠ مشغولة بالمبانى وفى فنائها تمثال مؤسسها وهو يحاول تعليم الاعمى وللفتيات قسم منعزل تمام الانعزال عن قسم الفتيان وللاساتذة غرف لسكناهم بالمدرسة فيها كل مايحتاجون اليه وهنالك سقيفة كبيرة يتنزه التلامذة تحتها ويتفرغون للعب والرياضات اثناء اشتداد الاهوية ونزول المطر وتغير حالة الجو أما نظام التهوئة وتدبير التدفئة ففى غاية من الكمال والموافقة فى الغرف والفصول والمكاتب والورش والمنا كل والعنابر (الانبار) وفيها بيعة صغيرة للطقوس الدينية وحمامات فيها ٣٠ قسما وفى كل قسم منها جهازات الدوش (صب الماء رشاشا لانعاش كافة الجسد) بحيث يستحم كل تلميذ وتلميذة مرة واحدة فى كل خمسة عشر يوما بالاقل وفى المدرسة ورش للتعمير والتصليح والترميم خاصة بالآلات الموسيقية التى يستعملها التلامذة ولذلك غايتان أوليهما الاقتصاد فلا تتكلف المدرسة نفقة ذلك فى

الخارج والثانية تمرين التلامذة على اصلاح آلاتهم بانفسهم واضافة ماينقصها وتعرف مواقع الخلل فيها حينما يسقط مسمار أوينقطع وتر وفى المدرسة مطبعة خاصة بها يطبع فيها التلامذة كتبا كثيرة فى فنون الاداب والموسيقى مما يحتاج اليه العميان

وقد رأيت أيضا مكتبة فيها ٢٥٠ مجلدا بالنقط البارزة و ١٦٠٠ من الكتب المطبوعة بالكيفية الاعتيادية وهنالك واعظ يقوم بالقاء الدروس الدينية وأما التلامذة الذين لايدينون بالمذهب الكاثوليكى بل بمذهب آخر معتبر فى الحكومة فتعليمهم يكون بحسب ديانتهم بعد الاتفاق على ذلك بين المدرسة وبين أهاليهم وشؤون الصحة منوطة بطبيب وحكيم اسنان موظفين فى المدرسة (وعند الاحتياج يستشار حكماء آخرون) وطبيب عيون وجراح ولايقبل التلامذة الا فيما بين السنة العاشرة والثالثة عشرة وقد خرج منها كثير من النابغين الذين أعلوا قدرها وشرفوا ذكرها بما اكتسبوه من حسن الاحدوثة وماقاموا به من الخدم الجليلة فنهم براى الذى أشرنا اليه قبلا ورودنباخ الذى كان أمينا لاحدى مدائن البلجيكا وعضوا عن الامة فى مجلس النواب البلجيكى من سنة ١٨٣٢ الى يوم وفاته فى سنة ١٨٣٩ وبنجون الذى كان مدرسا للعلوم الرياضية فى مدرسة أنجى الشهيرة وحائزا

Digitized by Google

لوسام اللجيون دونور من درجة شفالييه ثم فوكو ذلك الميكانيكى البارع الذى اخترع جهازات كثيرة لتسهيل المكاتبة بين العميان والمبصرين وجوتيية وروسل ولوبل وهم من اساتذة المدرسة قد صنفوا تلاحين موسيقية دينية وعمومية لها عند العارفين قيمة عظيمة وغير هؤلاء عدد عظيم يضيق عن سرده حجم هذه الرسالة ويوجد فى فرنسا الآن أكثر من ٢٠٠ أعمى ينالون ربحا واسعا ورزقا حلالا طيبا من صناعة البيانو بل ان بعضهم يديرون مخازن بيع آلات البيانو أو اصطناعها .

وقد تأسست شركة مهمة لاستخدامهم ومعاونتهم والاهتمام بكل مايتعلق بهم حسا ومعنى وبسط لواء حمايتها ورعايتها عليهم فى جميع الاحوال وفى طول حياتهم ولاتطلب منهم فى نظير ذلك سوى السير المحمود والاقبال على العمل بقدر ماتسمح لهم به حالتهم وقد بلغت ايراداتها فى آخر دسمبر سنة ١٨٩١ ٣٢,٣٣٥ من الفرنكات (نحو ١٢٩٣ جنيها ونصف تقريبا) ومصروفاتها ٢١,٥٧٩ من الفرنكات (نحو ٨٦٣ جنيها وربع تقريبا) والباقى فى صندوقها ١٠٧٥٥ من الفرنكات (أى قريبا من ٤٣٠ جنيها وربع) وأما رأس مالها فهو عبارة عن ١٨٥٤٩٦ من الفرنكات وقد اتسع نطاقها وكثر عدد المشتركين فيها بالاقساط

والتبرعات حتى بلغ عددهم ٨٥٠ شخصا منهم ٢٨ من أكابر سيدات فرنسا جُعلت الجمعية تحت حمايتهن و ١٧٨ من السيدات و ١٥٢ من العذارى و ١١٤ من التلامذة الموجودين فيها لتلقى الدرس منهم ٤٠ فتاة

وقد تأسست جمعيــة أخرى باسم ڤالنتين هاوى غايتها تعليم العميان الجاهلين وتشغيل العميان المتعلمين ولها ثلاثة جرائد خاصة بالعميان الاولى (ڤالنتين هاوى) وهى مجلة عمومية تبحث فى جميع المسائل المتعلقة بالعميان والثانية (لويس براى) وهى جريدة تطبع بالحروف البارزة لكى يقرأها العميان والثالثة (مجلة براى) مثل التى قبلها وتظهر فى كل يوم أحـد مشحونة بالمسائل الادبيـة والعلمية والموسيقية ولهذه الجمعية قاعة للخطابة يتباحثون فيها فى كل ما يهم العميان وتتبعها أيضا مكتبة متنقلة تعير العميان الكتب المطبوعة بالحروف البارزة ليقرؤها فى بيوتهم و يستفيدوا منها فى أوقات فراغهم ومن ملحقاتها المتحف وقد تكلمت عليه بما فيه الكفاية والله ولى المحسنين

أما مدرسـة الخرس فلا يدخلها غير الذكور ومـدة التعليم ثمانية سنوات فيتعلمون فيها زيادة عن المعارف الابتدائية أحـد الفنون الآتية وهى طبع الحجر (مع الكتابة والنقش على الحجر)

Digitized by Google

ونقش الخشب وطبع الحروف والنجارة واصطناع الاحذية وفن البساتين وأما التعليم الدينى فيقال عنه فيها كما قيل فى مدرسة العميان والغذاء مرتب بكيفية توافق الصم الخرس ولهم حمامات بجهازات ايدروليكيه وحوض للسباحة ومروج واسعة وصحون فسيحة يلعبون فيها الجباز و يتعوّدون على الرياضات الجسدية وخلاصة القول ان المدرسة تعتنى عناية كلية بتقوية أبدانهم وأمزجتهم وفيها طبيب ومساعد له وحكيم عيون وجراح عارف بفن الاسنان ومستشفى يقوم بالخدمة فيه ممرضات حائزات للدبلومة وقد شاهدت التعليم حينما يجىء الطفل فيها أول سنة و يترقى شيأ فشيأ بكيفية تدهش العقول فانهم قد منعوا استعمال الاشارات بالاصابع مرة واحدة ولا يتجاسر أحد من الاساتذة أوالتلامذة على ابداء أية اشارة ظاهرة أوخفية وكل التعليم جار فيها (وفى جميع مدارس أوروبا وأمريكا كما علمته) بواسطة النطق بالاصوات ولذلك يجتهدون فى تعليم الاخرس مخارج الحروف بغاية الدقة ونهاية الاعتناء وقد تكلمت مع بعض الخرس فكانوا يجيبوننى بالجواب المناسب غير اننى فى أول الامر رفعت صوتى كثيرا فلم يفهمنى الاخرس مطلقا مع انى رأيته يفهم ناظر المدرسة كأسرع مايمكن بالنسبة لحالته فتنكرت الامر وحينئذ دعانى

الناظر لان أخفض صوتى (لاننى مهما بالغت فى رفعه فلن يسمعنى أبدا) وان أكلمه وجها لوجه حتى ينظر حركات شفتاى ولسانى فعملت بما رسم وأجابنى الاخرس على الوجه المرغوب ثم اننى أمليت على جملة من التلامذة عبارة فرنساوية فكتبوها بالضبط الا واحد منهم أخطأ فى حرف واحد لتشابه المخارج ثم كتبوا اسمى واسم بلدى على التختة ولم يهملوا الاحرف H المقابل للحاء فى لفظة (أحمد) لعدم امكان النطق به فى الفرنساوية وأما الفنون الحرفية والصنائع اليدوية وحرث الارض وغرسها ففى درجة من التقدم يغبطهم عليها أكثر الناطقين بالضاد وبغير الضاد وفى المدرسة متحف جليل يحتوى على جميع الطرق التى تؤدى لتعليم الاخرس ورسوم ونقوش وتصاوير كثيرة من صنع الخرس وقد كان لبعضها فوقان عند العارفين على ماصنعه كثير من الناطقين ويقال ان هذا المتحف لانظير له فى البلاد الاخرى فان الاب دولوبى (وهو أول من عنى بتعليمهم) له أكثر من ١٠٠ قطعة تراه فيها مصورا فى جميع أحواله وهنالك عدد عظيم من التحف المتنوعة التى برع فى احداثها كثير من الصم والخرس الذين نبغوا فى جميع انحاء العالم ومما ينبغى ذكره بوجه الايجاز ان هذا المتحف يحتوى على رسوم الاماكن التى استقرت بها هذه المدرسة قديما

Digitized by Google

وحديثا ومناظر تصور هيئة أهم مدارس الخرس فى فرنسا وفى الخارج وصور الاب سيكار ومعلمى الخرس من الفرنساويين والاجانب وكثير من أعاظم العالم الذين لهم دخل فى تاريخ تعليم الخرس من مؤسسى المدارس ونظارها والمحسنين ومشاهير الكتاب ورجال الحكومات وأهل السياسة ثم أعمال الخرس فى جميع العصور وعند جميع الامم من مصورين ونقاشين ونحاتين ورسامين وطباعين وفوتوغرافيين ومهندسين ثم صور كثير من مشاهير أرباب الفنون الخرس ثم ميداليات ومسكوكات وكتابات بخط اليد وأشياء نادرة وغير ذلك مما يتعلق بهذه الطائفة

وقد تألفت جمعية لتعضيد الخرس ووافق أنها اثناء أقامتى فى باريس أولمت وليمة فاخرة احتفالا بحلول السنة المتممة للمائة وثمانين من يوم ميلاد الاب دولوبى نعم انى لم أحضر هذه الحفلة الغريبة الشائقة ولكنى لا أرى بأسا من افادة القارئ بما علمته عنها من الجرائد وذلك ان المدعوين كانوا كثيرين وكانت الحفلة تحت رياسة الموسيو كوشفر وهو من المهندسين الذين تخرجوا بهذه المدرسة وبعد انقضاء الطعام وقف يخطب فى القوم ...... ببلاغة باهرة مستعينا بالايماء والاشارة فانه ألم أحسن المام بذكر حياة الاب دولوبى وسرد مآثره التى

أفاضت الخيرات على جزء عظيم من بنى الانسان ثم شكر الجمهورية الفرنساوية على مساعدتها فى تحسين حال امثاله ثم ختم مقاله باهداء ميدالية الى أحد النقاشين البارعين من الخرس وقدمها له باسم وزير التجارة والصناعة ثم تلاه كثير من الخطباء الخرس وكانوا كلهم يفيدون الحاضرين بعبارات ظاهرة مفهومة

أما أماكن البر والاحسان واصطناع المعروف واغاثة الملهوف فهى أكثر من ان تعدولها شؤون كثيرة وفائدة عظمى فنها ماتساعد الامهات لتمكنهن من ارضاع اطفالهن أو فقراء المعتوهين الناقهين بعد خروجهم من البيمارستانات أو تلتقط اليتامى اناثا أوذكورا وتتكفل بتعليمهم وتربيتهم فى طريق الشرف والاستقامة أو تعاون فقراء الالزاسيين واللورانيين الذين تركوا وطنهم وآثروا الفقر مع بقاء الجنسية الفرنساوية لهم على الدخول تحت أحكام المانيا أو تضم الامهات الفقيرات أو تضيف النساء والرجال الذين لامأوى لهم بالليل أو تتكفل بالفقراء من الرجال أو النساء الى أن يجدوا لهم خدمة يتعيشون منها أو بالنساء الحبالى فقط أوالطاعنين فى السن دون سواهم أو لوصف الادوية أو لتقديم الدواء أو للوالدات بعد الولادة وهن فى دور النقاهة أو للفتيات بعد مرضهن أو لتقديم الاشغال للخياطات اللاتى

Digitized by Google

ليس لهن خدمة أو للتكفل بالابناء حين اشتغال والديهم عنهم بسبب كسب القوت أو لتطبيب الاطفال على العموم أو المصابين بداء مخصوص مثل الخنازيرى والكَلَب أو الادواء العضالة وغيرها أو لاستخدام العذارى فى مخازن التجارة أو لاستخدام الفعلة والعملة من الجنسين والكتاب والحساب وغيرهما أو لتعليم الزراعة أو لتبنى الاولاد ووضعهم فى مرابى الايتام أو لاستخدام اليتامى والاولاد الذين تركهم أهلهم أو لمساعدة العائلات أو لتعليم الاطفال الفقراء حرفة الصياغة والجواهر والساعات وغير ذلك من الفنون الحرفية أو للاغراب الامريكانيين أو الانجليز أو النمساويين والمجريين أو الطليانيين أو البولونيين (اللاهيين) أو السويسريين أو البلجيكيين أو جميع الامم أو لتقديم الخبز أو لتقديم صنف من الطعام أو لفقراء المرضى أو لتعضيد التكايا أو لقبول المعلمات اللاتى ليس لهن وظيفة يتعيشن منها أو لفقراء الاسرائيليين أو لتقديم الجهازات اللازمة لمن تُقطع بعض اعضائهم أو للولادة أو لتسهيل الزواج بحسب قواعد الدين واجراء المساعى اللازمة بين الطرفين أو لتسهيل الزواج بالطريقة المدنية من غير توسط القسيس وتقديم كل مايلزم من الصكوك والاوراق مجانا والتكفل باثبات نسب الاولاد وجعلهم شرعيين أو لحماية الجنود البرية

Digitized by Google

والبحرية الذين احرزوا نشانات فى وقائع التونكين أو لمساعدة جرحى الجنود (وهذه الجمعية مركبة من النساء) أو للذين كانوا فى سلك الجندية وحازوا وسامات اللجيون دونور أو الذين سبقت لهم الخدمة فى الجيش أو لمساعدة عائلات وأرامل ضباط البرية والبحرية أو عمال الحكومة الذين تشابه وظائفهم وظائف الضباط أو لترتيب معاشات للعسكرية أو لحماية الذين يتطوعون فى الخدمة العسكرية أو لتخديم الشبان الذين يتخرجون ببعض المدارس أو لاقراض عائلات العملة المبالغ اللازمة (من غير فائدة) لاستخلاص الاشياء التى وضعوها فى بنك الرهونات ثم جاء الاجل ولم يتيسر لهم المال المطلوب أو لدفع ايجار مساكن الفقراء أو لاعادة الفقراء والمرضى الى أوطانهم أو لمساعدة المحتاجين من المشتغلين بحرفة سباق الخيول أو لبذل الاعانة اللازمة فى الحال أو لمساعدة الذين يروحون شهداء تأدية الواجب (وقد أرسلت هذه الجمعية فى شهر اكتوبر الماضى ٤٠٠ فرنك لشيخ احدى البلاد لتوصيلها لارملة رئيس المحطة وقد دهسه الوابور بينما كان يجتهد فى انقاذ امرأة ارتبكت على الشريط وقد أتى الوابور و ٣٠٠ فرنك لعائلة رجل مستخدم بالدخولية دهسته العربات بينما كان يمانع تهريب بعض الاصناف و ٢٠٠ فرنك لرجل

Digitized by Google

من بوليس باريس أصابته جراح بليغة بينما كان يحاول توقيف خيول حرونة وقد وردت لها فى الشهر المذكور وصية من زوجة أحد القضاة بمبلغ ١٥٠٠٠ فرنك ووصية أخرى قدرها خمسين ألف فرنك من أحد النقاشين وثالثة من احدى العذارى وقدرها ٥٠٠٠ فرنك) وهناك أيضا جمعيات لاتدخل تحت حصر وقد عددت الجمعيات التى وقفت على اسمائها وعنواناتها وبيان أعمالها فاذا هى ٢٤٥ جمعيـة بعضها لها فرعان وخمسـة وعشرة بل وخمسة وعشرون وبعضها خاص بطائفـة من الناس أو بدين مخصوص أو بجنسية واحدة أو بسن معين أو ببنى الانسان على العموم

وفضلا عن ذلك فان الاكتتابات تراها فى كل جرائدهـم لاقـل حادثة مثال ذلك انى رأيت اعلانات من دار أمانة القسم الاول من باريس تدعو فيه أهل الخير لمد يد المساعدة اليها لتعاون الفقراء على احتمال البرد وشدائده وتقول فيه انها أنفقت فى السنة الماضية الاعانات التى جمعتها من أرباب اليسار وقدرها ٢٠٠٠٠٠ فرنك وقـد قلت لك ان باريس تحتوى على ٢٠ قسما ولابد انها كلها سارية على هذا المنوال ومثال ذلك انه لما أضرب العمال فى مناجـم الفحم الحجرى بـكارمو عن العمـل فتحت جريدة الانترانسيجان اكتتابا اشترك فيـه كثير من النـاس وكنت أرى

فى أعمدتها ان فلانا وفلانا وفلانا من الفعلة فى كذا تبرعوا
بمبلغ فرنك واحد ولكننى ما كنت أستخف بذلك مثل أولئك
الذين يحتقرون صغائر الاشياء ولا يعلمون انها اس الاجتماع
ومنبع العمران ودليلى على ذلك ان الانترانسيجان جمع من هذا
الاكتتاب مبلغا يزيد على ١٨,٠٠٠ فرنك ثم ان المجلس البلدى
فى باريس أرسل لهؤلاء العملة مبلغ ١٠,٠٠٠ فرنك صفقة
واحدة وقد تواردت عليهم الاعانات من جميع الجهات ومن
جميع الطوائف ولابدان القارئ وقف على تفاصيل هذه الحادثة
الهائلة التى اضطربت لها أساطين السياسة فى فرنسا وشغلت
العالم باسره ولذلك فلا أرى وجها للخوض فيها فضلا عن أن
شرحها يحتاج لوقت طويل ومثال ذلك أيضا الاعانات التى
بادر أهل فرنسا على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم بارسالها الى
الجرحى من جنودهم فى غزوة داهوماى فمن ذلك ماقرأته حينئذ
فى الجرائد ان المحفل الماسونى (الزاس ولورين) قد أرسل لهم ٢٠٠
فرنك على يد وكيل وزارة المستعمرات وأرسلت لهم جمعية نساء
فرنسا وللجنود التى فى التونكين ٣٧ صندوقا فيها أصناف كثيرة
من المأكولات والملبوسات وغير ذلك واقتدت بها طوائف كثيرة فى
هذا السعى الحميد ولكن جريدة الفيجارو فاقت الجميع فانها كتبت

فى يوم ٧ نوفمبر تستحث أهل البر وخصوصا كبراء التجار على المساعدة فى اكتتاب لجنود داهوماى وقالت انها تفتحه فى ثانى يوم وتقفله فى اليوم الثالث وان ذلك يستوجب التعجيل ولم يرد اليوم الثالث وهو ٩ نوفمبر حتى كتبت تقول «لقد أجيب نداءنا بأكثر من جميع آمالنا فقد اجتمع فى مكتب الفيجارو فى أقل من يومين ٢٢٠٠٠ زجاجة من نبيذ بوردو والشامپانيا والمياه المعدنية و ٢٥٠٠ علبة من المربيات وأصناف المأكولات المحفوظة و ٢٫٩٥٠ قطعة من مربعات الشكولاته و ٢٣٫٤٥٠ سجارة فرنكية و ٣٫٠٠٠ سجارة مصرية وأكثر من ١٠٫٠٠٠ صنف من الاصناف المتنوعة مثل شراب الروم والشارتروز ومثل التاپيوكا وغير ذلك مما سبق لنا سرده فى العدد الماضى وكان مبلغ النقود التى وردت لنا ٤٣٫٠٠٠ فرنك ونصف (١٧٢٠ جنيها تقريبا فى يومين اثنين خلاف الاصناف الاخرى) وقد قفلنا باب الاكتتاب» ثم أوردت بيان الاصناف وأسماء المتبرعين ولا فائدة فى احاطة القراء بذلك فان هذا الاقبال يغنى عن الشرح والبيان وبمثل ذلك فليتنافس المتنافسون — ومثل ذلك اهتمامهم بعائلات الذين ماتوا فى حادثة انفجار الديناميت فى شارع بونزانفان أثناء اقامتى فى باريس فكان رئيس الجمهورية أول من اهتم بشأنها وقد

أرسل مندوبا من قبله ذهب الى منزل كل واحدة من الارامل وأعطاها اعانات من جيب رئيس الجمهورية الخصوصى وأعلمها بانه مشارك لها فى أحزانها ثم توجه الموسيو لوبى رئيس الوزراء حينئذ فزار كل واحدة منهن فى مسكنها وقدم لها مساعداته شخصيا ووعدهن بان الحكومة تتكفل بالارامل وتتعهد بتربية اليتامى ثم جاء محافظ المدينة ووزع عليهن ٧٠٠٠ فرنكا ثم تعهدهن مرة ثانية وقدم لهن ماورد اليه برسمهن من لجنة مصانع الحديد فى فرنسا ولجنة مناجم الفحم الحجرى وقدم لهن أيضا مبالغ جمعت فى احدى الولائم وقد علمت ان مقدار ما أرسلته لجنة مناجم الفحم ٥٠٠٠٠ فرنك وقد وردت المساعدات من جميع انحاء فرنسا بما يضيق عنه المقام ثم تقرر ترتيب معاش لعائلات المصابين الذين كانوا فى خدمة الحكومة يكون نصفه من ميزانية الحكومة والنصف الآخر من ميزانية مدينة باريس وقد كان فيهم رجل من خدامى القومبانية (التى قصد أصحاب الديناميت تدميرها) فلذلك تقرر صرف المعاش لارملته وأولاده باحتساب النصف على الحكومة والنصف الآخر على القومبانية المذكورة وهى قومبانية معادن الفحم الحجرى فى كارمو -
وخلاصة القول ان تفننهم فى وسائل الاعانة واقبالهم عليها أمر

Digitized by Google

يستغرق شرحه مجلدات ضافية الذيول يدل على ذلك ماقدره أهل المعرفة من ان مبلغ الاعانات التى يبذلها أفراد الناس فى باريس على حدتهم تزيدعلى ٢٥ مليون من الفرنكات فى كل سنة (انظر جريدة الطان عدد ١١٥٤٨ من هذه السنة) ومع كل هذا الاجتهاد فلا يزال بعض الناس يموتون فيها جوعا وان كانت النسبة أقل بكثير مما فى لوندرة فقد رأيت فى العدد ٣٧٠٠ من جريدة الغولوا جملة طويلة على الفاقة والخلو من العمل فى باريس اقتطف منها بعض شذرات جديرة بالاعتبار

قالت انه بحسب البيانات الرسمية والاستعلامات المؤكدة التى استحصلت عليها يتضح ان عدد العملة الذين منعتهم شدة الشتاء ووقوف حركة الاشغال من كسب القوت يقرب من خمسين ألفا وان طلبات الاعانة قدتواردت على مكاتب الاحسان العام بمقادير جسيمة أزيد من المعتاد وان هذه المكاتب تمد ساعد المساعدة لنحو ٩٢ أو ٩٣ ألف من المحتاجين وانها تقوم بمعالجة نحو ٩٠ ألف مريض و ١٩ ألف والدة فى منازلهم وان عدد الملهوفين بحسب التعديل المتوسط سيزيد فى هذا العام زيادة تذكر — أما الملاجىء الليلية التى يلوذ بها الفقراء عديمو السكن فقد بلغ عدد الوارد على أحدها فى كل يوم بالمتوسط ٢٠٠

رجل مع انه لايسع الا ١٥٠ وكان عدد النساء أكثر بكثير مما قدر لهن فان الوارد منهن فى اليوم الواحد بالمتوسط نحو ٥٠ مع انه لايسع الا ١٥ وان استمر الشتاء على شدته وكاب كما هو المنظور يزداد عددهن أكثر من ذلك وقد بلغ عدد النساء والاطفال الذين لجئوا اليه فى العام الماضى ٣,٦١٧ مضوا به ٩٦٥٧ ليلة وفى جملتهن الخدامات والمعلمات والابكار والارامل وامثالهن وغير ذلك والمقرر فى هذا الملجأ اعطاء الرجال كسرة من الخبز فى الليل وورقة للخباز لاخذ رغيف وقليل من المرق بالنهار وأما النساء فلهن الخبز والمرق فى نفس الملجأ نعم ان هذه الكسرة وهذا القليل من المرق أمر زهيد جدا لايعتد به ولكنه فى الجملة تصل قيمته الى ٢٥ ألف فرنك هذا فضلا عن كون بعض معامل الصناعة فى باريس تعهد بتقديم ٥,٠٠٠ كيلو من الخبز فى كل شتاء الى هذا الملجأ احتسابا لوجه الله تعالى ومعاونة له على أعماله الخيرية وهذا الملجأ يوزع على اضيافه فى كل عام من ٢٠ الى ٢٤ ألف كسوة وقميص وجوراب وصدار وفستان وحذاء وغير ذلك وانى لاأرى بعد ذلك كله حاجة للشرح والبيان بل أحمد الله على حالة بلادنا وأهلها

Digitized by Google

التياترات والملاهى والمتنزهات

أصبح التشخيص فى باريس من الكماليات الحاجية التى لاغناء لاهلها عنها حتى ان الرجل ليقتصد من مصرفه الضرورى لتمضية الليلة فى أحد التياترات وكثيرا ماتتكبد بعض العائلات نفقة باهظة جدا لقصر احدى المقصورات بواسطة الاشتراك (وخصوصا مقصورات الاوبرا) ليقال عنها ان لها مكانا معينا فى هذا التياترو أو فى ذلك المرسح ولذلك لايندر ان يحل موسم افتتاح التياترات الكبيرة وليس فيها محل خال للايجار والاعظم من ذلك ان الاوبرا يؤجر أماكنه بالستة شهور بل وبالسنة الكاملة ويخيل لى ان أغلب نساء هذه العائلات انما يحضرن هذه الملاهى لعرض ملابسهن وابداعهن فى زخرفتها وزركشتها ولاستجلاب العيون والعوينات نحوهن لا لقصد سماع الاغانى والالحان أو شهود التشخيص والتمثيل اذأنهن يكن غالبا فى اثناء ذلك مشتغلات باصلاح الفستان وهندمة دوائره ومستديراته وتعديل الصدار وتنميق الوشاح والخايلة بالمراوح ذات الالوان التى تأخذ بالابصار وتراهن عندما يستقربهن المجلس يبتدئن بعد هذه الهندمات الضرورية لهن باستعمال النظارات المقربة المكبرة المجسمة لمراقبة بعضهن بعضا واستوقاف رائد الطرف نحو

Digitized by Google

التى تجلت فى جاباب الظرف وفاقت بحسن الشكل وبرعت بجمال المنظر ثم يرسلن اللحاظ الفاترة فى بعض الفترات لرؤية الرجال وهم يرمقونهن على الدوام حتى اذا جاءت ساعة التشخيص التفت هؤلاء اليه وأقبل أولئك على شؤونهن الاولى من اصلاح الملابس والاتقان فى التبرج والاغراب فى البهرجة مع توالى النظر فى المرايا أو المسامرة مع بعضهن ومبادلة أفكارهن فيما يتعلق بهن

تلك يا صاح حالة السباترات على العموم والاوبرا على الخصوص وصفتها كما رأيتها مقتديا بعمرو بن العاص ذلك الصحابى الجليل الذى مع قرب عهده بالبداوة لم يتحاش من قول الحق فى رسالته المشهورة التى بعث بها الى امام المسلمين وأمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وأرضاهما حيث قال فى عرض وصفه لمصر وأهلها (ونساؤها طرب) ولم يؤاخذه الخليفة الراشد المشهور بالصرامة والجد والصلابة فى الحق الى آخر حد

وقد اقتديت أيضا بطارق بن زياد فاتح الاندلس فانه قد وصف نساءها حينما خطب فى قومه يحرضهم على قتال رذريق ملك الاندلس وأطنب فى ذكر محاسنهن وجمالهن وغير ذلك مما تراه فى خطبته التى أوردها صاحب نفح الطيب وجميع مؤرخى الاندلس وقد ترجمت الى أغلب اللغات الافرنجية .

Digitized by Google

وقد نحوت أيضا نحو ذلك الرحلة المشهور بابن جبير فانه وصف نساء الافرنج فى صقلية وصفا مدققا كما يعلمه من له اطلاع على كتابه المطبوع المتداول وذلك لان وظيفة السائح تقرير الحقائق كما هى وذكر الوقائع كما حصلت الافرنجية

وفى أول ليلة توجهت الى الاوبرا ورأيت مقصورات الطرف فى مقاصيرهن كأنهن كواكب السماء قد انتشرت أو أزهار البهاء قد انتثرت حدثتنى النفس بان أصعد بعد تشخيص الفصل الاول الى بهو الاستراحة البهيج لالأسترق السمع ولكن لأسترق البصر فرأيتهن كلهن يصدق عليهن قول كعب بن زهير فى قصيدته التى مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة * لا يشتكى قصر منها ولا طول

ومعلوم ان خاتم الانبياء الذى بعث لتتميم مكارم الاخلاق أعجب بهذه القصيدة اعجابا لامزيد عليه حتى انه لم يكتف بحقن دم الشاعر بعد ان كان أهدره بل خلع عليه بردته الشريفة ولاعجب اذا حق للغريب المتاصص فى هذه الحال أن ينشد قول من قال

وانك ان أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذى لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

Digitized by Google

والذى جرأنى على الاتيان بهذا الوصف القليل هوماجريت عليه من الاحاطة ببعض أحوال باريس وان لكل مقام مقال فان من أراد أن يلم بشئ على التياترات فى هذه البلاد لايجوز له أن يضرب صفحا عن ذكر النساء فيها لانهن حياتهاوروحها ولولاهن لما كان لها ذكر ولاقامت لها قائمة بل ان الرجل ليعتبر نفسه من أسعد السعداء اذا أصبح ورأى فى الجرائد ان زوجته أو أخته أوابنته أو من تنسب اليه هى التى كانت محط الانظار ومحل الاعجاب والاستحسان فهذه هى عاداتهم وهذه هى أخلاقهم يشاركهم فيها عامة الاوروباويين تقريبا ولم أرمندوحة من الالماع اليها

أما التياترات فى حد نفسها فأهمها الاوبرا وقدكان الاحتفال بافتتاحه فى ١٧ يناير سنة ١٨٧٥ بعد ان استمرت العمارة فيه مدة ١٥ سنة وبلغت نفقاته ٦٥ مليون من الفرنكات وبهو المتفرجين يسع ٣٫٢٠٠ شخص اما ما فيه من المبانى الجسيمة الفاخرة والرسوم الباهية الباهرة والصور الجليلة الجميلة والتماثيل المتقنة المحكمة والنقوش المزخرفة والسلالم والقباب والثريات وغير ذلك من الامتعة الغالية العالية فذلك بمقدار مبلغ النفقات وفى ذلك مايغنى عن الافاضة

Digitized by Google

ويجيء بعده التياترو الفرنساوي أو الكوميدية الفرنساوية
وقد كان تشييده في سنة ١٧٨٢ ويحتوي على كثير من آثار
الفنون المستظرفة ويعتبره الفرنساوية فخرا قائما لهم وان
الروايات التي تشخص به مسبوكة في أحسن قالب وأكمل ذوق
ولكن الرواية التي شهدتها لاتشهد بذلك وان كان مؤلفها من أكبر
أكابرهم وهو ابن الكساندر دوماس ومن أعضاء الاكادمية
الفرنساوية فانها عبارة عن امرأة تحققت خيانة زوجها لها
فاستعملت كل الوسائل في ارجاعه عن جهله ولم تنجح فاضطرت
ذات ليلة لاقتفاء أثره في البالو ثم في المواخير وقلدته في جميع
أعماله ثم أخبرته بذلك بتفصيل وتدقيق أثبتت له حضورها في
المكان الذي كان فيه متخذة لها صاحبا حيثما اتفق من الشبان
الى غير ذلك مما لايساعدني القلم على كتابته وان كانت في آخر
الامر أثبتت براءتها بقولها عن الشاب المذكور (لقد كذب) فانها
طلبت من زوجها أن يستعلم منه بطريقة خفية وانى أدع الآن
تفصيل أفكاري في هذا الموضوع الى الرحلة وانما أقول ان أغلب
الروايات التي تشخص في فرنسا بل وفي أوروبا يكاد يكون الغرض
منها تعليم النساء الحيل والمكايد مع انهن بنات بجدتها وسأقيم

Digitized by Google

البراهين على ذلك بتلخيص بعض الروايات التى يزدحم عليها القوم ولا ازدحام الجياع على القصاع

وكذلك أقول عن جميع التياترات التى زرتها ماعدا الاوبرا فى قليل من الاحيان وتياترو الشاتليه غالبا فانه مخصص للقطع التاريخيـة ومما يستحق الذكر فى هذا التياترو الاخير ان عـدد الراقصات فيه يبلغ ٢٠٠ عدا المشخصات والمشخصين

واعلم أنه يوجد فى بعض التياترات نظارات موضوعـة فى ظهور الكراسى بكيفية ميكانيكية لطيفة بحيث ان غطاءها ينفتح بمجرد وضع نصف فرنك فى فتحة فيها وبعـد تمام التشخيص يعيـدها المتفرج لمكانها

ومن أغرب مايتعلق بالتياترات تلك الآلة الكهربائية المسماة بالتياتروفون (أى سماعة التياترو) وبيان ذلك أن لاغلب الجرائد المهمة قاعات فسيحـة يسمونها قاعة التلغرافات ولكنها أشـبه شئ بمعرض للصور والرسوم وبعض المصنوعات الدقيـقة اللطيفة وغير ذلك من مسـتطرف الآلات ومستحدث البدع فتوجهت الى كثير منها ورأيت فيها شيأ شبيها بالتيلفون وفيه فوهة مخصوصة يضع الانسان فيها نصف فرنك أوفرنكا بحسب المدة التى يريدها ثم يضع السماعات على أذنيه فيسمع التشخيص بغاية الوضاحة كأنه

Digitized by Google

حاضر فى أحسن محل بالتياترو ويسمع الغناء بصوت صريح و يقف على جميع الاقوال التى يتبادلها المشخصون أثناء التمثيل مما قد لايسمعه اذا كان جالسا فى الصف الخامس من المتفرجين ولكن هذه الآلة لاتمكن المستمع بها من سماع التصفيق أو الموسيقى أو غير ذلك مما لايتعلق بالتشخيص مباشرة لانها مدبرة بحيث تنقل كل صوت يقع فى نفس المرسح الذى يقف عليه المشخصون دون سواه وقد حضرت بهذه الكيفية قطعا كثيرة من بعض الروايات التى أعرفها اذ كنت كل ليلة أتوجه الى قاعة التلغرافات فى جريدة غير قاعة جريدة الامس

أما قهاوى المغانى وأماكن الرقص ومايشابهها مما يدخل فى هذا الموضوع فهى أكثر من أن يتصورها الانسان وكلها فى كل ليلة تكون غاصة بالجماهير المجمهرة والعوالم المتقاطرة

أما المنتزهات والمسابقات على الخيول والعربات والاقدام والعجيلات المفردة والثنائيه والثلاثية (السيكلت والبيسكل والتريسكل) وقبقاب الزحلقة على الثلج الطبيعى والصناعى والسباحة والملاحة والصيد والقنص والرماية ومرائى العالم (صندوق الدنيا أما والبانورا) فقد تفننوا وتعمقوا فيها الى درجة قاصية حتى ان جرائدهم تخصص لذلك كله أعمدة طويلة فى كل يوم بل ان لكل نوع منها جريدة أو أكثر خاصة به ومنتدى (كلوب) يجمع أهله وكثيرا

ماتكون مسابقاتهم على الاقدام أو العجيلات المفردة من مدينة الى مدينة أخرى بعيدتين عن بعضهما بمسافات كبيرة وقد يشاركهم كثير من النساء فى هذه المسابقات ويفزن فى غالب الاحوال بقصب السبق فى هذه المضامير المتنوعة المتعددة ومن شدة غرامهم بالزحلقة على الثلج أحدثوا فى الصيف الماضى قبل رجوعى الى باريس بقليل مكانا سموه (القطب الشمالى) وأحضروا له من آلات التبريد والتثليج (مثل الآلات المعروفة فى مصر المعدة لاصطناع الثلج) مافيه الكفاية لتجميد الماء وايجاد الثلج الصناعى بكمية وافرة وحجم جسيم يمكن المولعين بهذا النوع من الرياضة من قضاء مآربهم فى غير فصل الشتاء وقدنال هذا المحل اقبالا عظيما جدا مع ارتفاع أثمان الدخول وتأجير القبقاب وتناول المشروبات وغيرذلك وهذا أكبر دليل على ان القوم لم يقدروا على كتمان اشتياقهم لهذه المسابقة الى أن يحل أوانها حتى انى لم أر بدا من زيارته فى بعض الليالى حبا للاستطلاع والوقوف على حركته وكيفية ادارته فتوجهت أولا الى الحمام التركى (وهو على طرز الحمامات العمومية فى مصر لايفترق عنها الا بفرط نظافته ووجود المرشات الباردة وبرك السباحة وكمال المعدات) وقد رأيت فى جملة المكبسين الافرنج الذين به رجلا من

الاسكندرين اسمه حسن قد فارق ديار مصر مع عائلة أمريكانية منذ ١٨ سنة ثم انفصل من هذه العائلة واستقر فى باريس يكسب قوته بكده وسعيه وبعد الحمام انتقلت الى القطب الشمالى فاذا هو مكان فسيح جدا فيه صور ورسوم تصوّر هيئة القطب الشمالى وثلوجه ونباتاته ومحيطه وكواكبه وغير ذلك ورأيت الآلات وكيفية ادارتها ووقفت على سير هذه المصلحة المستجدة بالتفصيل وعرفت أسرارها مما سأخلده بالبيان الشافى فى الرحلة ان شاء الله وقد هزنى الشوق الى مجاراتهم و وطئ الثلج بتلك الاقدام المصرية التى لم يتح لها قط فرصة مثل هذه فى وادى النيل السعيد فاتخذت أستاذا يسندنى وكنت أحس بالبرد فى أقدامى والخجل فى نفسى من رؤية الغلمان والفتيان والبنات والعذارى يتسابقون كالريح الهبوب ويرقصون على هذه المرآة الصقيلة رقصا موزونا مع نغمات الموسيقى وايقاعاتها ومنهم من كان يرسم دوائر كبيرة ثم صغيرة فأصغر وهكذا حتى يصل الى نقطة المركز ومنهم من كان يقع على قطبه الجنوبى فى هذا القطب الشمالى وأنا فى خلال ذلك أنقل رجلا بعد أن أتحقق من ثبات الاخرى مع التوثق من استنادى على أستاذى كأنى طفل قد ابتدأ فى التخطى أوفيل جسيم يسير بكل تؤدة على حافة هاوية عميقة أو على شفا

جرف هاروفى أثناء ذلك أخبرنى الاستاذ بان جماعـة من الافرنج عزموا على ايجاد محل نظير القطب الشمالى فى مصر القاهرة بدلا من المكان المصفح بالقار والاسفلت المعروف باسم (كيروسكيتنج رنك) فقلت فى نفسى لقد صدق من قال ان عقل هؤلاء القوم فى كفهم وانهم لايمتنع عليهم شئ من مستعصيات الطبيعة

التمثيل والميادين والزهريات المربعة (الاسكوير) والارصفة والقناطر

تحلت مدينة باريس مثل أكثر المدائن الاورباوية بتماثيل كثيرة لاعظم رجالها ولا أذكر الآن مافى داخل القصور والنظارات والمصالح العمومية الاميرية وديار البلدية والمتاحف وغرف الجمعيات العلمية والصناعية والتجارية وغير ذلك من دور العامة والخاصـة وانما أذكر مارأيتـه فى بعض الشوارع والميادين فمن ذلك تمثال الجمهورية وتحت أقدامها غضنفر يحمى كأس الانتخابات العمومية وعلى قاعدة التمثال رسوم بارزة تمثل أهم أعمال الجمهورية الاولى والثانية والثالثة فى فرنسا وتماثيل الحرية والمساواة والاخاء وارتفاع هذا الاثر ٢١ مترا ثم تمثال الملك هنرى الرابع وتاريخه مشهور خصوصا فى تودده للامة وتقربه من الاهالى حتى انه حينما كان

Digitized by Google

غائبا عن باريس وتمرد عليه أهلها ورفعوا لواء العصيان لبعض أمور دينية رجع اليهم وحاصرهم وضيق عليهم الحصار ولما علم بشدة الضنك الذى صاروا اليه أخذ يرسل اليهم الخبز من فوق الاسوار مع استمراره على الحصار وكان يقول انى لا أريد أن أتملكهم بالجوع فذلك مما تأباه الشهامة والفروسية ثم تمثال الجمهورية أمام قصر جمعية المعارف وتمثال الفتاة جان دارك المشهورة باخراج الانكليز من فرنسا وتمثال لويز الرابع عشر ملك فرنسا المشهور وتمثالين لفولتير وتمثال لكلود برنار وآخر لدانتى الشاعر الطليانى المخلد الذكر ولويز بلان الكاتب الطائر الصيت خصوصا بتواريخه على ثورات فرنسا وشارلمان الملك وديدرو من أكبر فلاسفتهم ورأس المؤلفين للموسوعات الفرنساوية وبيرانجية صاحب التلاحين والاغانى التى يكاد يحفظها كل فرد منهم والكساندر دوماس صاحب الروايات العديدة المترجم بعضها الى اللغة العربية وجان جاك روسو ذلك الفيلسوف العظيم الذى كان له يد طولى فى تثقيف عقول الامة وتنوير الأذهان وشاكسبير شاعر الانكليز وفيلسوفهم صاحب رواية كلوبطرة ملكة مصر وقد بلغ فيها نهاية الاجادة ولامرتين ذلك الشاعر المفلق والكاتب المجيد وكثيرا ما كتب على المشرق ومصر والدولة العلية خصوصا كتابات تسحر

Digitized by Google

العقول وتخلب الالباب وقد تولى رياسة الجمهورية وتمثال دانتون المشهور الذى حرك ساكن الوطنية فى قلوب قومه بخطبه الرنانة ومقالاته المأثورة ومن أهم كلماته قوله (لكى نقهر عدو الوطن يلزمنا الاقدام ثم الاقدام وعلى الدوام الاقدام) وهى بلغتهم فى نهايات الفصاحة مع بساطة الشكل كالسهل الممتنع عندنا وتمثال الاب دولوبى (ذى الحسام) وهو أول من عنى بتعليم الخرس وقد سبق لنا ذكره ثم تمثال الرياضى المحقق والطبيعى المدقق العلامة باسكال وقد أشرنا اليه فيما سبق وهناك تماثيل كثيرة لعظمائهم يضيق عن سردها المقام والذى يستحق التخصيص الآن هو تمثال رجل كان جاويشا فى غزوة التونكين واسمه الجاويش بوبيللو وليس فى فرنسا كلها تمثال لصف ضابط سواه وسبب عناية القوم به لهذه الدرجة واكتتابهم فى جميع اطراف فرنسا لجمع المال اللازم لتشييد هذا الاثر ان الجنود الفرنساوية حاصرهم أهل التونكين فى غابة كثيفة وأوشكوا على إبادتهم عن آخرهم لولا وجود هذا الرجل فانه تعرض لهم وفدى قومه بنفسه اذ شاغل التونكينيين بثبات جاش وجراءة حتى تيسر لقومه وجود مخرج من هذه الورطة وقد قتل الرجل فى هذه الواقعة بعد ان أبلى فى أعدائه بلاء حسنا وبهذه المناسبة

اذكر مارأيته فى تورينو والشئ بالشئ يذكر رأيت فى أحسن ميادنيها تمثال نفر من العساكر لم يحرز أدنى رتبة فتعجبت من هذه الحفاوة به واستفهمت عن السبب فقيل لى انه انقذ المدينة باسرها من اعدائها وفدى بلاده بنفسه وذلك انه لما كانت الحرب بين النمساويين والطليانيين اتفق ان أهل أوستريا فازوا على أهل تورينو والزموا جنودهم الفرار واحتلوا قلعتهم فلكى ينتقم هذا الجندى من أعدائه ويأخذ بثار وطنه أختبأ فى مخزن البارود (الجبخانة) ثم أولع فيه النار فطارت القلعة بمن فيها وهلك هو وجميع الجنود النمساويين وقد كانوا اعتقلوا بها وكان الرجل أول من مات ولكنه أنقذ حياة بنى وطنه أجمعين

أما الميادين فى باريس فكلها فى غاية الجمال ونهاية النظافة تحف بها المبانى الخطيرة والقصور الجسيمة ويبلغ عددها نحو الستين ولكنى بالمقابلة وحفظ النسبة أقول ان الميادين العمومية فى فلورانسة أكثر منها فى باريس وقد رأيت أيضا كثيرا من الزهريات المربعة (واسمها بالافرنجية سكوير لفظ انكليزى لانها من خصوصيات المدائن الانكليزية)ولها فى مصرنظائر مثل التى فى رحبة عابدين والعتبة الخضراء وميدان الاوبرا وغير ذلك وكلها مزدانة بالتماثيل والفساقى والازهار والشجيرات الغريبة والاعشاب

Digitized by Google

النضيرة وهى محط العناية التامة من ديوان البلدية لانها تساعد مثل الميادين على اصلاح الهواء وترويح النفوس وعددها ٢٥ زهرية .

أما الارصفة والقناطر التى على نهر السين فهى من أهم المتنزهات وجميع الارصفة مبنية بحجر الدستور ولها برازيق ودرابزونات عليها كثير من صناديق الخشب هى مخازن لبائعى الكتب القديمة ومتسوقى كتب (اللقطة) ولقد استغرقت منى هذه الارصفة ساعات طويلة فى أغلب أيامى واشتريت منها كتبا كثيرة باثمان زهيدة وعدد الارصفة ٣٦ وأغلبها عليه أشجار ظليلة وأما القناطر فعدتها ٢٨ ومنها ماهو مبنى بالحجر ومنها ماهو مركب من الحديد وعلى بعضها تماثيل فوق سطحها أو على أساطينها ومن المعلوم ان نهر السين يخترق باريس كهيئة قوس يبلغ طوله ١٢٠٠٠ متر إلا قليلا فتكون المسافة المتوسطة بين كل قنطرة والثانية نحو ٤٢٧ مترا تقريبا وأحسن وقت لرؤية هذه القناطر هو الليل اذ تكون مضاءة هى والارصفة بالمصابيح المختلفة الالوان وترسل النور على صفحات النهر فتكون كذهب الاصيل على لجين الماء

المطبعة الاهلية و بنك فرانسا و بنك الرهونات

لايمكن زيارة هذه المطبعة الافى يوم الخميس الساعة ٢ بعد الظهر بالضبط بعد الاستحصال على تذكرة خصوصية من المدير واذا حضر الزائر بعد الميقات المحدد لايجوز له الدخول وقد طفتها ورأيت أعمالها الجسيمة وعمالها العديدين الذين يزيدون على ١٫٢٠٠ ذكورا واناثا يقومون بكافة ماتستلزمه صناعات الكتب من سبك الحروف الى تجليد الكتب ونقش الفوتوغرافيه والرسوم على الاحجار وفى المطبعة ٢٨٨ نوعا من الحروف منها ١٥٣ خاصة باللغات الاجنبية وبواسطتها يتيسر لها طبع كتب بثمانية وخمسين لسانا شرقيا وقد ظهر فيها من الكتب والرسائل العربية أصلا وترجمة مايكاد يكون مجهولا فى بلادنا وفى فنائها تمثال لجوتنبرج مخترع الطبع

أما بنك فرنسا فيكاد يضارع مثيله فى انكلترة ولقراطيسه ثقة عامة فى جميع انحاء المسكونة وقد تزيد قيمتها فى بلاد كثيرة من أوروبا وأمريكا ومن أهم مايستوقف الانظار به بهو الذهب وهو عبارة عن قاعة طويلة مزخرفة بنقوش مذهبة وأخشاب مصنوعة باتقان واجادة وقد كانت بالقصر الذى هو فيه الآن

Digitized by Google

أيام كان سكنا لبعض أفراد العائلة الملوكية فابقاها البنك على حالها بل أجرى فيها ترميمات تزيد نفقتها عن المليونين من الفرنكات وهي معدة لاجتماع المساهمين فى بعض أيام من السنة فقط

أما بنك الرهونات فتعريب اسمه الفرنساوى هو جبل التقوى وله فروع ونظائر فى جميع أقطار الارض وفى اسمه العربى دلالة كافية على مايتعاطاه من الاعمال وفى كل سنة يباشر جردا عموميا على الامتعة والجواهر والسندات والقراطيس المالية المرهونة فيه منذ سنوات عديدة وفى هذه السنة حصلت هذه العملية المهمة ومن جملة الغرائب التى تدونت فى قائمة الجرد ستارة مضى عليها فيه اثنتان وعشرون سنة وصاحبها يجدد الرهن فى كل سنة وهذا الامر ليس فى شئ من الغرابة بجانب مطرية مرهونة فيه منذ سنة ١٨٤٩ على مبلغ ٦ فرنكات وقد أربت فوائد هذا المبلغ على ثلاثين فرنكا فتأمل

الاسواق والمطاعم ومعارض الصناعة
والزراعة ونحو ذلك

أسواق المؤنة المركزية فى هذه المدينة تشغل مسطحا من

Digitized by Google

الارض قدره ٧٠,٠٠٠ متر مربع وقد كان وضع أول حجر منها في سنة ١٨٥١ وهى عبارة عن كشكات من الحديد ليس الا يعلوها سطح من التوتيا وتحتها سراديب فيها مخازن وسكة حديدية ستتصل عما قليل بسكة حزام العاصمة وفى كل كشك ٥٢٠ دكانا وعدد الكشكات الموجودة الآن ١٠ وقد قدروا نفقات هذا العمل الجسيم بستين مليونا من الفرنكات وقد استخدموا الكهرباء فى اضاءتها بالليل منذ سنة ١٨٩١ ويوجد فى جميع أقسام باريس أسواق مؤنة ثانوية منظمة على نسق الاسواق المركزية وأحسن وقت لزيارتها ورؤية حركتها هو وقت التموّن أى فى بكرة النهار قبل طلوع الشمس وضف الى ذلك أسواق الازهار وهى تزيد على الخمسة وأسواق الاطيار وسوق الكلاب وسوق الجلود وسوق الخيول وسوق العلف وسوق البهائم (وله اتصال بالمذابح) وسوق التمپل (الهيكل) وهو فى يد قومبانية ومسطحه ١٤١١٠ أمتار وفيه ٢٤٠٠ دكان تباع فيها جميع الاصناف

أما المطاعم المعروفة باللوكاندات فهى كثيرة جدا ومنها مايكون الاكل فيه بثمن محدود أو بحسب قيمة كل صنف على حدته ومنها ماقد تبلغ الغدوة والعشوة فيه ثلاثين وأربعين وخمسين

Digitized by Google

ومائة فرنك ومنها مالا تتجاوز الاكلة فيه ثلاث فرنكات أو اثنين بل وأقل من ذلك وأغلبها مزخرفة مضاءة بالكهرباء وفى كثير منها خلايات منعزلة يدخلها الرجال مع بعض النساء ومنها ماهو مخصص لصنف واحد من المأكولات وبعضها يكون مفتوحا طول الليل وغير ذلك وأغلب القهاوى ومشارب الجعة (البيراريات) والخمارات تقدم الزاد لمن أراد والذى ينبغى ذكره بنوع التخصيص فى هذا الباب هو مطاعم دوفال فقد بلغنى ان هذا الرجل كان قصابا (جزارا) ثم كانت تتأخر عنده اللحوم فيبيعها بأبخس الاثمان أولا يجد لتصريفها من سبيل فخطر على باله أن يتخذ مطعما يشوى فيه هذه اللحوم ويبيعها بثمن بخس للآكلين فشرع فى العمل وأقبل عليه الدهر فتوسع فى هذا الموضوع حتى صارت مطاعمه مقصودة من العامة والخاصة يتقاطر عليها الاكابر والاصاغر وذلك لبخس الاثمان وزيادة العناية وجودة المأكولات مع زخرفة الاماكن واضاءتها بالكهرباء وادارة هذه المطاعم الآن فى يد قومبانية من المساهمين وقد بلغ عددها فى أول يناير سنة ١٨٩٢ ٢٦ خلاف فندقين كبيرين وخلاف المخازن العمومية ومعمل الفطير والمغسل ومخازن الانبذة وعددها أربعة منها واحد فى بوردوو خلافه دكاكين الجزارة فى ثلاثة شوارع واذا توجه الانسان الى مطعم من

هذه المطاعم فى وقت الظهر أو بعد المغرب رأى منظرا غريبا اذيرى كتائب الخادمين مسرعين مهرولين وجيوش الآكلين متشدقين ماضغين بالعين مع المواظبة على الشراب الحلال والحرام والداخلين أكثر من الخارجين ويكون المكان بهذه الخلائق المتموجة أشبه باحد شوارع لوندرة وعلى ذكر لوندرة أقول انى أتعجب كل العجب من عدم مجيء هذه الفكرة لرجل من أبناء بريطانيا العظمى فانها أشبه بما صنعه كوك وهو يتلى وغيرهما والاغرب من ذلك انه لم يقم للآن رجل من الانكليز بعمل يضارع هذه المطاعم فى « موسوعات الدنيا » بل قد نسجت قومبانية باريسية أخرى على منوال دوفال وأنشأت أربعة مطاعم وفندقا بقهوة ومطعم فى أهم شوارع باريس ودروبها وهى وان كانت فى درجة من الرفاهية وحسن الحال لكنها لاتضاهى نجاح مطاعم دوفال - والعادة فى هذا النوع من المطاعم أن يعطى للانسان عند دخوله قائمة مطبوعة فيها الاثمان فقط ومتى طلب صنفا أشر الخادم أمام الثمن المقرر له حتى اذا فرغ الآكل توجه بهذه القائمة الى أمين الصندوق وأنقده المطلوب ثم ردها عند الخروج للعامل الذى أعطاها له عند الدخول

أما معارض الصناعة فلها فيما أرى غايتان أولاهما تنشيط

Digitized by Google

الصناع وحثهم على التفنن والاختراع وثانيتهما تعريف الاهالى بما ينجم عن ذلك من الفائدة والاقتصاد والحصول على أمور قد تطلبها النفس من غير أن يقدر اللسان على التعبير عنها لعدم سابقة العلم بها ولذلك أنشأت مدينة باريس كشكا على حافة نهر السين يعرف باسمها وتأتى الجمعيات الحرفية والطوائف الصناعية لعرض مصنوعاتها فيه والمباراة لحيازة شهادات الشرف ووسامات الافتخار من أعضاء مجلس المحلفين الخبيرين المعينين لكل نوع واتفق انه فى اثناء وجودى بباريس كان الدور لمتعاطى صناعة لحم الخنزير فتوجهت الى الكشك حبا بالاستطلاع ورأيت فيه الموسيقى العسكرية تصدح بالحانها المطربة وأعمال الصناع معروضة على الانظار بتأنق وتجمل بحيث كانت تستوجب إعجاب القوم وتستدعى شهيتهم فينظرون اليها نظرا متواليا و يبلعون ريقهم ثم يقصدون الحانات فتعاطون المشروبات فكأنهم حينما أطربتهم نغمات الموسيقى تصوروا انهم أكلوا من هذا الصنف المستطاب لهم ورأوا من الواجب اتمام القصف بمعاقرة بنت الكرم وسأتكلم فيما بعد على هذا المعرض بتفصيل يشفى الغليل — ثم جاء الدور للطحانين فافتتح مؤتمرهم باحتفال عظيم كان رئيسه وزير التجارة ومعه كثير من كبار الموظفين فى نظارته

ورئيس جمعية الطحانين بفرنسا - ثم معرض جمعية المشتغلين بتربية الازهار ثم معرض دولى للاطيار ثم غير ذلك من المعارض التى لا يسعنى سردها الآن وكلها تتجدد فى كل عام مع زيادة فى التفنن والاغراب - وكل واحد من هذه المعارض يبتدئ باحتفالات باهرة وينتهى بولائم فاخرة

ضواحى باريس

لا تخلو عاصمة من ضواحى يقصدها أهل الثروة وطالبو النزاهة لترويح النفس من ضوضاء المدائن الكبيرة ولكنى لم أزر من ضواحى باريس سوى فَنْسَنْ وفرساى فأما مدينة فنسن (وسكانها ٢٢,٢٧٨) فما تستحق الذكر لولا الغابة الجميلة التى بها والقلعة المهمة المنيعة المعروفة باسمها وقد زرت هذه القلعة بتصريح خصوصى ورأيت غرف التعذيب وآلات العذاب والمكان الشاهق الذى هرب منه الدوك دوبوفور وقناة السين التى كانت ترمى بها جثة المعذب بعد ان يسقى كأس الحمام وغرفة سجن بها أحد القساوسة ٧ سنوات وأخرى اعتقل فيها أحد الكرادلة ٧ شهور ولكن ذلك كله أصبح أثرا بعد عين وصار كاداة ملغاة لا عمل لها حتى انهم قد سدوا فوهة البئر الموصل لقناة السين وقد

Digitized by Google

يبلغ غلظ الحائط فى أعالى هذه القلعة ثلاثة أمتار ورأيت خزائن السلاح ولكنها ليست شيأ مذكورا بجانب مارأيته فى برج لوندرة وحصن دوفر من أعمال انكلترة وأما الغابة ومنتزهاتها وبحيراتها وجزائرها وخلاويها فسأتكلم عليها فى الرحلة مع الالماع بشئ الى غابة بولونيا والبوت شومون وغير ذلك

أماقصر فرساى فقد كان مقر ملوك فرنسا وهو فى منتهى الجلالة والفخامة بحيث لايكاد يعادله شئ مما رأيته وقد حوى صور جميع ملوك فرنسا ومشاهيرها على الجدران والرخام والقماش وغير ذلك بغاية الابداع ونهاية الاتقان ومن أراد ان يقف على تاريخ فرنسا فى سويعات قليلة فما عليه الأن يتطر الرسوم التى أزدانت بها غرفه فانه يرى فيها جميع وقائعها وأعمالها وكل مايتعلق بتاريخها ومما استوقف انظارى بنوع خصوصى صورة الشيخ السادات والسيد البكرى والشيخ الشرقاوى وغيرهم من أكابر مصر أيام دخلها بونابرت وقد رأيت أسرة ملوك فرنسا وأثاثاتهم وأمتعتهم الخاصة بشؤنهم الداخلية ورسوما تمثل الحروب الصليبية وحروب افريقية والقرم وايطاليا وغير ذلك مما لايدخل تحت حصر واحفظ لنفسى حق الكلام عليه وعلى الروض الانيق والفساقى البديعة وعربات

الملوك التى بقصر اخر بجواره يعرف بـ(التريانون) وغير ذلك مما يضيق عنه نطاق هذه الاوراق

أهل باريس

اف لك ياباريس وألف أف فقد أعيانى فيك الوصف واضطرتنى كثرة مافيك من المآثر والمفاخر وتعدد المشاهد والمعاهد للأطالة فى المقالة بما ربما يوجب الملالة والكلالة مع انى لم أغترف للقارئ الاقطرة من بحرك ولم أروحه الابنفحه من زهرك ولايزال مجال الكتابة واسعا امامى فسيحا لجولان اقلامى ولكننى لاأرى مندوحة عن اقفاله الان لافتتاحه بعد القفول الى الاوطان وأختم هذه الرسالة بذكر كلمات عن أهلك واخلاقهم وحركتهم ونشاطهم وافكارهم وآرائهم فقد آن لى ان أقدمهم الى بنى مصر بناء على ماحققته بالاختبار وعرفته بعد بعض المعاشرة حتى انى لاأرى وصفا يصدق عليهم أكثر مما قاله أحد ولاة قرطبة فى أيام الاسلام بعد ان تخلى عن ادارتها فانه وصف أهلها بالقيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضى بامورهم كالجمل ان خففت عنه الحمل صاح وان أثقلته به صاح فلا يدرى أين رضاه وفى ذلك دليل على ان أفراد الانسان مهما كانت بلادهم قاصية وعاداتهم

متباينة وطبائعهم متخالفة وأقاليمهم متنوعة ومعتقداتهم متباعدة فلاتزال فى أفكارهم وحدة تجمعهم وفى نفوسهم حاجات مشتركة بينهم

وأهل باريس أكثر من رأيتهم من الامم نظرا فى الفرق الحاصل بين أفراد الهيئة الاجتماعية فانهم يرون الوضيعين كثيرين والرفيعين قليلين والواصلين الى ذروة النعيم عندهم يسير فيقولون لم هذا الاختلاف ونحن كلنا متساوون وابناء نوع واحد تجمعنا راية الجمهورية وقد كتبت عليها هذه الكلمات (حرية - مساواة - إخاء) ولما انتشر التعليم فيما بينهم ونفذت أشعته بين لفيف المتناولين الحرف الدنيئة منهم تصور هؤلاء الافراد أنهم يعرفون أكثر مما يعلمون وصاروا لايقيسون أنفسهم بمن هو أعلم منهم بل ينظرون الى من هم أحط فى الدرجة فداخلهم الاعجاب بنفوسهم حتى خيلت لهم الخيلاء أنهم أهل للكلام فى كل موضوع وان لهم الحق فى الحل والعقد فى جميع المسائل على اختلاف طبقاتها وأخذوا يجاهرون باللوم والتأنيب ويقولون انهم لو كانت الامور بايديهم لكانت مساعيهم أحمد عاقبة وأعمالهم أتم فائدة ولذلك تشعبت أفكارهم وكثرت مقالاتهم فى حل المسئلة الاجتماعية وترتيب نظام الجمعية البشرية على أسلوب يفى بجميع

Digitized by Google

الحاجات فيقول فريق منهم (اننا لانطلب شيأ ما من أحدما
ولاحاجة لنا بكائن من كان فلماذا لايتركنا الغير نعيش ممتعين
بالحرية راتعين فى بحبوحة الاستقلال . أليس من المستغربات
الزامنا بدفع الضرائب والغرامات من المال الذى جمعناه بكدنا
وسعينا بحجة القيام بنفقات يسمونها عمومية وهى لاتهمنا
ولاتعنينا . أليس ان مانكسبه بعرق جبيننا ملك حلال لنا
فلماذا يضطرنا الغير لبذله فى إغناء الغير) ويقوم فريق آخر
يعضده و يقول (ليت شعرى هل كتب علينا التعب والنصب
لاجل ان نحمل ثمرة اتعابنا الى مأمور التحصيل لاغناء المميزين
وهم عدد قليل لعمرى انه لاحاجة لنا فى ان يتحلى رئيس الشرطة
وصاحب العسس باشرطة من القصب والذهب أو ان يكون
لحضرة المدير عربات تجرها الجياد الصافنات) فيقوم فريق آخر ويقول
(انى لاأكثر الندب على المال فانه لامراء ان رئيس الشرطة
وصاحب العسس لايمكنهما ان يتفرغا للزراعة والصناعة بينما هما
آخذان فى تعقب اللصوص وقطع دابر قطاع الطريق ولذلك فانه
ينبغى لنا ان نكسوهم ومن رأيى ان شرائط القصب والذهب
ليست من الزيادات والنوافل لانها تحدث الهيبة ولاألوم المدير
على اتخاذ الخيول فانه يجب عليه قطع المسافات الطويلة لتفقد

Digitized by Google

أحوال مديريته ولكن الذى لايمكننى ان أتحمله أو أرضى به هوان القوم يفدون علينا فى كل عام وينتزعون منا زهرة الشبان ليدخلوهم فى سلك الاجناد والاعوان . . . . الله الله أليس من أشنع الامور وأبشع الاعمال سوق أولئك الفتيان الى سوق المذبحة الذى يسمونه بالحرب فلماذا نحارب ولماذا نضارب أليس ان الاولى ان نلبث فى ديارنا بسلام وأمان منقطعين لحرث الارض وحمل المحصول الى السوق ومعاملة كافة الناس بالتى هى أحسن) فيقوم فريق آخر ويقول (نعمت هذه الافكار وياحبذا هذا الرأى لو كانت الناس كلهم عقلاء وقائمين برفع منار العدل فيما بينهم . قولوا الحق أفلو اعتدى جاركم على قيراط من أرضكم أماتقوم القيامة لعمرى أنكم تشرعون الاسنة وتقضى بكم الحال الى اهراق الدماء ألا نعمت الحرفة حرفة الجندى يذود عن حياض وطنه ويحمى أهل بلده فان ذلك من أوجب الواجبات اذ من المنازعات مالايجدى فيها التحكيم بل التحكيم ومنها لاينجح فيها المُدافع الا اذا صاح بافواه المدافع) ثم تتشعب أفكار كل فريق ويستحسن بعضهم مايقبحه الآخر ويأتى هذا ببعض التعديل وذاك بشئ من التبديل .

ولهم مثل ذلك فيما يتعلق بالنواب عن البلاد فيقول بعضهم (انى لاأرى الفائدة التى تعود علينا من اختيار رجل يذهب الى

مجلس النواب لينوب عنا وليشتغل بمصالح البـلاد وذلك لوجوه أولها اننا نجرى فى هـذا الانتخاب كالعميان الذين لايهتدون الى الطريق فان القوم يقولون لنا هذا الرجل يصلح وذلك الرجل لايصلح ونحن نجهل حقيقة الاثنين فى أغلب الاحوال وكل منهما يشنف أسماعنا بما يخرجه من وطابه من مستعذب المقال ويعدنا بانه يوصلنا الى تمام السـعادة ولكن أين منا الماهر الذى يقـدر على تمييز البواطن من الظواهر وتعرف الخبيث من الطيب فانى اذا توجهت الى السوق أقـدر على تمـييز الحبوب الجيـدة والاثمار الصالحة ولكننى أقول الحق انى فى اختيار النائب لاأعرف ماذا أنا صانع ولا أقدر أحكم عليه مثل حكمى على غيره من الاشياء التى لى بها تمام الخبرة فان حضرة شيخ البلـد (أمين المـدينة) يوزع علينا قوائم الانتخاب ويقول لنا ان فلان هـو الحائز لكافة الاوصاف اللازمة و ينبغى انتخابه ومن رأيى ان ينفرد أمناء المدن بعملية الانتخاب فان رأيهم هو الغالب وحينئذ يتم هذا الامر فى وقت قصير وفى اختصار الزمن فائدة عظيمـة) فيقول فريق آخر (متى عجز الانسان لاى سبب من الاسـباب عن مباشرة شـؤونه بنفسه فالواجب عليه أن ينيط واحدا غيره يختاره لها فاذالم يكن

عنده من المعلومات مايكفى لهذا الانتخاب يجب عليه الاسترشاد برأى حكيم ناصح يثق بقوله ويعول على رأيه وحينئذ يكون له يد فى ادارة أحوال بلاده ويداخله السرور بأن له كلمة معدودة وصوت معتبر) فيقول فريق آخر (كل ذلك حسن ولكنى أرى ان أمور البلاد وادارة شؤنها تصلح كثيرا اذا كانت فى يد رجل واحدا يحكمها بحسب ماأوتى من الحكمة فانه متى كان الحاكم واحدا كانت مصلحته الشخصية أكبر قاض عليه فى ادارة الامة على أكمل منوال حتى يتقرب اليها ويتحبب منها ومن المقرر الذى لايختلف فيه اثنان غرق السفينة التى فيها ريسان وقد رأيت فى بعض الايام عربة يجرها ستة من الافراس قد ارتبكت فى طريق كثر وحله ووعثاؤه فتقدم لانقاذها كثير من الناس وبعضهم يدفع العربة ذات اليمين وآخر ذات اليسار وبعضهم يشدها من الخلف بينما نفر يجرونها من الامام ويجىء جماعة فيفوقون السياط على الخيول وهى لاتزداد الا حرنا وتعاصيا وفى أثناء ذلك تزداد العربة غوصا فى الوحل وارتطاما ولما رأى سائق العربة هذه الحالة أبعد جميع هؤلاء الناصحين الغير ناصحين ونظم خيوله بجانب بعضها ثم استوى على كرسيه وهمهم على الخيل من غير أن يرفع عليها سوطه فعرفت صوته وجمعت قواها ثم نهضت بحملها الثقيل نهضة

Digitized by Google

واحـدة استخلصت العربة من الاوحال وسارت تركض بها فى أحسن حال فهكذا تكون ادارة الاعمال) فيقوم فريق آخر ويقول (انما أفلح سائق العربة لمهارته وحسـن ادارته ومعرفته بمهنته ولان خيوله كانت قادرة على جر حملها والا لو كان فـوق طاقتها لما قدرت أن تقوم به أبدا ولكن الرجل لو كان غير كفؤ لوظيفته لاشك انه كان يعتبر نفسه سعيدا من وجود ناصحين له صادقين فى خدمته يعاونونه على الخروج من مثل هذه الورطة بسلام بل ربما كان يشكر العناية الصمدانية اذا كانت قيضت له فى مثل هذه الحال رجلا أقدر منه على قيادة العربة وخيولها فكان يلقى اليه بالزمام ليتعلم منـه كيف تكون الادارة فى المسالك الحرجـة والمواقف الوعرة ولو كانت خيوله لاقبـل لها بجر العربة فهل كان يرفض نصيحة العقلاء الذين يشيرون عليه بتخفيف الحمل أو تمهيد الطريق امام العجلات وازالة ما يعترضها من الاحجار والموانع الاخرى فلذلك لا ينبغى الاستخفاف بالمشورة فان من انفرد برأيه زل ومن استغنى بعقله ضل وما خاب من استخار ولاندم من استشار)

هـذا مثال من ألف مثال مما رأيتـه من حركة الافكار ولا أود الاطالة بشرح أفكار القوم فى المسئلة الاجتماعيـة

Digitized by Google

وهيجانهم الى درجة لايتصورها العقل وسأشرح ذلك فى الرحلة بالتفصيل وأطلع قومى على غرائب هؤلاء الاقوام والله المستعان

الرسالة الاخيرة من الرسائل المؤتمرية

(وداع باريز وذكر الاندلس والبرتقال

بوجه الاجمال)

من غرناطة فى يوم الاثنين المبارك ٥ رجب الفرد سنة ١٣١٠ - ٢٣ يناير سنة ٩٣

قضت نواميس الكون الانسانى ونظامات الوجود العمرانى وداع باريس بان دوام الحال من المحال وانه لابد من الفراق مهما طال التلاق وان لكل اجتماع انقطاعا ولكل اتصال انفصالا تلك سنة الله فى خلقه جيلا فجيلا ولن تجد لسنة الله تبديلا

أطلت المقام فى باريز الى مابعد الميقات الذى كنت ضربته لبراحها بايام كثيرة فاننى كنت كلما عزمت على السفر رأيت وجوب التأجيل وعدم التعجيل لمناظرة بعض الآثار أو لشهود أنواع من الإحتفال أوغير ذلك ممايستوقف الراحل ويستغرق الاوقات ويحبس السائر عن عدوه ويخرس الطائر المفصح بشدوه فكم فيها من مسارح تنفسح بها الجوانح ومحاسن يشغل بها عن وكره

Digitized by Google

السانح ومطارح تطرح ذكر الوطن من ذاكرة السائح حتى
اعترانى الكلال والملال من كثرة مارأيت وما سمعت وصرت
أترقب الفرص لتيسر الخروج من هذه الدار كما دخلتها بسلام
فيسر الله الاسباب وفتح الابواب فودعتها فى منتصف ليلة ١٩
الى ٢٠ نوفبر سنة ٩٢ ورحلت عن هذه الارجاء المتالقة والروح
بها وبمن فيها متعلقة ثم سار القطار ينهب الارض نهبا ويقطع
الفيافى فدفدا بعد فدفد ومر على كثير من مدائن فرنسا العامرة
مثل نوروهى مشهورة باعتدال اللسان الفرنسوى وصفاء اللغة
حتى ان أكثر الطالبين لابد لهم من الاقامة فيها شهورا طويلة
لترسخ فيهم ملكته التى لاتشوبها ادنى شائبة ومثل انجوليم
المذكورة فى كتب العرب باسم انقلزم ومثل بوردو المشهور شهرة
تغنى عن وصفها وقد سماها العرب بحسب التسمية اللاتينية
برديل وبردال (وبالذال المعجمة فى كلتا اللفظتين)

وكان بودى أن أقف بكل من هذه المدائن الثلاث بضعة أيام
ولكن وقتى لم يكن يسمح لى بانالة نفسى هذه الامانى ولم أصل
الى تخوم اسبانيا الا بعد أن أمضيت فى القطار مدة أربع
وعشرين ساعة لم تكتحل فيها عينى باثمد الكرى حتى أجهدنى
السير وأضنانى السرى ولكننى تجددت فى القوى حينما شممت

عبير الاندلس واستنشقت نفحاته وتمتعت بالنظر الى صافى سمائه وقد ترصعت بالدرارى كما هو الشأن فى بلادى وأرض مهادى بخلاف ما كنت قد اعتدت عليه فى انكلترا وباريز من كدورة الجو وقتم السماء وتوالى الغيوم وتعاقب الامطار فصرت اسامر بدر السماء واطارح الكواكب الحديث واشكو اليها مالاقيته فى غربتى واطيل النظر اليها حتى لقد كان

يخيل لى ان سمر الشهب فى الدجى * وشدت باهدابى اليهن اجفانى

التحسر على الاندلس

وحينئذ شطحت مع تيار الافكار ولكننى مالبثت ان انقبض صدرى وعلتنى الكآبة وتولانى الانزعاج اذ أحاطت بى جيوش من اللوعة والاسف والحسرة واللهف لاننى تفكرت مانال الاسلام من العز والاقتدار فى هاتيك الديار أيام كانت تخفق فوق الاندلس اعلامه وتجول فيه أقوامه ناشرة ألوية الفخار والحضارة رافعة رايات المجد والكرامة أيام كانت المآذن قائمة على أعاليه وروابيه تشق أكباد السحاب ويرتفع منها صوت المؤذن الى عنان السماء فتخشع القلوب وتعنو الوجوه لذكر الحى القيوم أيام كانت المساجد عامرة بجماعات الموحدين القانتين وربوع العلم زاهرة زاهية بالدارسين والمدرسين أيام كان التمدن العربى

Digitized by Google

باسطا بساطه من اطرافه الى اطرافه والمروءة والشهامة ساريتين في جسمانه أيام كانت خلافة المغرب تفوق مناظرتها في المشرق بما احتاطت به من أسباب البذخ والعظمة والعرفان حتى كانت ملوك أوربا تتزلف الى الخلفاء وتلتمس رعايتهم وحمايتهم أيام نبغ العلماء والمخترعون والمكتشفون الذين افادوا العالم باجمعه ورفعوا كلمة الاسلام وجاؤا باقوم برهان على ان الدين الحنيف يساعد بكلياته وجزئياته على البحث في اسرار الطبيعة وانه يحض على اقتناء ثمرات المعارف بجميع أنواعها ومطالبها (ومازلنا الى الآن نقتبس أنوار الهدى من مؤلفاتهم القليلة التي استبقتها يد الصدفة فنجت من التبديد والتمزيق وسأشير الى بعضها في الرحلة)

وقد اشتدبي الوجد والوله حتى عدمت التعبير وغاب عقلي وما ابصرت نفسي والا لساني يندفع بترديد بعض أبيات من القصيدة المشهورة التي نظمها أبو البقاء الرُندي في رثاء الاندلس وقد ترجمت نثرا ونظما الى اللغة الالمانية والفرنساوية والاسبانية وغيرها وكنت أكثر من ذكرى هذه الابيات بحسب ورودها على لساني

لكل شيء اذا ماتم نقصان * فلا يغر بطيب العيش انسان
هي الامور كما شاهدتها دول * من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لاتبقي على أحد * ولايدوم على حال لها شان
فجائع الدهر أنواع منوعة * وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يسهلها * وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له * هوى له أحد وانهد ثهلان
أصابها العين فى الاسلام فارتزأت * حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ماشان مرسية * وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم * من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه * ونهرها العذب فياض وملان
قواعد كن أركان البلاد فما * عسى البقاء اذا لم تبق أركان
أتى على الكل أمر لا مرد له * حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك * كما حكى عن خيال الطيف وسنان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها * وما لها مع طول الدهر نسيان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف * كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية * قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما * فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة * حتى المنابر ترثى وهى عيدان
يا غافلا وله فى الدهر موعظة * ان كنت فى سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحا يلهيه موطنه * أبعد حمص تغر المرء أوطان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة * كأنها فى مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة * كأنها فى مثار النقع نيران

Digitized by Google

وراءه عين وراء البحر فى دعة * لهم باوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس * فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم * اسرى وقتلى فما يهتز انسان
ماذا التقاطع فى الاسلام بينكم * وأنتم يا عباد الله اخوان
ألا نفوس أبيات لها همم * اما على الخير انصار واعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم * أحال حالهم جور وطغيان
بالامس كانوا ملوكا فى منازلهم * واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم * عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم حين بيعهم * لهالك الامر واستهوتك احزان
يارب أم وطفل حيل بينهما * كما تفرق أرواح وأبدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد * ان كان فى القلب اسلام وايمان

استمرار الحسرة

وصرت أردد هذه الابيات وغيرها حتى وصلت مدينة ايرون Irun أول تخوم اسبانيا من الشمال فنزلت بها وقد انتصف الليل وما صدقت الوصول الى الفندق حتى اضطجعت على الفراش طلبا للراحة الضرورية ولبثت به على خلاف عادتى الى أن قرب الظهر ولم أستيقظ الا على جلبة الاطفال وصياحهم فى لعبهم ولهوهم بترنيمات تكاد تنطبق على وزان هذين البيتين

شرد النوم عن جفونك وانظر * حكمة توقظ النفوس النياما

حرام على امرئ لم يشاهد * حكمة الله ان يذوق المناما

فقمت فزعا مرعوبا وأنا أقول أين هذه الحكمة ولماذا ورد هذا البيت على خاطرى مع ان القصائد التى من بحره كثيرة ثم تذكرت ان السبب فى ذلك ما كنت فيه بالامس فهرعت الى الخروج لانظر البلد ومافيه وماحواليه فرأيت المبانى والنوافذ والاسطحة تشبه ماعهدته طول عمرى فى مصر وكذلك الحارات والزقائق وغير ذلك

معرفة النحو لاتغنى

وقد كنت وأنا فى باريز درست نحو اللغة الاسبانية للاستعانة على مخاطبة القوم ومبادلة أفكارى معهم مباشرة ولكننى لما حضرت ايرون وتكلمت مع أصحاب الفندق وخصوصا مع الدليل تحقق لى ان درس النحو شئ ومعرفة اللسان شئ آخر وحينئذ زال ما كنت أجده من الغرابة من كون بعض الناس يقضون سنين طويلة مديدة فى درس النحو بجميع فروعه ثم هم لايعرفون من العربية سوى هذه الآلة

احتباك الحيرة والهوس بالوطن

وأقول الحق انى لما رأيت اضطرارى لمخاطبة القوم ساعة بالايطالية وتارة بالفرنساوية وغالبا باللغة الاشارية التى يفهمها جميع أصناف بنى آدم تراخت عزيمتى وثبطت همتى وهممت بالرجوع من حيث أتيت وخصوصا لما كان يقوم بفكرى من ان أهل الاندلس الآن أشد أهل الارض تعصبا على المسلمين

Digitized by Google

وكراهـة للعرب وجفوة للغريب مع ماهم فيـه من الهرج الدائم
على حكومتهم مما كنت قرأته حديثا فى التلغرافات وانا فى باريز
فضلا عما رأيته فى كتب السياحات من التشنيع عليهم وتخويف
الغريب من الدخول الى ديارهم ولما كان حب البقاء طبيعة فى
الانسان وان الحياة غالية خصوصا عنـد الوشوك على الوقوع فى
الخطر مع اشتداد الحنين بل الوله بالرجوع الى الوطن بعد طول
الغيبة كادت هذه الافكار واضرابها تفوز على ماعندى من الشوق
لرؤية هذه البلاد الجميلة وتعهد بقايا العرب فيها فتذكرت حينئذ
المثـل السائر (من لم يركب الاهوال لم ينل الرغائب) وانشـدت
على نفسى لاحياء مائت قوتى قول الشاعر

التغلب على الصعوبة

ان كنت تطلب عزا فادرع تعبا * أو فارض بالذل واختر راحة البدن

فتجددت فى عوامل القوى وانبعثت فى جسمانى روح النشاط
وتذكرت انى أكون أول من زار جميع الاندلس من المسلمين
والمصريين خصوصا من ابناء هذا الجيل وكتب ماراه فيها وقارن
بين حالتيها وفى ذلك فخر عظيم

ومن يجد الطريق الى المعالى * فلا يذر المطى بلا سنام

زيادة بعض المدن

ولذلك توكلت على الله وقمت من ايرون الى فنترابيا Fontarabia
الى سان سيبستيان San Sebastian الى بنبلونة Pamplona

Digitized by Google

وتسمى فى قليل من كتابات العرب بعفلونة وقد حكمها المسلمون اثنتى عشرة سنة فقط وهى أنظف مدينة رأيتها وجميع شوارعها وحاراتها وأزقتها تضاء بالنور الكهربائى ثم الى سرقسطة Zaragoza (Saragosse) وقد

مدينة سرقسطة والجمعية العلمية

نزلنا بها نبغى المقام ثلاثة * فطابت لنا حتى أقمنا بها عشرا

فانى النيت بها من كرم أهلها وحسن مجاملتهم وكريم توددهم ما كاد ينسينى الاخوان وقد اطلعت فيها على كتب عربية نادرة جدا وتعلمت فيها الكلام الاسبانى

ثم ان جمعية العلوم الشرعية والادبية Academia Juridico-literaria عينتنى عضوا افتخاريا بها واحتفلت بى احتفالا فائقا وعقدت جلسة مخصوصة لاستقبالى بغاية التكريم والترحيب فخجلت ان أدخل بينهم خالى اليدين لا أقدم لهم موضوعا فى هذه الحفلة المهمة والهمنى الله ان أكتب لهم خطبة باللغة الفرنساوية على مدينتهم فى أيام العرب فاستعنت ببعض الكتب القليلة التى وجدتها عند المشتغلين بالعربية من اساتذتها وببعض ما عن بالخاطر وقدمت لهم خطبة فى ١٥ صحيفة من الورق الكبير المعروف بالفولسكاب المستعمل فى الدواوين وقد راقت لديهم حتى طنطنت الجرائد بها وذكرت هذا الاحتفال بالفاظ التبجيل والاجلال وقد أرسلت نسخا من هذه الجرائد الى العاصمة لبعض اصدقائى وقد ترجم كثير منها

Digitized by Google

خطبتى الى اللغة الاسبانية على ما علمته بعد قيامى من سرقسطة
وان الجمعية شرعت فى طبعها فى مجموعتها وقد أتحفنى أكثر
المؤلفين والعلماء بكتب كثيرة من تأليفهم وخلاصة القول ان
هذا اليوم كان من أسعد أوقاتى وانى أحمد الله على هذا التوفيق
الذى مكننى من تشريف اسم بلادى وقد أجابوا على خطبتى
بالاسبانية والفرنساوية والعربية والطليانية والسبب فى ذلك
انه قد اتفق فى بعض الايام انعقاد جلسة الجمعية الشهرية
فدعانى حضرة رئيسها الافتخارى وهو العلامة پابلو خيل
D. Pablo Gil مقدم الاساتذة فى المدرسة العالية للفلسفة
والاداب لان أزورها فتوجهت بصحبته وأجلسنى على يمينه
وبعد ان تمت أعمال الجمعية قدمنى اليها ثم دعانى لان أخطب
عليهم بشئ مما يفتح الله به علىّ واذلم يكن لى سابقة علم بهذا
الامر وقفت فيهم وحييتهم بالعربية ثم خاطبتهم بالفرنسوية
بكلام طويل ولما جلست طلبوا منى ان أتكلم بالطليانية ففعلت
وحينئذ قام الرئيس الحقيقى وطلب من الجمعية تعيينى عضوا
افتخاريا بها فاجابت بالاجماع ثم عينوا جلسة غير اعتيادية
لاستقبالى وحينئذ أشار علىّ الرئيس الافتخارى بان أشكر
الجمعية باللغة الاسبانية فامتثلت مع قلة البضاعة وكنت حينما

لاأجد اللفظ المطلوب أضع مكانه كلمة طاليانية أو فرنسوية ولو شئت ترجمة ماذكرته الجرائد عن هذا الاحتفال لاستغرق رسالة أكبر من هذه الرسالة

فأما الخطبة التى أجاب بها بالاسبانية الاستاذ المتضلع العلامة خوليان ريبيرا D. Julian Ribera فكانت كلها دررا وغررا تشهد بمزيد اطلاعه على العلاقات العلمية الادبية التى كانت بين المشارقة وخصوصا المصريين وبين أهل الاندلس وسأورد ترجمتها فى فرصة أخرى ويحق لى أن أوردهنا الخطبة العربية التى ألقاها أثناء الاحتفال أحد اعضاء الجمعية وهو الدون سان بيو D. San Pio الذى تلقيت عليه اللغة الاسبانية وهاهى بنصها الفائق

«بالنيابة عن جميع اخوانى سلام عليك ياأيها العلامة المصرى»
«أحمد زكى أفندى بودى أن ألقى الآن خطبة ولكنى مثل»
«أيوب قد ازدحمت علىّ الافكار وقد دعانى اخوانى أن أقول شيأ»
«بلغتك الفصحى فاقتصر على ايراد بعض جمل من الكتاب المقدس»
«يخرجك الرب الى مصر فى سفن واذكر مالاقيته فى هذه»
«المدينة والقادر الكافى يبارك لك فى السفر والاقامة والسلام»

وقد اطلعت فى مكتبة الدون پابلو خيل المذكور على كتب عربية

Digitized by Google

اللغـــة الاعجمية الاندلسية

كثيرة وأغلبها باللغة التى يسمونها الخميادو Aljamiado وذلك لان العرب لما انقرضت دولتهم بالاندلس وبقى بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم نسوا أو ألزموا باهمال اللغة العربيـة وصارت اللغة القشتالية أى الاسـبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وسموها الخميادو ووجه هـذه التسمية ان العرب يسمون كل ماليس بعربى أعجميا وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أى الاسبانية باسم (الاعجمية) ثم انتقلت هـذه اللفظة الى اللغة الاسـبانية بغـير حرف العـين لعـدم وجود مايقابله فى اللغات الافرنكية فصارت الكلمة مقابل هـذا الصوت (ألاجاميا) ولما كان أهـل أسـبانيا يقلبون أغلب الجيمات خاآت كما سـنبينه قالوا (ألاخاميا) أو (أَلْخَميا) ورسموها بحروفهـم هكذا بعـد ان سكنوا حركة اللام (Aljamia) وعلامة النسـبة عندهم do توضع فى آخر الكلمة فلذلك قالوا Aljamiado اى «الاعجمى»

تحـريف الكلمات العربية

واليك الشواهـد على قلبهـم الجيم خاء فانهـم يقولون فى الجام «الفاخى» وفى عـلم الجـبر «الخبرا» وفى الجص «الخيذ» وفى الجب بمعنى الصهريج والجابيـة «الخيبى» وفى الحاجـة بمعنى أمتعة البيت «الهاخا» وفى الجعبة «الخابا» وفى الجفنة

Digitized by Google

« الحفنا » وفى الجرس « الخرذ » وفى البرتقال « نارنخا »
من قول العرب نارنج وفى محل سجن النصارى عند عرب
الاندلس « ساخينا » من قول العرب سجن وفى الترنجة «ترنخا»
وفى الجوهر « الخوفر » وفى الجبة « الخوبا » وفى المنجنيق
« المنخنيكى » وللجيفة « خيفا » وتاريخ الهجرة «هخيرا»
ولخنزير الجبل أو الحلوف «خبلى» من قول العرب جبلى * هذه
بعض ألفاظ علقتها أثناء تلقى اللغة حتى انى لاحظت دوران هذا
الحرف فى غالب كلماتهم الافرنجية التى يكون فيها شين أو جيم
أو سين بحيث لو سمعهم رجل من أهل المزاح لاستمنح من القارئ
السماح وقال ان لغة القوم تدور على حرف الخاء

ولقد سمعتهم فى بعض الاحيان يقولون الخثيرا Aljecira فسألت
عن ذلك فاعلمونى بانها الجزيرة الخضراء وحينئذ تشوقت لان أعرف
كيف يسمون بلاد الجزائر فان الفرنسويه يقولون الجيرى Algérie
والطليانية الجريا Algeria ولكننى حمدت الله حينما رأيتهم قد قلبوا
فيها وضع الحروف فجعلوا الراء مكان اللام وقالوا أرخليا ولم يقولوا غير
ذلك . . . وقد لاحظت بعض ألفاظ تنافى هذه القاعدة فيقولون
فى الخزانة «الاثينا» بمعنى الخزانة المنقورة فى حائط البيت وفى الخروع
«تشرفا» وفى طير الخطاف «فاتكسا» وفى المسجد «مسكيتا» وفى الخزاز

«المفرين» بياء ممالة وفى المخدة «الموهادا» وفى تصغيرها «الموهاديدا» وفى النخاع «الموكانى» من قول العرب المخ وفى الخبازى «الهبازى» وفى البطيخة «البوديجا والبوديكا وباديهاو باديا» وفى الخرشوف «الكتشوفا والكرتشوفا» وفى البخور «البافور» وفى الخروب «الجروبا» وفى الخزامى «الهوثيما» وفى المخزن «المائن» وهو اللفظ الشائع و يقولون فيه أيضا «المجائن والمارثن ومجاثن» والسخرة بمعنى العونة «اذوفرا» والزرنيخ «اذرنيقى» بياءين ممالتين والرخ فى لعب الشطرنج «روكى» وفى الشيخ «كسيكى» بياءين ممالتين وفى الخزأى الحرير «التشز» وفى الخياط «الفيات» هذا بعض مالاحظته وسألم فى الرحلة بشئ كثير من قواعد التحريف عندهم فهلا من المستغرب بعد ذلك انهم يقولون ان كلام العرب كله يشبه هذه الاصوات «خبط خبط خبط»

وقد زرت جميع آثار سرقسطة العربية وغير العربية وصعدت الى قمة البرج المائل الذى يشبه برج كنيسة بيشة وهو من صنع الاعراب المرتدين وقد شرع القوم فى تقويض دعائمه خوفا من سقوطه ثم خرجت منها شاكرا أفضال أهلها مرددا ثنائى عليهم وعلى أخلاقهم الزكية و زرت قسطجون Castejon وميرندة Miranda ثم برغش Burgos وكنائسها المشهورة وقد رأيت

تجول فى بعض المدن

فى احداها لواء فى غاية الابداع والجمال أخذه الاسبانيون من العرب فى واقعة العقاب التى سأذكر عنها شيأ يسيرا فى هذه الرحلة ثم زرت آبلة Avila ثم مدريد Madrid (وتسمى فى كتب العرب القديمة مجريط (١) وقد رأيت جميع مافيها من المتاحف والمعارض ولاقيت علماءها وكبراءها ووزراءها واجتمعت بصاحب السعادة طرخان بك سفير الدولة العلية الذى كان واليا على جملة ولايات مهمة من قبل مولانا الخليفة الاعظم أدام الله نصره ورفع كلمته وقد رأيت فيه رجلا عالما بالسياسة والقوانين والنظامات وفيه من الوطنية وحب الاسلام مالم أجده فى غيره الى الآن ويسرنى أن أقول ان له مقام كبير فى نفوس كبراء اسبانيا والاسرة المالكة باسرها وله تمام الاطلاع على اللغة التركية والفارسية واليونانية والفرنساوية والاسبانية وله المام عظيم بالالمانية والارمنية وبعض العربية وانى أتمنى من صميم فؤادى ان يكون جميع نواب الدولة العلية أيدها الله فى جميع الممالك الاوربية على شاكلته فانما تعلو الدول بنوابها وتعرف قيمتها بمندوبيها وقد أكثرت فى مدريد من زيارة المعرض الاوربى الاسبانى الذى أقيم احتفالا بمهرجان كرستوف كولمب وذلك لانى رأيت فيه كثيرا من الآثار العربية الاندلسية التى تبعث فى النفس فخارا وفى القلب احزانا ورأيت لواء

مدريد ومقابلة سفير الدولة العلية

(١) مجريط بفتح الميم كما ضبطه ياقوت فى معجم البلدان

Digitized by Google

عربيا يشبه لواء برغش تمام المشابهة وبجانبه لواء آخر مما أخذه
الاسبانيون من العرب وقد رأيت فى القسم المخصص للطوبجية
المدافع التى سبق الى اختراعها أهل غرناطة لصد عدوهم عنهم
ورأيت غير ذلك مما لاتمكن به الاحاطة الآن وكنت أكثر من
زيارة التياترات فى كل ليلة لاتقان اللغة ولانها فى مدريد مدرسة
حقيقية لاخلاق القوم وعاداتهم حتى انى أثناء التشخيص كنت
أتصوّر نفسى فى بعض الشوارع أوفى احدى القرى ثم زرت

طليطله

طليطلة Toledo وتسمى عند العرب مدينة الاملاك أى الملوك
لكون اللاتينيين كانوا يسمونها بذلك أيضا (Urbs Regia) وكانت
تسمى عند الرومانيين كذلك Toletum وبالتصغير Toletula
ومنه الاسم العربى طليطلة وقد ورد اسمها فى قليل من كتابات
العرب توليطُه مثل التسمية الاسبانية ويقول مؤرخو العرب ان
معنى توليطُه بلسان قيصر «انت فارح» فاذا هى مدينة عربية محضة
لم يعتورها الى الآن أدنى تغيير ولا أتذكر أن مدينة فى مصر حفظت
هذا الشكل العربى المعهود كما بقى فيها الى الآن مع توالى الازمان
وتبدل الاحوال فلا تزال شوارعها وأزقتها متعرجة ملتوية ملتفة
صاعدة نازلة حتى يخالها الانسان أشبه شئ بتلك الحشرة المعروفة
بام أربعة وأربعين وقد رأيت فيها من آثار العرب ماينطق بفضلهم

Digitized by Google

ويحترمن كل متعصب عليهم ثم رجعت الى مدريد . وبعد أن أطلت دخول مملكة البرتقال الاقامة فيها توجهت الى بلاد البرتقال Portugal «هذا هو اسمها في كتب العرب لابورتغال أو بغير واو» وزرت عاصمتها المعروفة بلسبون Lisbonne (Lisboa) التي يذكرها العرب باسم لشبونة واشبونة والاشبونة وقد بدأت بزيارة حضرة قنصل جنرال الدولة العلية وويس قنصلها ورأيت آثارها العربية وغير العربية وفي ثاني يوم من وصولي وردت لي تذاكر من الجمعية الجغرافية بالتحية والسلام وبوضع مكتبتها ومتاحفها ومعروضاتها وغرفة السلاح والنشان والبلياردو وغير ذلك تحت تصرفي فزرتهم وشكرتهم واستفدت كثيرا من لقائهم وقد زرت المكتبة الاهلية ومدرسة المهندسخانة ومعرض التاريخ الطبيعي وكل ماقدرت عليه ورأيت من أهلها حفاوة تخلد لهم الثناء على صفحات الفؤاد ثم زرت مدينة شنتره Cintra ورأيت حصون العرب على قمم الجبال وبجانب بعضها مسجد باقية آثاره للآن وعلى مقربة منه قبر دفن فيه القوم عظاما وجدوها ولم يعلموا انها للمسلمين أو للنصارى فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب وصورة الهلال ثم رجعت الى اشبونة وزرت فيها القسم الذى كانت تسكنه العرب وكان يعرف عندهم باسم الحمة «بتشديد الميم» ويسميه البرتقاليون الآن من باب

البرتقال وذكر لشبونة وشنترة

التشرف بمقابلة جلالة الملك

التحريف « الفاما » وقد تشرفت فيها بمقابلة جلالة الملك فأكرم وفادتى وأحسن لقائى ولبثت مع جلالته مدة طويلة ثم خرجت شاكرا جليل رعايته وهذه المدينة لها موقع من أجل مواقع الدنيا يشبه أو يفوق موقع جنوة ونابولى و يقرب من القسطنطينية على ما سمعت ومنظرها يشبه المدائن الشرقية .

الفول المدمس بأوروبا

ومما يحسن ذكره من باب التفكهة انى خرجت ذات يوم فى بكرة النهار لاتفرج على حركة المدينة فى مبدئها ومن جملة ما رأيت فيها كثيرا من النساء يسارعن فى حركاتهن وهن حفاة الاقدام وعلى وسطهن حزام كبير بارز بروزا شديدا عن بقية الجسم بخلاف بقية الافرنجيات فانهن يبذلن غاية جهدهن فى تنحيل الخصر وترفيعه ومما امتاز به هؤلاء النساء فى البرتقال انهن يضعن فى أعناقهن قيطانا يتدلى الى حد وسطهن و ينتهى بصليب كبير من النحاس وفوق رؤوسهن قطعة من القماش ملتفة على بعضها مثل الحواية ويحملن عليها شيأ شبيها بطست نحاسى مفرطح جدرانه مرتفعة قليلا ورأيت احداهن تصيح بكلام لا أفهمه فتشوفت لاستوقفها وأعرف ما معها فسألت الدليل ذلك ولكنها لما نظرت الى حالتنا وهيئتنا توسمت أننا ممن لا يشترى مما معها فهمت بمغادرتنا ولكننى أظهرت لها قطعة من الورق قيمتها نحو

Digitized by Google

قرش صاغ فوقفت وفرجتني على ما فى الطست واذا به الفول
المدمس ففرحت به كثيرا ووطنت نفسي على أكلة مصرية فى
بلاد أوروبا ثم استفهمت عن الاسم فاذا هو Fava Rica
أى الفول الغنى ولما رجعت الفندق أوصيت صاحبه على أن
يستحضر لى فى صباح اليوم الثانى مقدارا من هذا الفول الغنى
وقد كان غير أنى اردت أن تكون الاكلة مصرية محضة وعلى
الاسلوب المتبع عند عموم المصريين فلبثت فى غرفة النوم
وأقفلتها بعد أن استحضرت البصل حتى لا أكون مثل بنى اسرائيل
حينما خرجوا من مصر ولم يجدوا البصل فى التيه فتأسفوا عليه
والهفوا ثم انى تمتعت بهذا الفطور والحق يقال أكثر من جميع
أيام سياحتى فى أوروبا

مدينتى قلمرية

ثم قمت من الاشبونة الى مدينة كويمبرا Coïmbra المعروفة
فى كتب العرب باسم قلمرية وهى الآن دار العلم ومحط المعارف
فى بلاد البرتقال وقد رأيت مدارسها الجامعة ومتاحفها
وبستان النبات البديع فيها وبعد انطفت على معظم آثارها
قمت الى مدينة بورتو Porto واسمها فى كتب العرب برتقال
وبها يسمى هذا القطر برتقال كما نقول نحن الآن طرابلس

وبرتقال

وحاضرتها طرابلس وتونس وحاضرتها تونس وكما نقول بنى سويف وبندرها بنى سويف والفيوم وبندرها الفيوم والمنيا وبندرها المنيا وهكذا فى أسيوط وقنا وكما كان الشان فى القليوبية وجرجا والمنوفية قبل أن ينتقل مركز المديرية الى بنها وسوهاج (المعروفة عند العرب بسوهاى) وشبين الكوم وساورد فى الرحلة نصوصا عربية معتبرة تكاد تكون مجهولة للدلالة على صحة هذا الاسم (برتقال)

وقد رأيت فى مدينة البرتقال هذه آثارا كثيرة ولكن العرب لم يخلفوا فيها شيأ يذكر لانهم كانوا يجيؤنها فاتحين ثم يجوزونها الى غيرها من البلاد ولم ترسخ فيها قدمهم غير انى رأيت دار البورصة فيها وهى من الفخامة والجلالة بمكان قد تألف التجار على انشائها على الطراز العربى ونقشوا أكبر بهو فيها بحسب الاسلوب العربى وزينوه بالزخارف وكتبوا فى ضمن رسومها البديعة أشعارا عربية سأوردها فى الرحلة وفى جميع الطرازات هذه العبارة ﴿عز لمولاتنا السلطانة مريم ٢﴾ يريدون عز لمولاتنا السلطانة مريم الثانية

إشكال على الفول المدمس

وقد عن لى وأنا فى هذه المدينة أن أمتع نفسى بأكلة ثانية من الفول الغنى (أى الفول المدمس) فأوصيت صاحب الفندق أن يستحضر لى جانبا من هذا الطعام اللذيذ حتى أتغدى به فى وقت الظهر وأوصيته أيضا على استحضار الزبد والبصل فنظر الى نظر المستغرب

وقال كيف يمكن الغداء بالفول الغنى والبصل والزبد فقاطعته وقلت له هذه ارادتى وما عليك الا الاجابة فامتثل غير قادر على اخفاء زيادة الاستغراب ثم توجهت لزيارة الآثار وغير ذلك حتى جاء وقت الظهر فأسرعت الى الفندق وأنا أتلذذ مقدما بأكلة الفول الغنى التى أعددت نفسى لها فى هذا اليوم السعيد حتى انى لم أتناول شيأ من الزاد فى الصباح وقد صعدت فى الحال الى غرفة نومى فوجدت صينية عليها شئ كثير من . . . . . من . . . . . من الخروب فدققت الجرس بعنف وشدة لكثرة مااعترانى من الغيظ والحنق فحضر الخادم فقلت له ماهذا الذى فعلت يداكم فقال انما أجبنا أمرك وأحضرنا الفول الغنى فكررت الاستفهام فقال لى هذا هو الفول الغنى بعينه فنزلت لصاحب الفندق وباحثته فى هذا الموضوع وأعلمته بمقصودى الذى رأيته بكل انشراح فى مدينة الاشبونة فأدرك السر وقال لى ياسيدى أهل پورتو يسمون الخروب فولا غنيا ولا يعرفون ذلك الصنف الموجود فى أشبونة بل انهم يتهكمون على الاشبونيين لكونهم يسمون الفول المصنوع بهذه الكيفية فولا غنيا مع انه هو الخروب للمشابهة بين قرن الخروب وقرن الفول ولما كان فى الخروب مميزة على الفول دعوه بالفول الغنى ولهم الحق (وليتنبه القارئ الى انه منهم فلذلك هو يصوب رأيهم) وهذا

Digitized by Google

مادعانى للاستغراب حينما طلبت منى فى الصباح أن أحضر لك غداءك من الفول الغنى مع الزبد والبصل * فانشرحت من هذا الشرح مع انى انقبضت للحرمان من أكلتى المصرية والاضطرار للأكل على المائدة العمومية بالطريقة الافرنكية ولكن هى السياحة يرى فيها الانسان مايسوء ومايسر

ثم خرجت منها قاصدا شلمنقة[1] Salamanca من بلاد اسبانيا ولم أتعرض لتعلم اللغة البرتقالية خوفا من الاختلاط ولكنى لاحظت كثرة تردد الفاء والشين والراء فيها فمثال الفاء الخروب يسمونه الفروب والبحيرة يسمونها البفيرة والصهريج يسمونه زفريش ويسمون نوعا من الاغطية والفراء يعرف عند العرب بالحنبل بقولهم « الفامار » وهذه الكلمة الحديثة الآن مأخوذة من الكلمة البرتقالية المهجورة المحرفة عن العربية مباشرة وهى « ألفمبره ويسمون الجس « ألفس » والهدية « الفدية » والحرمل وهو

لغة البرتقال والتحريف فيها

(١) هذا هو اسمها الحقيقى فى كتب الجغرافية العربية القديمة وابن الاثير فى حوادث سنة ١٤٠ فى الجزء الخامس وقد وهم صاحب دائرة المعارف حيث سماها سلمنقة بالسين المهملة ثم خلط بينها وبين بلد أخرى اسمها طلمنكة فقال انه اسمها فى بعض كتابات العرب والصواب غير ذلك فان طلمنكة Talamanca بليدة فى ولاية مدريد فى وسط الاندلس كانت من أعمال طليطلة فى أيام العرب وأما شلمنقة فهى فى الشمال من ولاية جليقية التى قد يسميها العرب غليسية Galicie

السذاب البرى «الفرما» وفى الحلاوة «الفلووا» ويقولون فى الجبة الفاما والخياط يسمونه الفيات وأمثال ذلك كثيرة لاأطيل بها الآن وأما الشين فان معظم السينات التى فى اللغات الافرنجية يقلبونها شينا ولعل ذلك هو السبب فى ان العرب نطقوا باسماء البلدان التى فيها سين بالشين والامثلة كثيرة يعرفها من له أقل اطلاع على جغرافية هذه البلاد فى كتب العرب وأما الراء فهى كثيرة جدا خصوصا مع الشين حتى تكاد لغتهم بسببها تشبه اللغة النمساوية ولكن الخاء معدومة بالكلية

ذكر النقود باسبانيا والبرتقال

وهنا أذكر أمرا غريبا وهو انى لما كنت فى سرقسطة توجهت فى صباح يوم وصولى الى أجمل دكان للزين فيها وبعد ان حلقت ذقنى وأصلحت شعر رأسى وضمخته بانواع الخلوق المستعملة عندهم سألت الرجل عن الاجرة فقال لى ٣ ريالات فبهت فى قلبى وأسفت على مجيئى اليه ولكننى تجلدت وأظهرت تعارف الجاهل بعكس أهل البديع الذين يظهرون تجاهل العارف ثم قلت وهو كذلك ودفعت اليه ورقة قيمتها ٢٥ فرنكا فردّ لى ٢٤ فرنكا وربعا فعلمت ان الريال عند أهل اسبانيا يساوى جزأ من عشرين منه عند أهل بلادنا بل هو أفضل من القرش الصاغ بقليل ولكننى لما جئت الى بلاد البرتقال

ونزلت فى لشبونة اكتريت عربة أوصلتنى الى الفندق ولما نزلت منها سألت ترجمان الفندق عن الاجرة فقال لى ٦٠٠ ريال فقلت فى نفسى هذه هى الطامة الكبرى وكيف أتظاهر الآن بتعارف الجاهل وليس معى ورقة تساوى هذه الثروة الجسيمة ومع ذلك تجلدت وصبرت على مضض الايام واتقيت الله لعله يسهل لى سبيل الخلاص من هذه الورطة فقلت له بصوت مبحوح « وهو كذلك خذ النقود من صاحب الفندق » وصعدت الى غرفتى أضرب أخماسا لاسداس

ولما أصبح الصباح كان أول شئ طلبته هو الحساب فجاءنى بعشرات الآلاف فقلت وأنا خائف واجم وكم يساوى هذا كله من الفرنكات فقيل لى ان الفرنك مائتا ريال فكدت أخر لله ساجدا وصرفت الغلام لاتضرع بالشكر منفردا وقد قاسيت كثيرا من اشتداد الازمة المالية على هذه البلاد حتى انى كنت أصرف الفرنك الصحيح المعتبر بمائتى ريال وبمائة وتسعين وبمائة وثمانين وبمائة وسبعين بل وبمائة وستين فى قلمرية وعرفت ان هؤلاء القوم يلزمهم عدد كبير لقيمة قليلة

العودة الى الاندلس — ولما توالت هذه الخسائر المالية استخرت الله فى الرجوع الى الاندلس ووصلت شلمنقة ورأيت آثارها ومدارسها فانها فى اسبانيا

مثل قلمرية فى البرتقال ورجعت منها الى مدريد (١) فأصابتنى النزلة الوافدة واشتدت علىّ وطئتها حتى كدت أيئس من الحياة لولا مداركة كثير من أصحابى وأصدقائى وعناية الاطباء بشأنى وقد كان صاحب السعادة طرخان بك طلب من البطانة الملوكية تشرفى بمقابلة جلالة الملكة وأجيب السؤل ولكن المرض كاد يحول بينى وبين هذا الشرف الاسنى غير ان الله سبحانه وتعالى رأف بى فخفف النازلة عنى وبذلك تيسر لى مقابلة جلالة الملكة فلاطفتنى وتعطفت علىّ كثيرا وتكلمت معى فى اشتات العلوم والادبيات حتى بهرتنى من كثرة اطلاعها ودار الحديث كثيرا على اللغة العربية وآثار العرب باسبانيا وبغيرها

مقابلة جلالة ملكة الاندلس

---

(١) عقد العلامة أحمد فارس المشهور فصلا فى كتاب الجاسوس على القاموس أشار فيه الى بعض انتقادات جغرافية على الفيروزابادى بمناسبة ذكره لبعض بلدان الاندلس فى قاموسه وقد وقع صاحب الجاسوس نفسه فى وهم أرى من الواجب اصلاحه فى هذا المقام وبيان ذلك ان المجد ذكر بلدا اسمه النبرة وقال انه من عمل ماردة فجاء صاحب الجاسوس (صحيفة ٣٠) معقبا لهذه العبارة بالتفسير قائلا (أى مدريد) وأقول ان ماردة Mérida بلد ومدريد بلد آخر وماردة فى الجنوب الغربى بقرب بطليوس Badajos على تخوم البرتقال ومدريد فى الوسط وماردة كانت بلدا مشهورا جدا فى أيام العرب ولا يزال فيه الى الآن آثار جليلة تشهد بفخامته بخلاف مدريد فانها عند العرب مجريط وكانت فى أيامهم عبارة عن حصن ليس الا

واستطالت المقابلة مدة تنيف على العشرين دقيقـة وكان معى حضرة السـيد المفضال والامير الكريم طرخان بك وسأذكر فى الرحلة ما دار بيننا من الحديث وقد خرجت من بين يديها شاكرا أفضالها على هـذه المقابلة الجليلة وقد أخـبرنى كثير من أهل البطانة وخصوصا صاحب السعادة طرخان بك بانها أكثر من المعتاد بكثير فشكرت الله ثم لبثت بمدريد (١) ريثما تعافيت قليلا من النزلة الوافدة التى ضربت فيها أطنابها الآن وحينئـذ أمرنى الاطباء بالتوجه الى بعض البلاد الحارة فى جنوب الاندلس والعبور منها مباشرة الى مصر متى ظهرت آثار الصحة وعاودتنى العافية

مدينة اشبيلية

فقمت الى اشبيلية Sevilla التى كانت تسمى أيضا بحمص وقد

---

(١) اعلم اننى تفرجت فى مدريد ثلاث مرات على مقاتلة الاثوار المعروفة عند الفرنساوية باسم Combat des Taureaux و Course des Taureaux وعند الاسبانية باسم Corrida de los Toros وقد عرفت جميع تفاصيلها وقوانينها وشهدت غرام الاسبانيين رجالا ونساء بها الى الدرجة التى لا يكاد يتصورها العقل بحيث ان المقاتلين يعتبرون من من أهم رجالهم ومن أحب الناس الى الامة التى تجل ذكرهم الى حد يحسدهم عليه سراة القوم وأماثل الاماجد وانى أؤخر شرح ذلك الى فرصة أخرى لما يستوجبه من زيادة البيان مع ما فيه من الطلاوة والمباحث الرائقة وانما أقول الآن ان أهـل الاندلس كانوا مولعين بهذا القتال أيضا وكانوا يضارعون الاسبانيين وربما كانوا يفوقونهم

Digitized by Google

زرت جميع آثارها ودارا للقطاء فيها وكنائسها وصعدت الى قمة المنارة الاسلامية الفخيمة البديعة التى كانت فى أحد المساجد فاصبحت الآن مقرا للناقوس وزرت القصر الذى أنشاه الاسلاميون فأنسانى كل ما رأيته من العمائر الجميلة والآثار الجليلة التى رأيتها فى أعظم مدائن أوروبا وقد وقفت فيه متاهفا وكنت كذلك الشاعر الذى قال

قلت يوما لدار قوم تفانوا * أين سكانك العزاز علينا

فاجابت هنا أقاموا قليلا * ثم ساروا ولست أعلم أينا

ومن غريب ما فى اشبيلية ان جميع دورها وقصورها لها فى وسطها فناء فى غاية الاتقان مغروس بزاهر الاشجار ومحفوف بفائق العمدان وفوقه رواق مثل ماهو معروف فى الاسكندرية باسم الحضير وعليه عمدان وحنايا مثل التى فى الفناء ولقد تحسنت صحتى باعتلال هوائها حتى صدقت من انشاء مشببابها

هواؤها فى جميع الدهر معتدل * طيبا وان حل فصل غير معتدل

ماان يبالى الذى يحتل ساحتها * بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل

ولا غرو فقد اشتهرت باعتدال الهواء وحسن المبانى وهى واقعة على النهر الشهير المعروف بالوادى الكبير Guadilquévir يصعد المد فيه ٧٢ ميلا ثم ينحسر ولذلك قال شاعرهم

Digitized by Google

شق النسيم عليه جيب قميصه * فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها * هزا فضم من الحياء ازاره
ولقد صدقت حينما حللت فيها قول بعض واصفيها

ان شرفها غابة بلا أسد ونهرها نيل بلا تمساح

وهذا الشرف المذكور هو اقليم من أعمالها كائن على تل عال من التراب الاحمر ومسافته ٤٠ ميلا فى مثلها يمشى بها السائر فى ظل التين والزيتون

واعلم ان الاسبانيين والافرنج يرسمون اسم هذه البقعة هكذا Axarafe و Aljarafe وهو الآن فى الجغرافية الجديدة لتلك الاقطار عبارة عن البلاد التى فى قسم سان لوكار لامايور أى سان لوكار الكبير San Lucar la Mayor وبعض القرى التابعة لمدينة اشبيلية ثم خرجت من هذه المدينة الجميلة قاصدا غرناطة Granada (Grenade) وأنا أردد قول الشاعر فيها

ذكرتك يا حمص ذكرى هوى * أمات الحسود وتعنيته
كأنك والشمس عند الغروب * عروس من الحسن منحوته
غدا النهر عقدك والطود تا * جك والشمس أعلاه ياقوته

مدينة غرناطة وقصر الحمراء

وصرت أثناء الطريق أمر على بلاد وقرى كثيرة تذكرنى ما عهدته فى بلاد المشرق وخصوصا المنارات التى كانت قائمة بجانب الجوامع فصارت مجاورة للصوامع ومآذن المساجد التى أصبحت نواقيس

Digitized by Google

للمعابد وصرت أتذكر مجد العرب وعظم دولتهم حتى وصلت غرناطة المعروفة قليلا باسم اغرناطة ويسميها العرب دمشق من باب التشبيه وقد وصلت الى مالم تكد تصل اليه مدينة ما فانها حينما استولى الافرنج على معظم بلاد الاندلس انتقلت اليها بقايا المسلمين فصارت المصر المقصود والمعقل الذى تنضوى اليه العساكر والجنود حتى بلغ عدد فرسانها وحدها ٥٠٠٠ ورجالها ٣٥٠٠٠ من غير ضواحيها وأعمالها فقد كانت جيوشها تبلغ بهم ٢٠٠٠٠٠ يخرجون للقتال من أهل غرناطة والبشرات Alpujarrat (Alpuxarat) ووادى آش Guadix وقد رأيت أن أختم رسائلى المؤتمرية فى هذه المدينة التى كانت آخر ملاذ للمسلمين وقد وصلتها بالليل ونزلت فى فندق واشنطون وقد علمت فيما بعد من أهل التحقيق والمعرفة انه قائم على نفس مكان المقبرة الملوكية التى كانت ملوك المغرب تدفن بها ويسميها ابن الخطيب التربة

وقد عجلت بالاضطجاع بعد ان تناولت شيأ من الزاد وحينئذ ذهب عنى الرقاد لهجوم الافكار وتذكر ما وقع بتلك الاعصار والتفكر فى أحوال الدنيا وتقلبها باهلها حتى أثقلنى السهر وبرح بى التعب فاغمضت الجفون وما استيقظت الا على تجاوب الاطيار فوق أغصان الاشجار كانها تقول لى

تنبه فقد شق النهار مغلسا * كمائمه عن نوره الخضل الندى

Digitized by Google

مداهن تبر فى أنامل فضة * على أذرع مخروطة من زبرجد

فقمت ونظرت الى الرياض وغابات الاشجار وتدفق المياه فقلت لله در الشاعر فى وصف مثل هذه المناظر

رياض تعشقها سندس * توشت معاطفها بالزهر

مدامعها فوق خدى ربا * لها نظرة فتنت من نظر

وكل مكان بها جنة * وكل طريق اليها سقر

ولكنى تذكرت قول الوزير ابن عبدون الاندلسى ولا غرو فان أقوال الوزراء وزراء الاقوال

يا نفحة الزهر من سرالك وافانى * خلوص ريالك فى انفاس آذار

والارض فى حلل قد كاد يحرقها * توقد النور لولا ماؤها الجارى

والطير فى ورق الاشجار شادية * كأنهن قيان خلف استار

ثم طفت بالحمراء Alhambra وقصرها ومساجدها وساحتها ونقوشها ورسومها وزخارفها التى تذهب بالجنان وتأتى بالجنون فوقفت باهتا حائرا فاقدا اللب والرشاد من هذا الاتقان الذى لم يكن يخطر على قلبى مع ما سمعته عنها من الاوصاف وما شاهدته من غرائب المبانى فى غير هذه الدار حتى لقد اشتد بى الهيام وكنت

أمر على الديار ديار قومى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبى * ولكن حب من سكن الديارا

ثم خرجت منها وأنا أخاطبها بقول الشاعر

Digitized by Google

وقفت بالحمراء مستعبرا * معتبرا اندب اشتاتا
فقلت يا حمرا الا فارجعي * فقالت وهل يرجع من ماتا
فلم ازل ابكي وابكي بها * هيهات يغني الدمع هيهاتا
كانما آثار من قد مضى * نوادب يندبن امواتا

وعند الباب قدموا الى دفتر الزيارات فكتبت هذه العبارة التى املاها الخاطر واليد مرتعشة والفؤاد واجف والعين باكية

أحقا هذه الحمرا أحقا أنني فيها

لله هذه القصور وهذه الدور ولله قوم خلدوا فخرهم على مدى العصور بهذي آثارهم الباقية تنطق بعظمتهم الفائقة وتنبه الغفلان الى بقاء الملك الديان وأن كل من عليها فان وتذكر بني الانسان بوجوب التعاون على البر والاحسان والتباعد عن التخاذل فهو الخسران ويرحم الله عبدا رأى فتذكر ونظر فاعتبر

أحمد زكى

مندوب الحكومة المصرية
فى مؤتمر المستشرقين التاسع بلوندرة

يوم الثلاث ٧ رجب الفرد
سنة ١٣١٠ (٢٤ يناير سنة ١٨٩٣)

Digitized by Google

ثم انتقلت من الحمراء وزرت اسوار المدينة وأبراجها وبعض مناراتها وكثيرا من قصور ملوكها ويعلم الله انى مارأيت فى طول سياحاتى شيأ أدق واتقن وأجل وأكمل مما رأيته فى هذه المدينة حتى لقد رأيت ان المقرى لم يقرب من الحقيقة حينما مدح غرناطة اثنا وصفه للاندلس بقوله

هى جنة الدنيا التى * قد أذكرت دار المقامه
لاسيما غرناطة الـ * غراء رائقة الوسامه
بروائها وبمائها وهوا * ئها النهافى الوخامه
ورياضها المهتزة الاعـ * طاف من شدو الحمامه
وبمرجها(١) النضر الذى * قد زين الله ارتسامه
وقصورها الزهر التى * يابى لها الحسن انقسامه

ولقد كانت غرناطة لايعدلها فى داخلها وخارجها بلد من البلدان

---

(١) مرج غرناطة يعرف عند الافرنج بهذا الاسم La Vega وهى كلمة اسبانية معناها المرج ومن الغرائب ان الدون اجيلاذ Eguilaz وهو من أعيان أهلها ومن نبهاء المشتغلين بالآداب والآثار العربية قد أطلعنى على صورة إله مصرى طولها ٨ سنتيمترات ومنقوشة بالحروف الهيروغليفية وأخبرنى ان أحد الفلاحين قد عثر عليها فى المرج أثناء الفلاحة وتقليب الارض فنبهته الى وجوب الاعتناء بهذه المسئلة وموالاة البحث لما وراء ذلك من الفوائد التاريخية التى لاتنكر كما علمت ان القوم عثروا بمدينة برشلونة على آثار مصرية كثيرة

Digitized by Google

ولايضاهيها فى اتساع عمارتها وطيب قرارتها وطن من الاوطان ولايأتى على حصر أوصاف جمالها وأصناف جلالها قلم البيان وكانت فى آخر الامر قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها ويقول كتاب العرب ان خارجها لانظير له فى الدنيا وهو مسيرة ٤٠ ميلا يخترقه نهر شَنِّيل (Jenil (Xenil المشهور وسواه من الانهار الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لامثيل له بسواها ويعرف عند المؤلفين الاسبانيين بهذا الاسم Aindamar محرفا عن اللفظ العربى

وما زلت اتردد بين هاتيك الديار واجوب تلك المعاهد وأنا أرى فى كل حجر وفى كل جدار آية ناطقة بعظمة هذه الامة ومجدها وقد جرنى ذلك الى ذكر بعض أمور مما يدل على بلوغ أهل الاندلس أرقى ذروة من ذرى النعيم وتانقهم وترفههم للدرجة التى ليس بعدها مطلب أوغاية

لمع من تأنق الاندلسيين

فمن ذلك ان اعتماد زوجة المعتمد وأم أولاده المعروفة بالرميكية رأت ذات يوم باشبيلية نساء البادية يبعن اللبن وهن رافعات عن سوقهن يخضن الوحل والطين فقالت له اشتهى ان أفعل أنا وجوارى مثل هؤلاء النساء فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد

Digitized by Google

وصير الجميع طينا فى القصر* وجعل لها قربا وحبالا من ابريسم وخرجت هى وجواريها تخوض فى ذلك الطين الثمين وانالت النفس مناها ثم اتفق بعد خلعه انه حصلت بينهما منافرة كما يحصل عادة بين الازواج فقالت له والله ما رأيت منك خيرا فقال لها ولا يوم الطين تذكيرا به هذا اليوم الذى أباد فيه من الاموال ما لا يعلم مقداره الا الله فاستحيت واعتذرت وسكتت .

وقد مدح بعض الشعرا يعقوب أمير المؤمنين بالاندلس بقصيدة فيها ٤٠ بيتا فأعطاه على كل بيت ألف دينار

وكان بعض ملوكهم اذا جاءته رسل من اعدائه يأمر فى الحال باصطناع برك وحولها أساد وأشجار وازهار كلها من الفضة الخالصة والذهب النضار ترهيبا لهم وايقاعا للرعب فى قلوبهم من غير ان يشافههم بكلمة واحدة فينال من ملوكهم كل ما يرتضيه .

وقد كان عبد الرحمن بن الحكم أمير الاندلس كثير الميل الى النساء وولع بجارية له اسمها طروب وكلف بها كلفا شديدا واتفق انها غضت الطرف عنه ذات يوم وقابلته بالصد والاعراض وقصرت فى مقصوراتها فأرسل يترضاها وهى لا تزداد الا اصرارا على الجفاء حتى أرسل الخصيان يغصبونها على الخروج فغلقت الابواب فى وجوههم فذهبوا الى الخليفة يستاذنونه فى اقتلاع الباب فأمرهم بان يسدوه ببدر من الدنانير يرصونها عليه رصا ثم جاء بعد ذلك

يترضاها بنفسه ويعتذر اليها ففتحت الباب وانهالت عليها الاموال فقال لها كل هذا المال لك دون سواك ثم اعطاها حلية قيمتها مائة ألف دينار فقيل له ان مثل هذا لا ينبغي ان يخرج من خزانة الملك فقال ان لابسه أنفس منه خطرا وأرفع قدرا واكرم جوهرا وأشرف عنصرا وفيها يقول

اذا ما بدت لى شمس النها * رطالعة ذكرتني طروبا

ومن ذلك ان محمد بن عامر المنصور وزير الاندلس المشهور صنع قصرا من فضة صافية واهداه للسيدة صبح البشكنشية أم الخليفة هشام وحمله على رؤوس الرجال فجلب حبها بذلك وقامت بامره عند سيدها الخليفة الحكم حتى قال الخليفة لبعض خواصه ان هذا الفتى سلب عقول حرمنا بما يتحفهن به

ومن ذلك ان الحكم ثالث خلفاء الاندلس كان له خاصة ألفا فرس مرتبطة على شاطئ النهر بقبلي قصره تجمعها داران

والاعجب من ذلك ما رواه المؤرخون من ان الخليفة عبد الرحمن الناصر المشهور أراد الفصد ذات يوم فجلس في البهو الكبير المشرف بأعلى مدينة الزهراء واستدعى الطبيب لذلك وأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر فبينما هو كذلك اذ أطل زرزور فصعد على اناء ذهب بالمجلس وأنشد

أيها القاصد رفقا * بأمير المؤمنينا
انما تقصد عرقا * فيه محيي العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف أمير المؤمنين ذلك غاية الاستظراف وسر به غاية السرور وسال عمن اهتدى الى ذلك وعلم الزرزور فذكر له ان السيدة الكبرى جرجانة أم ولده وولي عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك واعدته لمثل هذا اليوم فوهب لها ماينيف على ٣٠ ألف دينار.

تقدم الاندلسيين

وأمثال هذه الوقائع أكثر من ان تذكر وأقول ان أول تبليط حصل بالمدائن كان فى قرطبة وكذلك الانارة العمومية بالليل قبل ان يعرف ذلك أحد من أهل الارض قاطبة فقد كان السائر يمشي فيها وفى أرباضها على ضوء السرج المتصلة مسافة ١٠ أميال

معارف الاندلسيين

وأما رسوخ قدمهم فى العلم والعرفان فأمر يشهد به العدو والصديق ولا أذكر منهم الآن سوى أبي القاسم بن فرناس فانه أول من استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك كتاب العروض للخليل وأول من فك الموسيقى وقد صنع فى بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والرعود والبروق وصنع الالة المعروفة بالمنقالة ليعرف الاوقات على غير رسم ومثال

Digitized by Google

وقد احتال فى الطيران فكسا نفسه بالريش واتخذ جناحين وطار فى الجو مسافة بعيدة ولكنه لم يحسن الاحتيال فى السقوط فتأذى اذ غفل عن اتخاذ الذنب ولم يتنبه الى ان الطائر انما يقع على زمكاه

أسوة حسنة للمصريين

ومما ينبغى ذكره فى هذا المقام ان القوم ماوصلوا الى هذه الدرجة الا بالعلم والعرفان وماأجدر شباننا المصريين الاذكياء المتعلمين ان يقتدوا بأهل الاندلس فى ذلك الزمان فانهم كانوا جميعا أحرص الناس على التمييز حتى ان الجاهل الذى لم يوفقه الله للعلم يجهد ان يتميز بصنعة ويربأ ان يرى فارغا عالة على الناس وكانوا يقرؤن جميع العلوم فى المساجد بالاجرة لانهم كانوا يتعلمون لاجل ان يعلموا الخلائق وينوروا الاذهان لالكى يأخذوا جاريا أومعلوما ولذلك كان العالم منهم بارعا لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على ترك الشغل الذى يستفيد منه وينفق من عنده حتى يتعلم ومثلهم الآن معظم علماء أورباه

مراعاة الاندلسيين للشرع الشريف

ومما ينبغى اضافته للعلم مراعاتهم للشرع الشريف حتى لقد كان للدولة الاموية فى أيام عز الاندلس هيبة وتمكين ناموس من قلوب العالم فكان فى ذلك ضخامة لدولتهم ورسوخ لاقدامهم وقد ذكر ابن حيان وقائع كثيرة يستدل منها على توجه الحكم

Digitized by Google

على خليفتهم أو على أبنه أو على أحد حاشيته المختص به وانهم كانوا فى نهاية من الانقياد للحق لهم أو عليهم وبذلك انضبطت اهم الامور وكبرت الهمم وترتبت الاحوال وتوطدت القواعد ولما خرقوا هذا الناموس تهتك أمرهم واضمحل شأنهم وفشلوا وذهبت ريحهم حتى قال شاعرهم

اسباب دمارهم وفيها أعظم عبرة

مما يزهدنى فى أرض أندلس * تلقيب معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة فى غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخا صورة الاسد

وما زالوا على هذا الاضمحلال وهذا الانحطاط حتى تقلبت الدول وكان الخرق لايزداد الا اتساعا فوقع الإختلاف بعد ذلك الائتلاف وأعيى العلاج حكماء الرجال وعصفت عليهم ريح العدو والحرب سجال حتى لقد تمكن منهم بالتفريق وإلقاء العداوة بينهم وبين بعضهم بقبيح المنافسة ومرذول الطمع وآل أمرهم الى أن استقل العمال وأقام كل واحد منهم نفسه ملكا فى بلد واحد وصاروا يطمعون فى بعضهم و يستجيشون بالاسبانيين وبطاغيتهم ويسلمونه حصون المسلمين تشفيا لبعض غاياتهم حتى ان بعض ملوك الطوائف واسمه المأمون قبحه الله واخزاه بعث الى ملك قشتالة أو قشتالة المعروفة أيضا باسم قشتيلية Castilla يستنصره على الموحدين ويسأله ان يبعث له جيشا من الروم يجوز به الى العدوة اى

Digitized by Google

مراكش لقتال يحيى ومن معه من الموحدين فقال له ملك قشتيلية « لاأعطيك جيشاً الا على شريطة ان تعطينى ١٠ حصون مما يلى بلادى كما اختارها لنفسى واذا منّ الله عليك ودخلت مدينة مراكش تبنى للنصارى الذين يسيرون معك كنيسة فى وسطها يظهرون بها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم أوقات صلواتهم وان أسلم أحد من الروم لايقبل اسلامه ويرد الى اخوانه فيحكمون فيه بحكمهم ومن تنصر من المسلمين فليس لاحد عليه من سبيل » فاسعفه النذل الجبان فى جميع ماطلب من غير تبصر فى العواقب

ويشبه ذلك أيضا ماجرى فى واقعة العقاب (جمع عقبة لكثرة العقاب التى بجانب مدينة طلوسه Tolosa فى شمال اسبانيا وتعرف هذه الواقعة عند الافرنج بماهو ترجمتها Las Navas de Tolosa وقد أشرت الى الراية التى أخذها الاسبانيون منهم وهى فى برغش) وذلك ان محمد الناصر المشؤم على المسلمين وجزيرة الاندلس بالخصوص جمع جموعا اشتملت على نحو ٦٠٠٠٠٠ مقاتل وداخله الاعجاب والغرور بكثرة من معه من الرجال فصاف الافرنج. فكانت الدائرة عليه وعلى المسلمين فان الافرنج دهموهم وهم على غفلة وغير أهبة وخلا بسبب هذه الواقعة أكثر المغرب واستولى الافرنج على معظم

Digitized by Google

الاندلس اذلم ينج من الستمائة ألف غير عدد يسير جدا لايقارب الالف وكانت هذه الواقعة هى الطامة الكبرى على الاندلس بل والمغرب وما ذلك الا لسوء التدبير فان الناصر ووزيره استخفا برجال الاندلس العارفين بقتال الافرنج وشنقا بعضهم وظنا ان كثرة الاجناد تغنى عن دربة القواد ففسدت النيات حتى ان جماعات الموحدين لم يسلوا سيفا ولم يشرعوا رمحا ولا أخذوا فى شئ من أسباب الدفاع ولاأهبة القتال بل انهزموا لاول حملة الافرنج عليهم قاصدين لذلك والعدو يبلى فيهم بلاء حسنا ويقتل فيهم قتلا ذريعا وهم (ياللنذالة) معرضون عنه بل عن الدفاع عن أنفسهم ويقول المؤرخون ان الناصر ثبت فى ذلك اليوم ثباتا لم يرلملك قبله

ولم يزل حالهم على هذا الاختلاف حتى حينما تضعضع أمرهم وضيق عليهم العدو أشد الضيق واحدق بغرناطة من كل مكان ومع ذلك لم تنقطع شأفة الشقاق حتى كان فى هذه المملكة الصغيرة ثلاثة ملوك أحدهم فى غرناطة نفسها والثانى فى أحد ضواحيها المعروف بربض البيازين (١) والثالث فى عملها القريب منها وهومدينة وادى آش المعروفة أيضا بواد ياش و بوادى الاشات وكانوا قد

(١) هذا المحل سمى كذلك لكونه كان سوقا لاناس اتخذوا تربية البازحرفة لهم وتسمى عندالافرنج Albaicin

أحسوا بهذا الخطر احساسا لامزيد عليه حتى انهم استبدلوا الاقوال التى كانت تستعمل عادة فى ضرب السكة بهذه العبارات وقد رأيتها منقوشة على الدراهم والدنانير المحفوظة فى متحف مدريد وعند الماجد الفاضل الدون أنطونيو ڤيڤس[1] D. Antonio Vives وهو من علماء أهلها المشتغلين بالعربية وبفن النقود وذلك مثل[2] (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ولا غالب الا الله) . ومثل (غرناطة حاطها الله) . (غرناطة حرسها الله) . (مالقة حاطها الله) . (المرية حرسها الله) . ومثل (بحمراء غرناطة) . (نصر من الله وفتح قريب) . ومثل (العاقبة للمتقين) . ومثل (وما النصر الامن عند الله) . ومثل (وما النصر الامن عند الله العزيز الحكيم صدق الله العظيم) . ومثل (يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) . ومثل (الامير فلان أعانه الله ونصره) . أو (أيده الله ونصره) وجميع هذه العبارات لم تكن مستعملة فى نقودهم قبل الايام الاخيرة التى

---

(١) انظر النبذة التى وضعتها بخصوص أسماء الاعلام صحيفة ٣٧٩

(٢) هذا الاستخراج مما ينبغى الالتفات اليه وأقول انه مما لم يتنبه اليه أحد من العلماء الباحثين على ما أعلم وهذا من ضمن الفوائد التى تنتج من علم النقود والمسكوكات

Digitized by Google

أعقبها انقراض دولتهم وما زالوا على هذه الفتن حتى انمحى أثرهم من الجزيرة ولقى من بقى فيها من أنواع الاضطهاد والهوان ما سأفصله فى الرحلة ان شاء الله

ولقد صدق على العرب ما قاله أحد ملوك فرنسا حينما فزع اليه أكابر دولته لما رأوا امتداد فتوحاتهم وسرعة توغلهم فى البلاد فانه قال لهم ما معناه - (الرأى عندى ان لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل من يصادره وهم فى إقبال أمرهم ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم على بعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر) - فكان كذلك بالفتن التى استدامت بين البربر والعرب وبين العرب وبعضهم وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الاعداء وانقلب الموضوع وتبدلت الاحوال فبعد ان أجلى المسلمون فى أول الامر جميع أهل الجزيرة واقصوهم الى آخر حدودها شمالا حتى لم يبق منهم الا ٣٠٠ رجل مع ملك يسميه العرب بلاى ويسميه الاسبانيون بلايو Pelayo فالتجأ هذا العدد القليل بمكان يعرف عند العرب بالصخرة ويعرف عند الافرنج الآن باسم جبل كوفادونجا Covadonga ولم يزل

Digitized by Google

المسلمون يلحون عليهم بالقتال حتى مات أصحابه جوعا وبقى فى ٣٠ رجلا و ١٠ نساء ولاطعام لهـم الاالعسل يشتارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به حتى أعيي المسلمين أمرهم واحتقروهم وقالوا ٣٠ علجا ماعسى انيجيء منهم وماعلموا ان الائتلاف والاتحاد من جهة القشتاليين والتغابن والتخاذل من جهة ابنائهم واعقابهم جعل لهؤلاء «الثلاثين علجا» من القوة والكثرة مالاخفاء به حتى قهروا العرب واجلوهـم بالمرة واذاقوهـم أنواع الذل والهوان مما هومسطور فى كتب التواريخ وسألم ببعضه فى الرحلة ان شاء الله

أخلاق الاسبانيين .

هـذا وقد رأيت فى أخلاق أهـل اسبانيا أخلاق العرب وشهامتهـم وكرامتهم فقد لقيت فيهم حسـن الوفاء وحميد الطباع والتحبب الى الغريب والفرح بافادته واعانتـه سواء كانوا يعرفونه أولايعرفونه وذلك مايجعلنى أفضلهـم جهارا وأشهد على رؤس الاشهاد بان أخلاقهـم أدمث وألطف وأشرف من جميع الامم التى طفت ديارها فى هذه الرحلة المستطيلة وسأشرح ذلك بالتفصيل عند الفرصة اعطاء لكل ذى حق حقه وتقريرا للوقائع كماهى حتى انى وجدت فيهم من الطباع النبيلة ماقد نساه أهل البلاد العربية وانى اذاتعصبت لامة من الافرنج فانما يكون ذلك

Digitized by Google

لاهل اسبانيا حياهم الله وبياهم فقد آنست فيهم وفى بلادهم خصوصا أيام كنت أجهل لغتهم وليس لى من صديق فيهم وقبل وصولى الى مدريد مايجعل لسانى يتلو آيات شكرهم فى كل ناد ويفصح بمفاخرهم وآثارهم فى كل واد على توالى الاماد وأكرر قول الاندلسى على جميع البلاد

تلك الجزيرة لست أنسى حسنها * بتعاقب الاحيان والازمان

Digitized by Google

(تكملة الرسالة السابقة)

وهى

(نبذة فى امتزاج العرب بالعجم فى اسبانيا)

(والاستشهاد على ذلك بالاسماء والالقاب)

اعلم ان كثيرا من أشراف العائلات الاسبانية الاصلية امتزجت بالعرب امتزاجا كليا ودخلت فى دين الله القويم ولكنها لم تغير ألقابها الخاصة بها لما كان لها بالطبع من الجاه والحسب وقد نبغ منها كثيرون مثال ذلك ابن بونه وهو اسم لكثير من أدباء الاندلس وأصله الاسبانى Bono و Bueno ومعناها الطيب والجيد - ولاتزال عائلات اسبانيه كثيرة بهذا الاسم الى الآن ومثل ابن بيبش (وهذا هو الاسم الذى دعانى لتحرير هذه التكملة) وهو اسم لجملة ادباء اندلسيين منهم الغرناطى اللغوى الاديب أبو عبد الله محمد ابن بيبش Ibn Vivax من شيوخ وزير الاندلس المشهور بابن الخطيب وأصل اسم العائلة من كلمة اسبانية لاتينية Vivas و Vives مشتقة من فعل معناه الحياة والعمر والمعيشة - وربما كان صاحبنا الدون أنطونيو فيفس المذكور بالمتن (صحيفة ٣٧٥) من نسل هذه العائلة فاذا صح ذلك الظن تكون أصلها اسبانية ثم استعربت ثم استسبنت أى صارت اسبانية

كما كانت ويكون الحكم كذلك فى بقيــة العائلات المذكورة فى
هذه النبذة - ومثل ابن بشكوال Ibn Paxcual وهو الشيخ
العالم أبى القاسم خلف بن عبــد الملك بن بشكوال من مشاهير
المؤرخين من أهل قرطبة وله كتب كثيرة جزيلة الفائدة منها كتاب
الصلة فى تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم
وهو حجة ثقــة واسمه مشــتق من Pascual من كلمة لاتينيــة
Paschalis ومعناهــا المنتسب لعيــد الفصح ولايزال باسبانيا
وأوروبا عائلات كثيرة بهذا الاسم - ومثــل ابن الاقشتين وهو
لقب لكثير من الاندلسيين منهم الاديب محمد بن موسى بن هاشم
وهذا الاسم من كلمة اسبانية Agustin فرنساويتها Augustin
ولاتينيتها Augustinus ومعناها العظيم الجليل - ومثل ابن
البلاذش وابن البيذش Ibn-al-Pedex وهى كلمة اســبانية
لاتينية نص ابن الابار على ان معناها القدمان أى الرجلان Pedes
وهو لقب لاديب غرناطى توفى سـنة ٥٢٨ - ومثل ابن برّال
Burriel أو Borrel وهو أبو بكر من مشاهير أدباء الاندلس
ولايزال لقبا لعائلات اسبانية كثيرة - ومثــل ابن بشتغير
Ibn Baxtagair وهو من أدباء الاندلس واسمه أبو جعفر ولقبه
من كلمــة لاتينية Bastagarius معناها الموكل بنقل أمتعــة

Digitized by Google

الدولة أو الكنيسة فى الاحتفالات العمومية - ومثل الرُّشاطى وهو النسابة الاندلسى أبو محمد الرشاطى Arroxati وهـذا الاسم مشـتق من كلمة اسبانية Roseta بمعنى الوريدة تصغير وردة ومثـل ابن الروميـة وهو لقب لاحـد مشاهير علماء النبات من أهـل اشبيلية وبما ان عادة العرب النسـبة الى الاب لا الى الام الا فى أحوال استثنائية قليلة جـدا فذلك يخيل لى انهم أبقوا له هذا اللقب دلالة على أصـله كما فعلوا بالنسبة لابن القوطية أحـد مشاهير كتاب الاندلس فان العرب أطلقوا اسم القوطية La Goda بالاسبانية و La Gothe بالفرنساوية على سارة Sara حفيدة الملك القوطى ويتيزا Witiza المعروف عند العرب باسم غيطشه وربما كان الرجل من نسلها - ومثل ابن غرسية وهو لقب لكثير من الاندلسيين منهم الفقيه العلامة عبد الرحمن بن أحمد وهـذا اللقب اسـبانى محض Garcia وكان فى القـديم يكتب هكذا Garsea و Garsia و Garseas و Garseanus ولا زال لقبا لعائلات اسبانية كثيرة - ومثل ذو الوزارتين السرقسطى ابن غندشلب وكان صاحب جاه عظيم ونفوذ كبير فى دولة بنى هود بمملكة الثغر الاعلى أى مملكة سرقسطة وله شعر جيد وهذا الاسم اسبانى محض Gonzalo و Gonzalve و Gonzalez الخ ولا يزال لقبا لكثير

Digitized by Google

من العائلات الآن - ومثل ابن فورتش وهو لقب لبعض علماء الاندلس ولاتينيته Fortis بمعنى قوى شديد ولايزال لقبا لكثير من العائلات الاسبانية الآن - ومثل ابن كنبراط Comparath وهو من أهل بلنسية العارفين بالطب وعنه أخذ القاضى أبو الوليد بن رشد Averroès فيلسوف الاندلس المشهور . وهذا اللقب اسبانى محض - ومثل ابن ليون لقب لابى عثمان العالم الاديب الناشئ بمدينة ألمرية Almeria ولأبيه أبى جعفر من علماء الفلاحة المبرزين ومن شيوخ الوزير ابن الخطيب . وهذه الكلمة اسبانية محضة Leon تجىء من اللاتينيه Leo, nis بمعنى الاسد ولازالت لقبا لكثير من العائلات الاسبانية الآن - ومثل ابن سلبطور من مشاهير علماء الاندلس وهو لقب مستعمل الى اليوم وهو بالاسبانية Salvador وبالطليانية Salvatore وبالفرنساوية Sauveur ومعناه المخلص والمنقذ والمنجي وهو علم فى العادة عند النصارى على سيدنا عيسى عليه صلاة الله وسلامه - ومثل ابن فِرُّه لقب لعالم اندلسىّ وقد نص ابن خلكان على انه لقب اسبانى معناه الحديد واعلم ان الحديد يسمى عند الفرنساويين Fer وعند الطليانيين Ferro وكان يسمى كذلك فى القديم عند أهل اسبانيا مشتقين له من اللفظة

Digitized by Google

اللاتينية ولكنهم اليوم حرفوه فلا يقولون « فيره Ferro » اذا أرادوا ذكر الحديد بل يقولون من باب التحريف « Hierro هييره » وهم لا ينطقون مطلقا بحرف H مقابل الهاء ولكنهم يقولون عن السكك الحديدية Caminos de و Ferrocariles فترى ان كلمة « فيره » لازالت باقية عندهم فى بعض hierro التراكيب — ومثل ابن فورتون وابن مورجون لكثير من علماء الاندلس وهما لقبان اسبانيان محضان لايزال مستعملان الى اليوم Fortun و Morejon وقد اطلعت على أسماء كثيرة للاندلسيين وليست من العربية فى شئ على الاطلاق مثل تومرت وانجلينو واشقيلولة ومردنيش وهمشك وكثير غيرها ولكننى لم يتيسر لى ارجاعها الى أصولها الافرنكية وسأستوفى ذلك فى فرصة أخرى ان شاء الله .

ومن الامور التى يجب ذكرها تكملة لهذه الكلمة ان أهل الاندلس المسلمين تفردوا بزيادة الواو والنون فى آخر ألقابهم بخلاف المشارقة كما تفرد بعض الاعجام بزيادة « ويه » فى سيبويه ونفطويه وعمرويه وخالويه ومردويه ومزرويه وحيويه وشاهويه ودرستويه وراهويه ورزقويه ومادويه وقالويه وشيرويه وكاكويه وحمويه ورحمويه الخ وكما تفرد الارمن بزيادة « يان » و « ان » فى آخر اسمائهم وكما تفرد الروس بزيادة « أوف » و « إيف » ولا حاجة

لايراد الامثلة هنا فانها مشهورة سوى انى أقول ان بعض أهالى ايران والجركس وغيرهم من التابعين الآن للروسيا ملزمين باضافة « أوف » أو « ايف » على اسمائهم وقد لاقيت فى المؤتمر عالما فارسيا من هذا القبيل اسمه « أحمد اغايف » ونظير هذين الحرفين « الواو والنون » فى اللغات الافرنكية وخصوصا الاسبانية أى on اذا وضعا فى اخر كلمة افرنجية أفاداها القوة والشدة والتفخيم وكأنى بالاندلسيين أرادوا ذلك ومثال هذه الاسماء مضافة الى لفظة ابن : بدرون . برون بكرون - جبرون . جلفون - حبرون . حبنون . حسون . حضرون . حفصون . حكمون . حمدون . حنون . حيون - خلدون (١) خلفون . خيرون - دحون -

---

(١) أذكرهنا من باب التفكهة ان أحد شعراء الاندلس وهو أبوعلى المالقى هجا العلامة ابن خلدون بهذين البيتين

يا شاعرا يتسامى ✽ وجده خلدون
لم يكف أنك خل ✽ حتى بأنك دون

وهذا شبيه بالشاعر الذى ذم نفطويه والقائل أبو عبد الله محمد بن زيد بن على بن الحسن الواسطى المتكلم المشهور

من سره ان لا يرى فاسقا ✽ فليجتهد ان لا يرى نفطويه
أحرقه الله بنصف اسمه ✽ وصير الباقى صراخا عليه

قال ابن خالويه ليس فى العلماء من اسمه ابراهيم وكنيته أبو عبد الله سوى نفطويه وهو بكسر النون وفتحها والكسر أفصح لقب بذلك لدمامته تشبيها له بالنفط

Digitized by Google

رزقون - زرقون . زقنون . زكون . زيدون - شحبون .
سعدون . بسلبون . سلمون . سمجون . سمجون .
سهلون - ضيفون - عبدون . عبيدون (وفى هذا الاسم
تصغير بالعربى وتكبير بالافرنجى) . عجلون . عسلون . عفنون .
عمرون . عيسون . عيشون - غدرون . غلبون - فتحون .
فلون . فرحون - قلون - قنون - لطفون - وهبون -
يسعون . يشعون . يحيون . واعلم ان زيادة الواو والنون تعدت
أيضا الى بعض أسماء النساء نذكر لك اسم الشاعرة نزهون وهى
من أشعر نساء الاندلس ومن أكثر المشتغلين بالنظم بديهة واجادة
كانت تسكن بغرناطة ولها واقعة حال مع شاعر أعمى من المشارقة
تدل على شدة بديهتها حينما طارحته الشعر فى حضرة بعض الامراء
ولولا مافيها من بعض الاخلال بالادب لذكرتها من باب التفاخر
بها ولكن ذلك لايمنع الطالب من البحث عليها فى كتاب نفح الطيب
ونذكر اسم شاعرة أخرى مشهورة وهى سعدونة فقد أضيف الى
اسمها علامة التأنيث

والاغرب من ذلك ان بعضهم أضاف على اسمه حرفى الواو والسين
وهما علامة الانتهاء فى اللغة اللاتينية Us ومثال ذلك : أحمدوس

Digitized by Google

أنسوس - عبدوس . عروس - طحلوس . طملوس - فالوس فرعوس . فرغلوس - قبستروس . قبياس ومنهم من يسمى حمديس وهذان الحرفان الانتهائيان هما من خصائص اللغة اللاتينية is كمالا يخفى على العارف . واعلم أن هذه الاسماء التى ذكرناها هى أعلام لعلماء ترى تراجمهم فى كتب ابن الابار وابن الفرضى والضبى وابن بشكوال ونفح الطيب وابن خلكان ودائرة المعارف وآثار الادرهار ومجموعة القطع العربية التى انتخبها العلامتان الاسبانيان لرتشندى وسيمونيت Lerchundi y Simonet والمعجم العربى الاسبانى الذى ألحقاه بكتابهما المذكور

ولما آل أمر بقاياهم بالاندلس الى منتهاه من التلاشى والاضمحلال وتناسوا اللغة العربية وأساليبها مرة واحدة أهملوا لفظة « ابن » واستبدلوها بعلامة الاضافة فى اللغة القشتالية وهى « دو » فكانوا يقولون فلان دو فلان أى من أو ابن فلان وقد استبدلوا لفظة السيد بالكلمة المقابلة لها فى اللغة القشتالية (الدون) كما يفعل الآن بعض العوام من وضع كلمة موسيو الفرنساوية امام الاعلام العربية فى الكتابات والمخاطبات على ماهو مشاهد اليوم ومثال ذلك عندهم الدون عيسى دوجابر الفقيه الاكبر والمفتى بجامع شقوبية Ségovie فى سنة ١٤٦٢ أفرنكية فانه ألف كتابا جليلا فى الفقه الاسلامى باللغة

Digitized by Google

الاسبانية وطبعته جمعية التاريخ الملوكية بمدريد فى سنة ١٨٥٣ (فى الجزء الخامس من مطبوعاتها) وعندى نسخة منه تدل على غزارة فضله و واسع علمه وقد بلغنى من بعض العلماء أن بعض المراكشيين المتوطنين على الساحل يستعملون ذلك اليوم والاغرب من هذا وهذا مابلغنى فى مدريد من بعض أهل السياحة والتحقيق ان الاعراب البدويين المتوطنين فى صحارى مراكش (آى بعيدا عن الساحل بمسافات شاسعة تمنع خيال الظن بوجود أى تأثير للاختلاط مع أهل أسبانيا الآن) لايزالون يستعملون هذه الطريقة فى التسمية أى وضع كلمة « دو » فى المكان الذى يضع فيه بقية العرب لفظة « ابن » وهذا دليل على اتصال نسبتهم بالاندلسيين الذين أخرجوا من ديارهم هذا وقد رأيت عند الدون بابلو خيل حججا شرعية وصكوك معاملات و وقفيات مكتوبة باللغة الاعجمية (الجميا) وفيها « الدنيا عائشة » أى السيدة عائشة والدون فلان وهكذا

ثم أقول من باب الاستطراد غير متعرض فى هذا المقام الى استكمال البحث فانى أريد توفيته فى فرصة أخرى ان الاسبانيين وقع منهم مثل ماوقع من العرب فان الناظر الى اسمائهم لايعسر عليه ان يتعرف فيها اعلاما عربية قد يكون بعضها مأخوذا

Digitized by Google

من العائلات الآن - ومثل ابن فورتش وهو لقب لبعض علماء الاندلس ولاتينيته Fortis بمعنى قوى شديد ولايزال لقبا لكثير من العائلات الاسبانية الآن - ومثل ابن كنبراط Comparath وهو من أهل بلنسية العارفين بالطب وعنه أخذ القاضى أبو الوليد بن رشد Averroès فيلسوف الاندلس المشهور . وهذا اللقب اسبانى محض - ومثل ابن ليون لقب لابى عثمان العالم الاديب الناشئ بمدينة ألمرية Almeria ولأبيه أبي جعفر من علماء الفلاحة المبرزين ومن شيوخ الوزير ابن الخطيب . وهذه الكلمة اسبانية محضة Leon تجيء من اللاتينية Leo, nis بمعنى الاسد ولازالت لقبا لكثير من العائلات الاسبانية الآن - ومثل ابن سلبطور من مشاهير علماء الاندلس وهو لقب مستعمل الى اليوم وهو بالاسبانية Salvador وبالطليانية Salvatore وبالفرنساوية Sauveur ومعناه المخلص والمنقذ والمنجي وهو علم فى العادة عند النصارى على سيدنا عيسى عليه صلاة الله وسلامه - ومثل ابن فيُّره لقب لعالم اندلسىّ وقد نص ابن خلكان على انه لقب اسبانى معناه الحديد واعلم ان الحديد يسمى عند الفرنساويين Fer وعند الطليانيين Ferro وكان يسمى كذلك فى القديم عند أهل اسبانيا مشتقين له من اللفظة

اللاتينية ولكنهم اليوم حرفوه فلا يقولون « فيره Ferro » اذا أرادوا ذكر الحديد بل يقولون من باب التحريف « Hierro هييرُه » وهم لا ينطقون مطلقا بحرف H مقابل الهاء ولكنهم يقولون عن السكك الحديدية Caminos de Ferrocariles و hierro فترى ان كلمة « فيِرُه » لازالت باقية عندهم فى بعض التراكيب — ومثل ابن فورتون وابن مورجون لكثير من علماء الاندلس وهما لقبان اسبانيان محضان لايزال مستعملان الى اليوم Fortun و Morejon وقد اطلعت على أسماء كثيرة للاندلسيين وليست من العربية فى شئ على الاطلاق مثل تومرت وانجلينو واشقيلولة ومردنيش وهمشك وكثير غيرها ولكننى لم يتيسر لى ارجاعها الى أصولها الافرنكية وسأستوفى ذلك فى فرصة أخرى ان شاء الله ·

ومن الامور التى يجب ذكرها تكملة لهذه الكلمة ان أهل الاندلس المسلمين تفردوا بزيادة الواو والنون فى آخر ألقابهم بخلاف المشارقة كما تفرد بعض الاعجام بزيادة « ويه » فى سيبويه ونفطويه وعمرويه وخالويه ومردويه ومزرويه وحيويه وشاهويه ودرستويه وراهويه ورزقويه ومادويه وقافويه وشيرويه وكاكويه وحمويه ورحمويه الخ وكما تفرد الارمن بزيادة « يان » و « ان » فى آخر اسمائهم وكما تفرد الروس بزيادة « أوف » و « إيف » ولا حاجة

لايراد الامثلة هنا فانها مشهورة سوى انى أقول ان بعض أهالى ايران والجركس وغيرهم من التابعين الآن للروسيا ملزمين باضافة « أوف » أو « ايف » على اسمائهم وقد لاقيت فى المؤتمر عالما فارسيا من هذا القبيل اسمه « أحمد اغايف » ونظير هذين الحرفين « الواو والنون » فى اللغات الافرنكية وخصوصا الاسبانية أى on اذا وضعا فى اخر كلمة افرنجية أفاداها القوة والشدة والتفخيم وكأنى بالاندلسيين أرادوا ذلك ومثال هذه الاسماء مضافة الى لفظة ابن : بدرون . برون بكرون - جبرون . جلفون - حبرون . حبنون . حسون . حضرون . حفصون . حكمون . حمدون . حنون . حيون - خلدون (١) خلفون . خيرون - دحون -

---

(١) أذكرهنا من باب التفكهة ان أحد شعراء الاندلس وهو أبو على المالقى هجا العلامة ابن خلدون بهذين البيتين

يا شاعرا يتسامى ✲ وجده خلدون
لم يكف أنك خل ✲ حتى بانك دون

وهذا شبيه بالشاعر الذى ذم نفطويه والقائل أبو عبد الله محمد بن زيد بن على بن الحسن الواسطى المتكلم المشهور

من سره ان لا يرى فاسقا ✲ فليجتهد ان لا يرى نفطويه
أحرقه الله بنصف اسمه ✲ وصير الباقى صراخا عليه

قال ابن خالويه ليس فى العلماء من اسمه ابراهيم وكنيته أبو عبد الله سوى نفطويه وهو بكسر النون وفتحها والكسر أفصح لقب بذلك لدمامته تشبيها له بالنفط

Digitized by Google

رزقون — زرقون . زقنون . زكون . زيدون — شحبون .
سعدون . بسلبون . سلمون . سمحون . سمجون .
سهلون — ضيفون — عبدون . عبيدون (وفى هذا الاسم
تصغيربالعربي وتكبير بالافرنجي) . عجلون . عسلون . عفنون .
عمرون . عيسون . عيشون — غدرون . غلبون — فتحون .
فلون . فرحون — قلمون . قنون — لطفون — وهبون —
يسعون . يشعون . يحيون . واعلم انزيادةالواو والنون تعدت
أيضا الى بعض أسماء النساء نذكر لك اسم الشاعرة نزهون وهى
من أشعر نساء الاندلس ومن أكثر المشتغلين بالنظم بديهة واجادة
كانت تسكن بغرناطة ولها واقعة حال مع شاعر أعمى من المشارقة
تدل على شدة بديهتها حينما طارحته الشعر فى حضرة بعض الامراء
ولولا مافيها من بعض الاخلال بالادب لذكرتها من باب التفاخر
بها ولكن ذلك لايمنع الطالب من البحث عليها فى كتاب نفح الطيب
ونذكر اسم شاعرة أخرى مشهورة وهى سعدونة فقد أضيف الى
اسمها علامة التأنيث

والاغرب من ذلك ان بعضهم أضاف على اسمه حرفى الواو والسين
وهما علامة الانتهاء فى اللغة اللاتينية Us ومثال ذلك : أحمدوس

أنسوس - عبدوس . عروس - طحلوس . طملوس - فالوس فرعوس . فرغلوس - قبتروس . قُبِياسُ ومنهم من يسمى حمديس وهذان الحرفان الانتهائيان هما من خصائص اللغة اللاتينية is كما لا يخفى على العارف . واعلم أن هذه الاسماء التى ذكرناها هى أعلام لعلماء ترى تراجمهم فى كتب ابن الابار وابن الفرضى والضبى وابن بشكوال ونفح الطيب وابن خلكان ودائرة المعارف وآثار الادرهار ومجموعة القطع العربية التى انتخبها العلامتان الاسبانيان لرتشندى وسيمونيت Lerchundi y Simonet والمعجم العربى الاسبانى الذى ألحقاه بكتابهما المذكور

ولما آل أمر بقاياهم بالاندلس الى منتهاه من التلاشى والاضمحلال وتناسوا اللغة العربية وأساليبها مرة واحدة أهملوا لفظة « ابن » واستبدلوها بعلامة الاضافة فى اللغة القشتالية وهى « دو » فكانوا يقولون فلان دو فلان أى من أو ابن فلان وقد استبدلوا لفظة السيد بالكلمة المقابلة لها فى اللغة القشتالية (الدون) كما يفعل الآن بعض العوام من وضع كلمة موسيو الفرنساوية امام الاعلام العربية فى الكتابات والمخاطبات على ما هو مشاهد اليوم ومثال ذلك عندهم الدون عيسى دوجابر الفقيه الاكبر والمفتى بجامع شقوبية Ségovie فى سنة ١٤٦٢ أفرنكية فانه ألف كتابا جليلا فى الفقه الاسلامى باللغة

Digitized by Google

الاسبانية وطبعته جمعية التاريخ الملوكية بمدريد فى سنة ١٨٥٣ (فى الجزء الخامس من مطبوعاتها) وعندى نسخة منه تدل على غزارة فضله و واسع علمه وقد بلغنى من بعض العلماء أن بعض المراكشيين المتوطنين على الساحل يستعملون ذلك اليوم والاغرب من هذا وهذا مابلغنى فى مدريد من بعض أهل السياحة والتحقيق ان الاعراب البدويين المتوطنين فى صحارى مراكش (آى بعيدا عن الساحل بمسافات شاسعة تمنع خيال الظن بوجود أى تأثير للاختلاط مع أهل أسبانيا الآن) لايزالون يستعملون هذه الطريقة فى التسمية أى وضع كلمة « دو » فى المكان الذى يضع فيه بقية العرب لفظة « ابن » وهذا دليل على اتصال نسبتهم بالاندلسيين الذين أخرجوا من ديارهم هذا وقد رأيت عند االدون بابلو خيل حججا شرعية وصكوك معاملات و وقفيات مكتوبة باللغة الاعجمية (الخميا) وفيها « الدنيا عائشة » أى السيدة عائشة والدون فلان وهكذا

ثم أقول من باب الاستطراد غير متعرض فى هذا المقام الى استكمال البحث فانى أريد توفيته فى فرصة أخرى ان الاسبانيين وقع منهم مثل ماوقع من العرب فان الناظر الى اسمائهم لايعسر عليه ان يتعرف فيها اعلاما عربية قد يكون بعضها مأخوذا

Digitized by Google

بالوراثة وبعضها عفوا أو لمناسبة أخرى ومثال ذلك Codera وهو قديرة (ولا يزال الحاج قديرة والحاج قدور من اسماء أهل طرابس وتونس والجزائر ومراكش) ومثل Zaïdyn = زيدين و Abad اى عباد و Alvarez = الفارس و Alvarez del Campo اى فارس الميدان و Baguer = الباقر و Moreira = مريرة و Sofi = صوفى و Ferran = فران و Almenara اى المنارة و Alcayde = القائد و Alcalde = القاضى (ولا يزال هـذا اللقب عنـدهم مرادفا للمحافظ والمدير وحاكم البلد كما كان يسمى عند العرب بالقاضى اذ له اختصاصات كثـيرة فى الشرع الشريف ويسمى عنـد الفرنساوية Alcade وان كان الاسبانيون اضافوا الاما L من باب التحريف فى قولهم Alcalde لاظهار تفخيم الضاد) و Rabadan = رمضان (الباء حلت محل الميم العربية) و Nasarre = نصار (والاسبانيون ينطقون بحرف S سينا على الدوام مهما كان موقعه بين الحروف الاخرى) و Calaf = خلاف و Maymon = ميمون و Alvaro = البرّ و Meaza = معازة و Alfageme = الحجام الخ

وهـذه الاعلام كلها لاناس موجودين فى اسـبانيا الآن رأيت بعضها فى كتب الدلالات وعرفت بعضهـم بنفسى ومن ينظر الى اعـلام الاسـبانيين الآن يرى فى آخر أكثرها هـذين

الحرفين Ez وهما على ماتأكدته علامة على البنوة فكل اسم فى آخره ذلك يكون معناه ابن فلان مثل Fernando أى فرننده ثم Fernandez أى ابن فرننده وهكذا فى جميع الاسماء ولم أر مايشبه ذلك فى بقية اللغات الافرنجية التى أطلعت عليها وهذا مايدعونى الى الظن بانه أثر باق من آثار العرب الذين ينتسبون على الدوام الى الاب مع لفظة ابن وهذه الزيادة فى آخر الاعلام الاسبانية تشبه تمام المشابهة لفظة « زاده » و «أوغلى» التى تضاف على أواخر الاعلام التركية

Digitized by Google

(الخاتمة)

بعدان زرت غرناطة وكتبت رسالتى الاندلسية التى لم يتيسر لى أن أو ردفيها جزأمن عشرين مما وقفت عليه من أحوال الاندلس وما رأيته فيها من آثار العرب و بقية أخلاقهم وغير ذلك مما قد يستغرق مجلدا ضخما قمت الى قرطبة وشاهدت معاهدها و بقاياها وأهم مارأيتـه فيها هو المسجد الجامع الذى لانظير له فى العالم الاسلامى وقد بقيت معالمه الرئيسية على ماهى عليه وأقسم بالله انى أكثرت من البكاء المر حينما درت فى صحونه و بين عمدانه ووقفت فى محرابه وتأملت مافيه من غرائب الاتقان التى لاتخطر على بالى مع الفخامة والضخامة وهو متجلبب بجلباب من الجلالة يوجب المهابة التعبدية فى نفس الزائر ويجعله يشعر حقيقة بوجود خالق معبود قسم الحظوظ وقدر الارزاق وأراد ماأراد ولاأتصور ان الخشوع الدينى والخضوع التعبدى يحدث فى نفس أى انسان فى أى معبد من المعابد التى اقامتها جميع الامم على اختلاف نحلها ومقالاتها بكيفية أكثر وأظهر و بانفعال أتم وأكمل مما رأيته فى هـذا الجامع الذى يحتوى على اثنى عشر ألف عمود من مختلف الصوان وكلها منقوشة التاج والقاعدة بكيفية

تخالف بعضها وأما المحراب فهو مصنوع من أحجار دقيقة مختلفة الالوان متركبة مع بعضها على نظام الفص والفسيفساء فتحدث منها أشكال متناهية فى الجمال وآيات قرآنية وأحاديث نبوية واذا نظرلها الانسان من ذات اليمين رأى ألوانا وأضواء وأشكالا وتراكيب تخالف كل مايراه لو وقف جهة الشمال وكذلك الامر فيما لو وقف فى الوسط أوتقدم أوتأخر وهكذا وخلاصة القول انى أتصور هذه القبلة مركبة من أحجار كريمة مرصوفة بجانب بعضها باكمل ذوق وأحسن أسلوب

ثم خرجت من قرطبة الى مدريد الى سرقسطة الى برشلونة Barcelone الى مارسيليا فبقيت بها أياما شاهدت كل مايجوز للغريب وعابر السبيل ان يراه فيها وفى أول فبراير سنة ١٨٩٣ امتنع الخبازون عن اصطناع الخبز لخلاف فى التثمين وقع بينهم وبين البلدية فكان لذلك منظر من أغرب المناظر واستمر الحال ثلاثة أيام كاد الناس يقتلون بعضهم فيها ثم انحسمت النازلة على أحسن حال

ثم قمت الى مدينة نيس (Nice) المعروفة عند العرب باسم نيقة فانهم قد احتلوها هى وشواطئ فرنسا الجنوبية زمنا مديدا وهى من أجمل المدن وألطفها وأنظفها وغاية ماأقوله عنها الآن

Digitized by Google

انى شاهدت فيها الاحتفال بالكرنفال (أى عيد المرافع) وهو أعظم احتفال يحصل فى العالم كله من هذا القبيل اذ تجيء اليها قطارات مخصوصة لحضور هذا اليوم المشهود من لوندره وباريس وبرلين وويانه‌و رومة وغيرها من مدن أوروبا كلها بل ويحضرها فى هذه الفرصة كثير من أهل أمريكا ويحتفل به الاهالى والبلدية احتفالا يشمل جميع أجزاء المدينة ويدفع التجار رسما معينا لمعاونة البلدية على تنظيم الاحتفال والانوار باغرب ما تتصوره العقول ومتى حلت أيام المرافع ارتفع سلطان العقل من آفاقها وذهب موليا الادبار طالبا النجاة بنفسه فى غير هذه الديار ثم يحتلها سلطان الجنون بجنوده فتسقط التكاليف وتمتنع الحيثيات ويبقى الناس كلهم كلهم فى درجة واحدة فرحين مستبشرين ضاحكين ساخرين وهم متشحون بغرائب الملابس ويتخذون لوجوهم ورؤسهم صورا ما أنزل الله بها من سلطان ويرقصون جميعهم فى الشوارع مختلطين نساء ورجالا وعذارى وأطفالا ويترامون بقصاصات الورق Confetti والارز والفصولية وباقات الازهار وغير ذلك مما لا تحيط به الافكار وهم يسيرون زرافات ووحدانا ومشاة وركبانا ويتخذون عربات غريبة الشكل تضحك الثكلى وتزيل طوعا أو كرها تقطيب الوجه العبوس ويصطنعون سفنا تجرها الافراس والخلاصة انهم

Digitized by Google

يركبون من الرفاهة والخلاعة كل متن ويذهبون فيهما كل مذهب ومع ذلك ترى النظام سائدا والادب العمومى ضاربا أطنابه فى قواعده الكلية فقط وهم فى هذه الايام لايعرفون الزعل أو الكدر أو الغيظ أو الحنق أو المضايقة أو غير ذلك مما هو من مستوجبات الطبيعة البشرية ولهم فى ذلك نظامات ورسوم معلومة لكل يوم من أيام الاحتفال ولاشك ان شرح ذلك بالبيان الذى يجيش فى صدرى يستوجب رسالة ضافية مطولة لايسعها المقام الآن

ثم قمت الى مدينة موناكو ومنت كارلو ورأيت جمال مناظرهما الطبيعية وصفاء البحر تحت أقدامهما وبهاء الجبال فوقهما ونضرة الاشجار فى جميع جهاتهما وغير ذلك من المنازه الطبيعية والصناعية التى تنبسط لها النفس وينشرح منها الخاطر ومدينة منت كارلو مشهورة بالمنتدى الذى هو من أكمل وأجمل منتديات العالم فى لعب الميسر (القمار) وقد زرته للوقوف على حقائقه وأحطت علما بقوانينه واجرا آته

ثم خرجت منهما قاصدا بلاد ايطاليا فمررت على جنوة فبيشة فرومة وأقمت بها ثلاثة أيام ورأيت فيها الاحتفال بالكرنفال وشاهدت حرب الزهور Combat des fleurs ولكن احتفالها

Digitized by Google

مع جسامته ونخامته لايساوى جزأ من عشرين مما رأيته فى نيقة Nice ثم ركبت البحر عن طريق برندزى ووصلت الى الديار وحمدت الله على ماحصل من توفيقه لى وعناية بى أكثر مما كانت تحوم حوله آمالى

***

والناظر الى هذه الرسائل يعلم انى بارحت القاهرة فى يوم ١٤ اغسطس سنة ١٨٩٢ ورجعت اليها فى يوم ١٤ فبراير سنة ١٨٩٣ فتكون مدة رحلتى ستة شهور بالتمام قد لاقيت فيها حرا أو رباوحرارته كأشد مايكون وقاسيت بردها وصبارته فوق مايقدر عليه شرقى مثلى تغرب فى أوروبا لاول مرة ويرى انى زرت مرتين ثنتين خمسة من عواصم أوروبا وهى رومة وباريس ولوندره ومدريد ولشبونة وتقابلت بمسلمى ليفربول وتشرفت بلقاء ملك البرتقال وملكة الاندلس واننى زرت أكثر من أربعين مدينة زيارة تدقيق وتحقيق وتعلمت لغة أهل الاندلس الحالية حتى توصلت الى الكتابة والخطابة بها على قدر الامكان وزرت مناجم الفحم وبلاد الاندلس بالتفصيل وكتبت شيأ يسيرا مما عرفته عنهما ففتحت هذا الباب وشاهدت ثلاث مدائن مخصصة لطلبة العلم فقط وهى أكسفورد فى انجلترة وقلمرية فى البرتقال وشلمنقة فى إسبانيا وحضرت عيد الميلاد

Digitized by Google

فى مدريد وعيد رأس السنة فى لشبونة وأكات الفول المدمس وحضرت جلسات مجلس النواب والشيوخ فى فرنسا وشاهدت الاحتفال الرسمى بافتتاح مجلس نواب بلاد البرتقال وحضور الملك والملكة والقاء الخطبة الملوكية وشاهدت قتال الأثوار فى اسبانيا واعتصاب الخبازين وامتناعهم عن عمل الخبز مدة ثلاثة أيام فى مارسيليا والاحتفال بالكرنفال (المرافع) فى نيقة Nice ورومية وغير ذلك من الامور الكثيرة المتعددة التى لم يتيسر حصولها مرة واحدة وفى رحلة واحدة لمصرى قبلى وان ماذكرته وخصوصا عن الاندلس فى هذه الرسائل هو قليل جدا فى جانب ماأتوسل الى القادر الكافى توالت نعماؤه ان يوفقنى ويعيننى على تحريره وتدوينه فى الرحلة الكبرى لتكون هى وهذه الرسائل وسيلة لحث بنى الاوطان على السياحة والافادة والاستفادة وعسى ان كل واحد يذهب فى أوروبا من طريق غير الذى رسمته يكتب لنا عما يراه وعما تنبئه به احساساته ليتكون فى لغتنا العربية مجموعة سياحات توقف القارئ على أحوال هاتيك البلاد التى أصبحت منبع التقدم ومقر العرفان

* * *

والمسؤل فى وجه الله الكريم المنان ان يوفق أبناء الوطن الى توفيته حقه من الخدمة فى ظل فخر الانام وعماد الزمان ولى العصر

ومليك مصر مولانا الاكرم وخديونا المبجل عباس باشا حلمى الثانى أدامه الله كهفا للمعالى فهو الذى تفضل على بنظره العالى وانعامه المتوالى حتى كتبت هذه الرسائل وبثثتها فى قومى قياما بما وجب له من فرائض الشكر على عبده

المخلص

احمد زكى

Digitized by Google

(استدراكات)

(١) أنبه القارئ الى انى أشرت فى صحيفة ٦ عند الكلام على جزيرة أقْريطش مايشعر باحتمال اشتقاق لفظة القند بمعنى السكر عند العرب من اسم هذه الجزيرة الآن الذى هو كنديا لاشتهارها باصطناع العسل الجيد - ولكننى تحريت ذلك فرأيت انه غير حق ويجب علىّ تلقاء الذمة ان أبادر بالرجوع عنه بنفسى وأذكر الصواب وهو ان المسلمون لما فتحوا هذه الجزيرة فى سنة ٢١٠ اختطوا بها مدينة سموها «الخندق» ثم حرف الروم والافرنج هذا الاسم الى كنديا وتعارفه العرب بهذا الاسم وتناسوا الاسم العربى القديم كما حصل مثلا فى « دار الصنعة ودار الصناعة » فانه اسم عربى معتبر يدل على المكان الذى تصنع فيه السفن ذكره بهذا المعنى المقرى وابن بطوطة وابن الاثير والادريسى وابن خلدون وابن جبير والمسعودى وغيرهم وهو عند العرب يدل أيضا على المكان الذى يصنع فيه شئ من الاشياء ولكنه بالسفن أخص حرفه الاسبانيون الى Darsena و Atarzana و Arsenal ونقلها الطليانيون هكذا Arsenale و Darsena والانكليز الى Arsenal والفرنساوية الى Arsenal و Darse ومن المعلوم ان أهل مصر فى هذا الزمان أى من أيام محمد على استعملوا فيما يتعلق

بفن البحر كلمات كثيرة نقلوها عن اللغات الافرنكية وأخصها الطليانية فلم يلتفتوا الى ان كلمة Darsena أصلها عربى بل اضافوا لفظة (خانة) التركية وقالوا ترساخانة لاعتيادهم على اضافة «خانة» على اسماء جميع الاماكن العمومية الاميرية بالنسبة لتأثير اللغة التركية فى ذلك الزمان ثم انهم أحسوا ببعض المخالفة بين لفظتى (ترساخانة) و(دارسنا Darsena الطليانية) فحذفوا خانة واقتصروا على قولهم « ترسانة » ومثل هذه الكلمة كثير نقله الافرنج الى لغتهم ثم استرجعها العرب من غير أن يعيدوا لها شكلها بل أبقوها بكيفية لايكاد يتعرفها الباحث

***

(٢) ذكرت فى صحيفة ٤٦ ان كلمة Chapeau ومعناها عند الفرنساويين البرنيطة ربما كانت محرفة عن كلمة عربية وربما كانت هذه الكلمة هى «قبعة» وهو وهم محض فان الكلمة الافرنجية مشتقة من كلمة لاتينية Caput بمعنى الرأس - والذى أوقعنى فى هاتين الغلطتين اننى أوردتهما فى كتابتى اثناء الاسفار ولم يكن معى منها شئ استعين به على المراجعة فوجب الرجوع عن ذلك والحمد لله

Digitized by Google

***

(٣) قد سقطت عبارة من المطبعة أثناء طبع صحيفة ٢٨٦ فى منتهى الكلام على قبر (هيلوييس وأبيلار) ولزيادة الايضاح وجب علينا استدراك ذلك فالرجا من القارى ان يضيف العبارة الآتية على منتصف السطر الثالث من صحيفة ٢٨٦ المذكورة وهذه هى «وهذا الرجل من مشاهير الفلاسفة واسمه ورد بهذه الاختلافات

Abailardus, Abaulardus, Abaielardus, Belardus, Abélard, Abeillard, Abailard, Abaalarz,

بل و Baillart وهو من كبار الفلاسفة اللاهوتيين التعلميين وله مذهب مشهور فى الفلسفة وابتكارات ومصنفات مفيدة فى الموسيقى وكان يعيش فى منزل شماس له حفيدة من أشراف فرنسا بارعة فى الجمال واسمها هيلوييس فكلفه ان يتمم تعليمها ويؤدبها فكلف بها ابيلار حتى لقد كتب فى هذا المعنى يقول «ما كان لنا سوى بيت واحد فطلبتنا ان صار لنا فؤاد واحد» وبعد زمن قليل أحست الفتاة بالحبل فكاشفت استاذها (أو خليلها) بذلك فهرب بها ذات ليلة واخفاها فى شمال فرنسا عند اخته فوضعت ولدا سمته بطرس اسطرلاب. وحينئذ أراد الرجل أن يتزوج عشيقته ولكنها رفضت قائلة بان ذلك وخيم العواقب على محبوب قلبها وقد كتبت له (ان أصحاب المدارك ونوابغ الرجال لايصح لهم ان يربطوا أنفسهم بالعائلة

A 73

ومشاغلها) وأيدت رأيها بنصوص من أقوال اللاهوتيين من اللاتينيين واليونان ويقال انها أجابت بعد كثرة الحاحه فى آخر الامر ولما اطلع الشماس على هذا السر شرع فى الاقتصاص من الفيلسوف فارشى خادمه ودخل عليه بالليل ومعه نفر من ذوى قرابته وصحابته ثم أوثقوا كتاف ابيلار وجبوا خصاه فالجأ الفيلسوف اللاهوتى المخصى على خليلته أو زوجته بان تترهب فاجابت ثم لحق بها فى الدير واسس دير الراهبات ومازال يمارس التعليم والتدريس بما ينطبق تارة على أفكار اللاهوتيين ويخالفهم أخرى وهو يوالى وداده لصاحبته التى بقيت أصدق الناس على ولاءه

تم



Digitized by Google

Digitized by Google

DUE DATE

GLX FEB 1 6 1998

Printed in USA

Digitized by Google

893.785
Z13



BOUND

JAN 1 3 1956



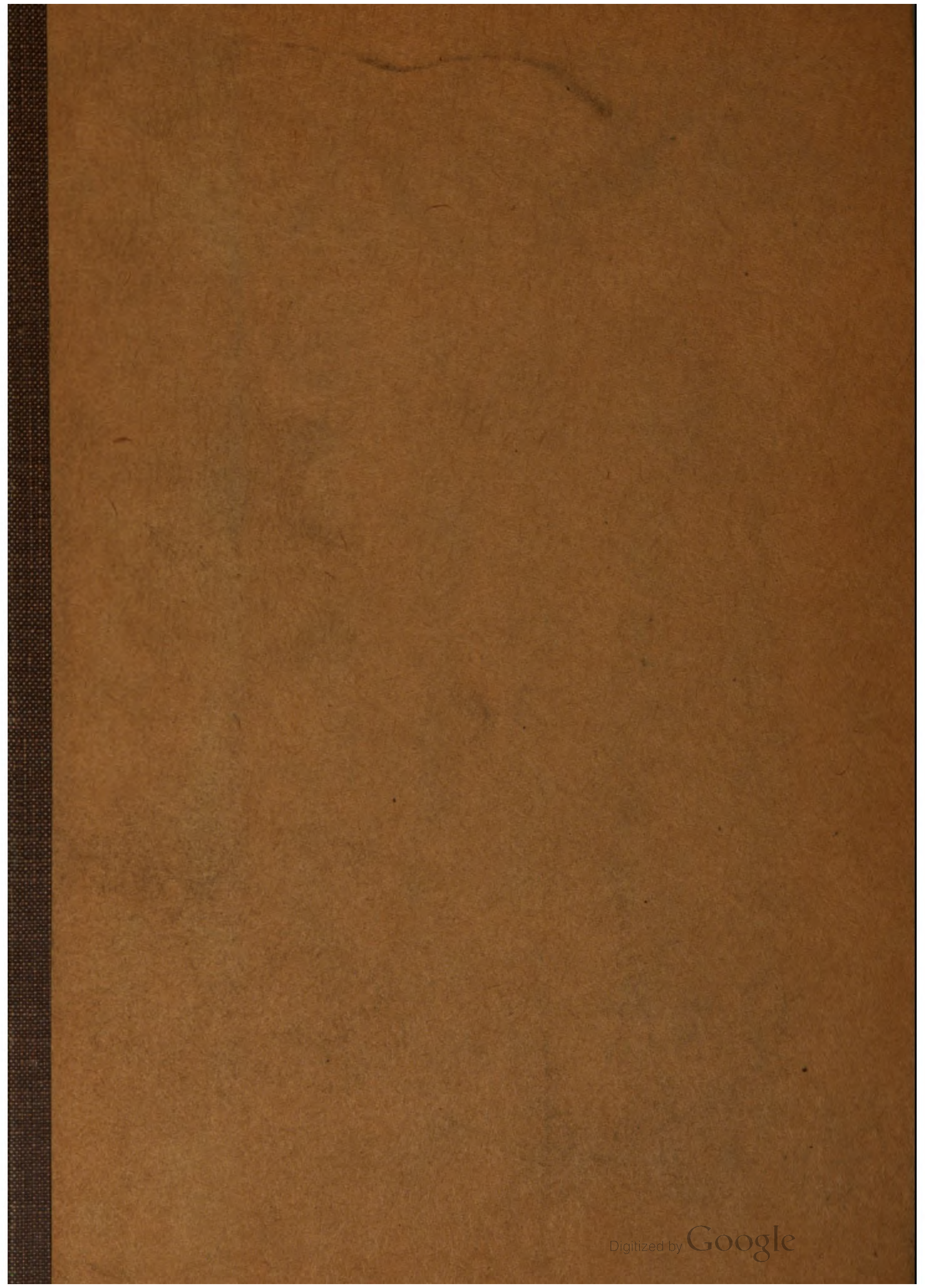
Digitized by Google

893.785
Z13



BOUND
JAN 1 3 1936




Digitized by Google